«هذه مذكرات عابر سبيل ، أرويها عفو الخاطر تاركاً نفسي على سجيتها ، والحبل على الغارب ، لا أعتمد فيها إلا على الذاكرة وحدها ، والذاكرة خؤون .

من أجل هذا ألتمس العذر ممن عنده العلم الصادق إن سهوت أو أخطأت .. إن كان قد سبق لى فى حياتى أن حاولت تسجيل حوادثها يوماً بيوم فإنى لم أستطع قط أن أكتب إلا صفحة يوم واحد ثم يشل الملل يدى ..

يكفينى أن تخرج هذه المذكرات كأنها نجوى تدور بينى وبين نفسى ، ملتزماً فيها الصدق والصراحة والنفع ، مهتماً بالعبرة لا بالتفاصيل .. وعزائى أنى أستقبل وأشيع كل خطوة بابتسامة ، ولو كانت الذكرى مُمضة والكلام عنيفاً ، فالابتسام وحده هو الذى يجعل طلب الصفح جميلاً ، وبذل الصفح أجمل ، ويقلب الماضى المر حلواً والحاضر الثقيل هيناً ، والمستقبل الملثم آمناً ..

إن كانت الابتسامة تنقلب أحياناً إلى سخرية ، فلا بأس ، فمن نفسى – وقبل أى إنسان آخر – قد سخرت .. أسير فى هذه المذكرات كما سرت فى حياتى أقود الشراع وأقول لزورق والبحر المخوف أمامه : «خليها على الله»

Bibliotheca Alexandrina
03444702

مطابع الهيئة المصـ

٢٥٠ قرشا

مؤلفات
يحيى حقي

١٦

خليها على الله

مؤلفات يحيى حقي

اهداءات ٢٠٠٢

ا.د/ يوسف زيدان

مدير المخطوطات و الاهداءات

خليها على الله

يحيي حقي

خليها على الله

القصص ٦

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الإخراج الفنى

إنعام صالح

مقـــــدمة

هذه مذكرات عابر سبيل، أرويها عفو الخاطر تاركاً نفسى على سجيتها ، والحبل على الغارب ، لا أعتمد فيها إلا على الذاكرة وحدها ، والذاكرة خؤون . .

من أجل هذا ألتمس العذر ممن عنده العلم الصادق إن سهوت أو أخطأت . . إن كان قد سبق لى فى حياتى أن حاولت تسجيل حوادثها يوماً بيوم فإنى لم أستطع قط أن أكتب إلا صفحة يوم واحد ثم يشل الملل يدى . .

وكانت كتابة المذكرات اليومية (مودة) شائعة لعهد قريب ، وكان بعض الناس – وخاصة النساء – يكتبون مذكراتهم فى دفاتر لها أقفال ، تماثل أقفال قلوبهم ، لا هذه ولا تلك تمنع افتضاح السريرة .

ولم أحتفظ كـذلـك بـأوراقى القـديمـة ، وبخـطابـات أصـدقـائى العديدين ، فقد عشت مشتتا ، ولو احتفظت بالأظرف وحدها لا غتنيت من بيع طوابعها . .

ولا كنت مغرماً بجمع قصاصات من الصحف وتبويبها ولو فعلت لأصبحت أسكن فى دفتر خانة .

هل فى هذه المذكرات دليل على أن النـاس يتوهمـون أنهم يعيشون أحراراً فى يقظة الحاضر ، وهم فى الحقيقة أسرى فى قبضة أحلام الماضى رغم نسيانه . . ؟

يكفينى أن تخرج هذه المذكرات كأنها نجوى تدور بينى وبين نفسِى ، ملتزماً فيها الصدق والصراحة والنفع ، مهتماً بالعبرة لا بالتفاصيـل . . وعزائى أننى أستقبل وأشيع كل خطوة بابتسامة ، ولو كانت الذكرى ممضة والكلام عنيفاً ، فالابتسام وحده هو الذى يجعل طلب الصفـح جميلا ، وبذل الصفح أجمل ، ويقلب الماضى المر حلوا والحاضـر الثقيل هينـا والمستقبل الملثم أمنا . . إن كانت الابتسامة تنقلب أحياناً إلى سخرية ، فلا بأس ، فمن نفسى - وقبل أى انسان آخر - قد سخرت ، أسير فى هذه المذكرات كما سرت فى حياتى أفرد الشراع وأقول لزورقى والبحر المخوف أمامه : خليها على الله . .

الباب الأول

مدرسة الحقوق . . ومضاعفاتها

إلى أمى

يوم أديت الامتحان الشفوى لآخر مادة فى شهادة الليسانس (وقد دام الامتحان بين تحريرى وشفهى أكثر من خمسة وعشرين يوماً) عدت من الجيزة إلى شارع السيوفية تحت شمس محرقة - وإن كادت تغيب ، فنحن فى عز الصيف ، يوليو سنة ١٩٢٥ - فإذا بى حين وصلت الدار أعجز عن صعود السلم .

لا أذكر كيف حملت إلى مسكننا ، ولكنى أذكر بوضوح أننى ارتميت بملابسى وحذائى راقدًا على الكنبة ، مسنداً رأسى إلى ركبة أمى ، أنفاسى متلاحقة تلهث ، فى جفاف ، كأنما هرب ريقى كله إلى عينى فهما مغرورقتان بالدموع . والتعب يبكى كالحزن .

فى جسمى إعياء شديد ، وفى ووحى إعياء أشد . . كان ينبغى أن أنجح ولو جاء اسمى فى الذيل ، لا اعتزازا بشهادة الليسانس وبلقب «متر»- وهو طولى إن زاد المتر «لكمية» - ولا طلباً للنجاة من المدرسة

وقرفها ، أو تلهفا على الاستقلال والقدرة على كسب الرزق ورد الجميل ، ولا أملا فى مستقبل مرموق فى الوظيفة ، أو شهوة فى العمل الحر . . ليس لشىء من هذا كله . . بل كان ينبغى أن أنجح لدافع واحد فحسب : هو ألا أغضب أمى ، أو أن أجرِّعها خيبة الأمل . . يهون علىَّ كل شىء إلا أن أقف أمامها وقفة الخائب .

لو أنها اكتفت بلومى وتقريعى لما باليت ، وإنما خوفى أن تنعى كيف ضاع جهادها من أجلنا عبثاً . وتندب سوء حظها . . مع أولادها أيضاً !

هى عماد الأسرة . ربتنا بيديها ، تخيط ثيابنا - ونحن ستة ، (من هذا الماضى تقفز إلى ذهنى كلمات : التنبيت ، الحردة ، القبة ، السمكة) ، تطبخ وتطعمنا متكلفة فى ذلك أشد العناء ، متحايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ، إذا قدَّمت لنا فى بعض الأحيان طعاماً نَزْراً لا يغنى ولا يسمن من جوع ضاحكتنا وصبَّت علينا ضجة مرحة كأنما اجتماعنا حول المائدة لعبة مسلية فكنا على ضحكها - ونحن نعلم أنه تمثيل ! - نجد الطعام وفيراً مشبعاً لذيذاً . وهى التى ربتنا بلسانها ، تحثنا بغير إلحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة ، كسوط صاحب الجواد الأصيل ، له وقع وليس له لسع . .

وربتنا - فوق هذا وذاك - بنظراتها إذا كنا فى مجمع من الناس ، نظرات تحوط علينا ، وتعلمنا كيف ينبغى أن نجلس ، وكيف ينبغى أن يكون الكلام المهذب ، وتقيد علينا كل زلة لسان - وإن كانت بريئة - وتنبهنا إليها إذا انفض الجمع .

ومما يؤكد لنفسي الآن أن لسانها هي لم يزلّ قط في مثل هذه المجتمعات ، أنني أذكر من بين صورها الباقية في ذهني صورة لها وهي مضطربة قلقة ، تكاد تعض بنان الندم لأنها هَفَتْ والحديث ثرثرة وذكرت عن امرأة غائبة أنها بدينة كالبرميل . . وكان بين الحاضرات زائرة ينطبق عليها هذا الوصف . .

* * *

سلق بيض . . .

كنا نغبط المتقدمين لشهادة الليسانس في البلاد الأوربية لسببين ، الأول : أنهم يمتحنون في بعض المواد دون بعض ، أما نحن في مصر فحتمٌ علينا أن نجتاز إمتحاناً تحريرياً وشفهياً في جميع المواد وأن نحصل من أجل النجاح على نسبة ستين في المائة من مجموع الدرجات ، وإذا سقطنا في علم واحد أعدنا السنة كلها .

والسبب الثاني : أنهم يدرسون قانون بلادهم وحدها . أما نحن ، فبعد إلمامة سطحية بالقانون الروماني ينبغي أن ندرس الشريعة الإسلامية ، والقانون الأهلي ، والقانون المختلط ، مع الرجوع في أغلب المواضيع إلى القانون الفرنسي ، حتى في القانون المدني الأهلي كان لا مفر من أن نعرف نصه الإفرنسي المزعوم بأنه ترجمة غير معتمدة للنص العربي ، وهو في الحقيقة أصل التشريع والنص العربي ترجمة له ، في أغلب الأمر فاسدة . يبلغ هذا العبء ذروته في قانون المرافعات حيث تختلف المواعيد في القانون الواحد ، وتتباين بين قانون وآخر . .

حفظت كل هذا عن ظهر قلب ضماناً للنجاح ، وكان حرص الطلبة الأوحد أن يأخذوا العهدوالمواثيق على الأستاذ بألا يخرج الامتحان عن النص الموجود بين أيديهم ، إذا رأى حذف بعض التفاصيل فى أحد الأبواب تشبثوا به حتى يبين لهم بنفسه من أية صفحة يبدأ الحذف وعند أية كلمة ينتهى ، ولو كانت وسط السطر .

- والهامش يا أستاذ ! محذوف أم غير محذوف ؟

تجرى أقلامهم فى لذة كبرى تشطب المحذوف «ياللا فى داهيه !»

لم أجد إلا فى القلة النادرة أستاذاً يرتفع عن هذا الإرهاب ليشرح لنا العلة والسبب والمنطق وراء ما نحفظه من التفاصيل ، كنت أشعر وأنا أدرس الشريعة الإسلامية أننى أغوص فى بحر من الرمل لا أجد لقدمى مستقراً صلباً . . لم أفهم فلسفة الدّية ، لأن قانون العقوبات الأهلى علّمنى شيئاً مختلفاً جداً . . كنت أود أن أعرف قانون الحجاز قبل الإسلام لأفهم الشريعة فهماً صحيحاً . . ولكن هذا لم يحدث .

ولم يفكر أستاذ أن يدلنا على كتاب نقرؤه خارج المقرر لننتفع به ، كأنهم يقولون «التلميذ الكسول حمار بليد لا يأبه حتى لوقع العصا ، والتلميذ المجّد حصان سباق يشقّ طريقه جرياً بغير حاجة لمهماز . .»

وضعت أنا - كالبغل ! - بين الاثنين . . كنا نحفظ الشىء الكثير عن «الفتاوى الهندية» ، بحثت عنه فى المكتبة حتى ظفرت به . ولكننى وجدتنى بإزاء خضم واسع أحتاج فيه إلى مرشد فلم أنتفع به إلا قليلا ، وإلى الآن لم أفهم سر نسبة هذه الفتاوى للهند . .

تعليم كسلق البيض ، وتدافع كالقطيع إلى المجزر ، وحشو للدماغ ، حتى تكاد تنفجر ، بالتفاصيل والقشور . . إن أردت أن تظفر بالجواهر فعلت ما تفعله فقيرات شعبنا الباحثات فى صفائح القمامة ، أو فى أكوام الرماد بمخازن السكك الحديدية عن شظايا فحم لم تحترق . .

عرفت زميلا لى كان يباهى بذاكرته الخارقة ، يكاد لا ينسى شيئاً ، ولكنى بعد امتحان الليسانس كنت إذا حدّثته عن شيء وقع بالأمس القريب أجابنى ببلاهة :

- آه ! حقاً ؟ إننى لا أذكر . .

إننى عاتب إذن على مدرسة الحقوق للأسباب التى ذكرتها - وهى أسباب تتعلق بالمبادىء «فكأننى أقدمها لمحكمة النقض !»

إلى جانبها سبب آخر ، إن كان أهون شأناً إلا أنه أبقى أثراً لأنه وليد الأوهام والغرور وحب استعراض النفس .

كان يقال فى المدرسة الثانوية للطامعين فى دخول مدرسة الحقوق :

- يا بختكم ! هذه مدرسة تقام فيها محكمة وهمية . . فيختار تلميذ لتمثيل دور رئيس المحكمة ، وآخر يتكلم باسم النيابة ، وثالث يتولى الدفاع ، ورابع يقف فى قفص الاتهام ، وقد تدوم المحاكمة أكثر من يوم .

إذا سمعت هذا الكلام أرى نفسى لا فى قفص الاتهام ، فهذا دور غير خطير ، وحتى لو حكم على بالإعدام فإننى سأخرج لتناول الغداء فى دارى ، ولا على منصة الرياسة ، فهذا دور يصلح لأبكم متعنطز . . بل أرانى أمثل النيابة ، ظاناً أن الشريط والوسام على صدرى ، أو أمثل الدفاع

– أخب فى روب خيالى – وأنطلق فى مرافعة طويلة مشوحاً بيدى ، مشيراً بسبابتى ، مرة للسقف – حين أذكر العدالة – ومرة إلى قفص الإتهام – مؤلبا أومسترحما . . أدق المنضدة بقبضة يدى – ستضع مدرسة الحقوق منضدة أمامى ؟ سأخلع الطربوش وأمسح بين الحين والآخر عرقى – أرجو ألا يكون منديلى ذلك اليوم مخروقا ! – سأرفع صوتى لأعلى الطبقات ، ثم أهبط به إلى الهمس حانياً رأسى على الأوراق أقلبها للبحث عن المستند القاطع الذى أخفى خبره ولا أبرزه إلا فى تمام المفاجأة . . والمحكمة كلها تكتم أنفاسها فى تلك اللحظة الرهيبة . .

ومرت السنوات الأربع ولم تعقد قط هذه المحكمة . . مدرسة تعد أغلبنا لصنعة الكلام ، تتركنا دون أن تتيح لطالب منا فرصة واحدة ليقف فيتكلم أمام جمع ، حاضر الذهن ، مالكاً لشخصيته وأعصابه ، غير متلعثم ، لا يتفصد وجهه عرقاً وخجلا . . والخطابة موهبة ولكنها تكتسب أيضاً بالمران .

* * *

سحر الخطابة

وكان لى شغف قديم بالخطباء ، دسست نفسى وأنا تلميذ صغير أخاف الزحمة – فما بالك بالرصاص – وسط المتظاهرين حتى بلغت بيت الأمة لأسمع سعد زغلول . صورته الباقية عندى كخطيب تعود إلى يوم فى سرادق كبير كأنه يوم الحشر .

وهاج الجمع حين علم أن سعد زغلول معتذر عن الخطابة لأنه مريض ، وأنه سيندب أحد أعضاء الوفد ليتحدث إلينا بدله . . رأيته يشير إلى رقبته ، يلفها بكوفية . . ويهز رأسه كأنما يقول : لا . . لا . . وهجم عليه رجال يجذبونه جذباً إلى المنصة ، وهو يدافعهم وتتشبث أقدامه بالأرض ويثقل وزنه بين أيديهم ، ولكنه غُلِب على أمره (أو هذا - على الأقل - ما فهمناه نحن ، والله أعلم بصِدق عزوفه) وبدأ كلامه بصوت خافت متقطع ، رأسه كأنها مغروزة فى جسم بلا رقبة من أثر الانحناء .

وشيئاً فشيئاً دبت فيه حركة - يالها من حركة - وحماس أى حماس ! . . انتصب الرأس كأنه تمثال حى للنبل والجبروت والاعتداد بالنفس . . ذراعاه الطويلان - كذراعى الغوريلا - يضمان إلى صدره العريض أمانى الدنيا ، ويقصيان عنه فى حركة واحدة كل خبائثها . . ترتجف القلوب حين يشير بسبابته متوعداً . . رَفَعَنا وهبط بنا . . أذاقنا السعادة والحسرة والأمل . . أربع ساعات كاملة لا ينقطع سحره . . وخرجت سعيداً مخدر الجسم متعباً ورأسى دائخة .

وحرصت - وأنا صغير أيضاً - على سماع أول خطبة يلقيها توفيق دياب ، بعد عودته من إنجلترا ، وقيل لنا إنه درس فيها فن الإلقاء . . على أصوله . . لاعجب أن كان خطابه كهدير المانش . . وكانت «توبة من دى النوبة» . . ثم حين اشتغلت بالمحاماة سعيت إلى سماع كل محام مشهور بالخطابة ، ووصفتهم - بعد الانتفاع بكتاب ل «هنرى روبير» نقيب المحامين فى فرنسا - فى مقالات نشرت بصحيفة «وادى النيل» التى كانت تصدر بالإسكندرية - ولنا عودة لها - أسماء غير قليلة لا فائدة الآن من ذكرها ، ولكنى أحب أن أقف عند إبراهيم الهلباوى .

الهلباوى

سافرت معه فى القطار مرة من الإسكندرية إلى دمنهور ، حيث كان عليه أن يترافع فى إحدى القضايا بمحكمتها . . تخلّص برقة حازمة لا تجرح من تجمعنا نحن صغار المحامين حوله وقال إنه لا مفر له من أن يفرغ من قراءة ملف القضية ، لأنه - والكلام بين محامين ، مع حفظ المقام ! - لم يفتحه بعد ، وتناول - بعد أن تركنا مزارع الموز عند محطة سيدى جابر - ملفاً ضخماً وأخذ يقلّب صفحاته ، لا تكاد عينه تستقر على الصفحة إلا قليلا . . وأنا أقول فى سرى « ما شاء الله أهذا شأن كبار المحامين ، ومبلغ أمانتهم فى دراسة القضايا ؟» .

جلست أستمع إلى مرافعته ، وقد دامت أكثر من ساعتين . نهب فيها أبصارنا وخلب ألبابنا ، من يسمعه يقسم بأغلظ الأيمان أن هذا الرجل «فَلَّى» ملف القضية كلمة كلمة ، وحفظها عن ظهر قلب . . إنه محام يعتمد على الجو وخلق الجو .

لو سطرت خطابه على ورقة ثم خلوت لنفسك بعيداً عن هذا الجو وقرأتها لقلت «هذا كلام محموم يهذى» فلا رابطة قط بين الجملة والجملة . . وأكثر الجمل غير كاملة ، بل هى كلمات متفرقة .

مسكين إبراهيم الهلباوى ، هذا الرجل الذى كانت شهرته مضرب الأمثال . . يقول الفلاح عن غريمه «والله لاقتله وأجيب الهلباوى !» ضامنا بذلك البراءة . . لا أعرف أحدا من ساسة مصر تجرّع مثله العذاب علقما وصاباً ، كأسا بعد كأس ، سنين طويلة تكاد تكون هى عمره كله ،

لا أدرى أى شيطان خبيث أوقع فى ساعة نحس ربيب الثورة العرابية ، وتلميذ جمال الدين ، وزميل سعد المرفه الذى يجب أن يعيش فى ستر – مثل توفيق نسيم – وسط سرب من الجوارى البيض ، على حين أن المستقبل مبسوط أمام نفسه الهمام الذكية الطموح . . أوقعه فى نكبة لا براء منها ، وزلة لا غفران لها وإن تاب الخاطىء توبة نصوحا . . فنحن فى الأرض لا فى السماء . . حين قبل أن يترافع ضد شهداء دنشواى ويجرِّب فيهم فصاحته وبلاغته ، ويتجنى عليهم ويطلب الحكم بإعدامهم ليكونوا عبرةً لغيرهم من أبناء شعبه . . أف ! إن نفسى تتعكر من جديد . . إن دنشواى جرح لا يندمل فى قلب مصر . . تتوارث حقده الأجيال . . فى ذلك اليوم حفر الهلباوى قبره بيده ونزله حياً .

بين المرات التى أذكر أننى بكيت فيها وأنا صبى بحرقة ومرارة (إلى جانب رثاء "شوقى" لمصطفى كامل) يوم أن فرغت من التهام العدد الخاص الذى أصدرته «مجلة المجلات» – ووجدته فى دارنا حين كبرت – عن نكبة دنشواى . . لا أزال أذكر صورة المشانق ، وصفوف جند الإنجليز على هيئة مربع . . وبكيت أيضا حين قرأت قصة جميلة – منسية مع الأسف ، وهى جديرة بالذكر – اسمها «عذراء دنشواى» مؤلفها – وزيتنا فى دقيقنا – عمى محمود طاهر حقى ، كتبها وهو فتى لم يَطُرّ شاربه.

ولعل خير من سجّل شعور مصر هو المرحوم قاسم أمين النابغة العزوف ، المتعدد المواهب ، حين قال : «رأيت قلب مصر يخفق مرتين ، يوم تنفيذ حكم دنشواى ويومْ وفاة مصطفى كامل» .

نسى الشعب أناسا آخرين ، مسئوليتهم – إن لم تزد فلا تقل عن

مسئولية الهلباوى . . القضاة الذين أصدروا حكم الإعدام ، والوزير الذى صدّق على هذا الحكم ، ورئيس الوزراء الذى بارك هذا الجرم بسكوته عنه . . من هم ؟ لا أحد يذكرهم . ونسى الشعب أيضا كثيرين ممن أجرموا فى حق الوطن ، ولكنه لم ينس قط جريرة إبراهيم الهلباوى . . جريرة لا تجىء آخر العمر ، فإن لم يسهل نسيانها غيّبها القبر ، ووارى سوءتها التراب وأراح صاحبها من رؤ ية الناس ، وأراح الناس من رؤ يته . . بل تجىء فى أول العمر . .

حين عاد عرابى من منفاه فى شيخوخته . . قيل إن بعض الناس تلقوه على المحطة صائحين فى وجهه هاتفين ضده ذاكرين له هزيمته فى التل الكبير وإنه سبب النكبة . . ربما كان ذلك بترتيب من الخديو عباس الثانى لحقده الدائم على عرابى الذى خلع أباه ، وللنكاية به لأنه لم يقدّم عريضة الاسترحام بعودته للوطن إلى ولى النعم ، بل جرأ على تقديمها من فوق رأسه إلى جورج الخامس - وهو إذ ذاك ولى عهد - حينما مر بسيلان فى طريقة إلى الهند .

واعتكف عرابى فى داره لايحس به أحد . لو سألت إنساناً من الجيل اللاحق له أين يقع منزله لما عرف . . وهذا أغرب مثل فى تاريخ مصر على قدرة الشعب على النسيان . .

حاول الهلباوى أن يشترى الغفران بدفاعه البارع عن الوردانى ولكن هيهات . . حاول أن يعود إلى الحياة العامة والاشتغال بالسياسة فانضم إلى حزب الأحرار الدستوريين . . ولكن ماذا حدث ؟ لقد شهدت بنفسى مصرعه ، من وقع لطمة أخرى . .

حضرته يخطب فى سرادق ضخم ازدحم فيه أنصار الحزب المتحمسين - يكفرون بسعد ويؤلهون عبد العزيز فهمى .

وأفاض الهلباوى فى الحديث عن الوطنية الحقة مشيداً بجهاد الحزب من أجل تخليص حقوق البلاد من يد المحتلين ، وقوطع خطابه بالتصفيق والهتاف . . وامتلأ الرجل ثقة وزهوا وظن أن الدنيا قد صالحته ولكنه لم يكد يفرغ من خطابه حتى ارتفع صوت فى آخر السرادق يهتف :

- ليسقط جلاد دنشواى .

كنا واثقين أنه دسيسة بعث بها حزب الوفد لإفساد الحفل ، بدليل إتخاذ المبعوث مكانه بجانب الباب ليسهل عليه الهرب . ومع ذلك فكأنى بالحاضرين قد مستهم الكهرباء فجأة ، وإذا بهم كلهم - وهم أنصار حزب الهلباوى وأعوانه ومشايعوه - يقفون وقفة رجل واحد ويهتفون بصوت واحد يجلجل كالرعد :

- ليسقط جلاد دنشواى . .

إنه كان صوت مصر ينطلق من حلوقهم رغم إرادتهم . .

هل هو انتقام جديد للقدر من وراء القبر أم مراضاة منه ومصافاة لا تخلوان من التهكم والسخرية ؟ . . إن الذكرى الوحيدة الباقية للهلباوى بعد وفاته تسمعها من كمسارى الأتوبيس فى خط المنيل وهو يعدد المحطات :

- محطة الجراح . . محطة الهلباوى !

يرحمه الله . .

خطب لا خطيب

نوع آخر من الخطباء كنت أسعى إليه أيضاً . . خطباء الجمعة فى المساجد (استمعت فى الأزهر إبان الثورة إلى «أبو شادى» ، «أبو العيون» ، «شكرى كرشه»الخ الخ . . هذا شىء آخر ، فهى خطب سياسية) . وبعد جولة واسعة فى المساجد اكتشفت فيها الشيخ رفعت فى درب الجماميز ، والشيخ توفيق فى جامع ابن طولون ، عرفت الخطباء الذين يقرأون من الكتب أو الورق ، والخطباء الذين يكرون الخطبة أداء لواجب ، بغير إحساس ، فعزفت عنهم ، واصطفيت لنفسى خطيباً فى مسجد كبير يقع قريبا من دارنا ، أواظب على صلاة الجمعة فيه ولا أجرؤ على التخلف عنه للذهاب حيث تهفو نفسى . . إلى الشيخ رفعت أو الشيخ توفيق . .

كان الخطيب رجلاً ضخم الجثة ، مهيبا ، له لحية كثة بين الحمراء والصفراء إذا سقط عليها شعاع من الشمس تلألأت أنواراً . . نظيفاً ، متأنقاً ، متعطراً ، شاش العمامة أبيض كالثلج ، تقف فتله كأسنان المشط ، وطيلسانه يخرخش كأنه خارج لتوه من رجل - لا يد - الكواء البلدى .

إنه يرتجل خطبته ، لاشك عندى فى ذلك ، ولو أنه لا يتريث أو يتلجلج ولو فى كلمة واحدة . . ما يكاد يفرغ من البسملة والحمد حتى تنحدر رأسه للوراء وترتفع لحيته وكأنه يسبح فى بحور من الجلالة ، أو أنه يرى الغيب . . وقعنا كلنا أسرى فى قبضة سحره ، صوته يدوى فى أرجاء

المسجد ، عذباً قوياً، يهز قلوبنا هزاً . . الناس صامتون كأن على رؤ سهم الـطير . . يمصمصون بـين الحين والآخـر شفاههم تحسـراً على انحدار المسلمين . . وإذا ذكر اسم النبى ﷺ ارتفعت موجة من الترجيع ، كأنها شهقة واحدة ، يخشع لها قلبى ويجف حلقى وتدمع عيناى . .

فإذا هبط الخطيب من المنبر تجمع حوله بعض المصلين يمسحون بيدهم على طيلسانه ، ثم يمسحون بها على وجوههم ، وهو مبتسم تـواضعاً لا كبرياء . . كنت أقلدهم وأحذو حذوهم ، كنت أُكِنُّ لهـذا الرجـل محبة وإعزازاً وفوقهما احتراماً وتوقيراً . . كم تمنيت لو وقعت نظرته علىَّ وحدثنى ليعلم ما فى قلبى نحوه . .

ذهبت كعادتى للمسجد يوم الجمعة ونودى للصلاة وتعلقت أبصارنا بالباب المؤدى إلى الميضة ، إذ عودنا الخطيب أن يهل علينا منه فى تلك اللحظة ، فلم نر شخصه . ولا أدرى من أين انفلت من بين الصفوف رجل قزم أجرد نحيل صعد المنبر وتلا علينا بصوت أخنف خطبة لم أع منها - لشدة خيبة الأمل - كلمة واحدة .

وعدت إلى الدار وذكرت الأمر لوالدى ، وكان موظفاً بوزارة الأوقاف وعنده علم بأخبار خطباء المساجد ، فذكر لى - لا يعلم مبلغ وقع كلامه علىَّ - أن هذا الشيخ قد رُفت من عمله لأنه ضبط فى جريمة خلقية تزرى برجولته وكرامة جنسه ، ليته قال لى إنه ضبط مع امرأة ، أو مع مخنث . فنحن فى الشرق نفرق بين الاثنين ونغفر لواحد دون آخر ، نصبُّ عليه احتقارنا ، أما فى الغرب فالاثنان عندهم سواء ، تصفهما كلمة واحدة لا تعرف أيهما تعنى ، وقع علىَّ هذا الخبر وقع الصاعقة وزُلزلت لـه نفسى

زلزالاً شديداً . . وانقطعت عن صلاة الجمعة زمناً طويلا لا أذكره . . ولما عدت كنت غير الذى كان . . خط سير حياتنا مرتبط بحوادث نقابلها قضاء وقدراً .

***

خطباء فى المساجد

وما دمت أتحدث عن المساجد فينبغى أن أذكر أشياء باقية فى نفسى . أولها ضيقى الشديد بصنوف الأحذية والشباشب والبُلَغ تُصفُّ حيث تقع جباهنا حين نسجد . على باب المسجد الذى كنت أصلى فيه خزانة لحفظ أحذية الداخلين ، لقاء قرش ، لست مجبراً على دفعه إن شئت ، ومع ذلك فإن عدد الراغبين فى الدفع لم يزد على أصابع اليد الواحدة . . يدخل رجال متأنقون ، يلبسون شيئاً يقال له «المز» وهو حذاء مركب فى قالب يشبه الشبشب له فى خلفه سن بارزة من المعدن كالمهماز لتضغط عليه القدم الأخرى لتخلعه بدون حاجة إلى الإنحناء ، (وقاك الله فى شيخوختك من الروماتيزم وعرق النساء !) ويدخل صاحبه المسجد بالحذاء النظيف تاركاً القالب بالباب . . لم أعد أرى هذا النوع من الأحذية . . ورأيت بعض أهل الحجاز فيما بعد يصلون بأحذيتهم ويدور جدل طويل هل هذا جائز شرعاً أم لا . ويذكرون باب «المسح على الخفين» . . هذه مشكلة باقية لا تزال تحتاج لحل .

والأمر الثانى هو ضيقى الشديد أيضاً بخطباء كانوا كأنما لا يحلو لهم إلا تقريعنا وسبنا وشتمنا ، الكلام موجه إلينا . لقد ضاع الإسلام لأنكم

أهملتم الصلاة (ألم نأت للصلاة !) ونسيتم الزكاة (وأغلب الحاضرين من الفقراء المستحقين للزكاة !) لماذا انطوت قلوبكم على المعاصى والإثم ! إن جهنم لكم بالمرصاد . . ياأخى ! لقد جئنا للمسجد طاعة لله سبحانه وطمعاً فى رحمته ورضوانه . أناس كثيرون غيرنا لم يأتوا للصلاة ، ولا نريد منك كلمة شكر ، بل - على الأقل - اعفنا من السب . .

* * *

خطبة وفاء النيل

حضرت فيما بعد ، صلاة الجمعة فى مسجد بإحدى قرى منفلوط . الخطيب يقرأ من كتاب به نص لاثنتين وخمسين خطبة منبرية موزعة على أسابيع السنة ، ومن بينها خطبة موضوعة لجمعة وفاء النيل .

وأخذ الخطيب يقرؤ ها علينا . وهى إشادة بالنيل ووفائه . ومجيئه لأرض مصر بالخير والخصب والبركات . . يصل إلى أسماعنا صراخ النسوة فى القرية باكيات محاصيلهن التالفة ، وجاموسهن الغارق ، ونكبتهم الكبرى بفيضان النيل ذلك العام ، اكتسح القرية وجسورها وأكل أرضها وأتلف محاصيلها وهدم بيوتها وزرائبها . . والخطيب ماض فى خطبته والناس أمامه مطأطئون الرءوس مدفوسة بين ركبهم . . إن كان قلبى قد رق لهم ، فقد رق رقة أشد لهذا الخطيب الساذج . .

تجربتى فى الخطابة

لم يتح لى أن أخطب فى حفل إلا بعد أن جاوزت سن الخمسين . وقد رأيت دائماً أن الارتجال خير من الحفظ . . وإنما ينبغى للخطيب أن يعد - على الأقل - مدخل كلامه ، ولو جملة واحدة . . تفتح له الباب ، فلا يتلجلج أو يتريث طويلاً عند بدء الحديث .

وخيل إلى أنى أروج فى مصر للمذهب الإنجليزى فى الخطابة وأنا أؤمن به . . وهو مذهب ينفر من المبالغة فى الحركة والإشارة ورفع الصوت وخفضه .

ذلك أننى أعتقد أن منصة الخطابة فى مصر ، ومسرحها كذلك (منذ أيام جورج أبيض) منكوبة بالمذهب الفرنسى الذى يحب تلك المبالغة (لقد استمعت فى الجمعية الوطنية الفرنسية إلى «دلادييه» و«بول رينو» و«جول موك» اليهودى ، وأستاذهم جميعاً ، «ديكلو» الشيوعى ، كما سمعت قبلهم مصطفى كمال فى استانبول ، و«هتلر» و«جوبلز» فى «ميونخ» ، وجميع خطب موسولينى التى ألقاها من شرفة قصر «فينسيا» من سنة ١٩٣٤ إلى ١٩٣٩) وإذا كان قد خيل إلى أننى أروج للمذهب الإنجليزى فمما لاشك فيه عندى أننى لم أنجح ، فلا يزال جمهورنا لا يحب الألوان - ولا أقول الأصوات وحدها - إلا إذا كانت صارخة . .

ولكن ما قولك فى أن هذا المروج للمذهب الإنجليزى لم يسمع قط خطيباً إنجليزياً واحداً . . ؟ ألا يستحق الإخفاق جزاء وفاقاً ؟

قتيلة فى حارة السكر والليمون

عود لمدرسة الحقوق ، أو كما كان يقول إخواننا اللبنانيون فى مطلع هذا القرن :

«رجع ما انقطع ! . .»

لم تقم المحاكمة الوهمية - كما بينت - ولكن أستاذ القانون الجنائى اصطحبنا إلى محكمة الجنايات لنشهد قضية ونتعلم كيف تجرى المحاكمة . .

هى جريمة قتل - ولذلك فهى أشهى للنفس ! - ضحيتها امرأة من بائعات الهوى . . إننى لم أنس هذه الجريمة ، أفتش اليوم فى قلبى عن الأسباب فأتبينها بغير جهد . .

سائق ترام له عشيقة تسكن فى الدور الأرضى بأحد المنازل الفقيرة (علشان الدفن مش ح نروح بره) . . وجاء اليوم - وهو يجىء دائماً - حين ينقلب الحب إلى ملال ، والملال إلى كره وبغضاء . . ووثق الرجل أنهما ماداما على قيد الحياة فلا مهرب لأحدهما من الآخر . .

ولما كان عاجزاً عن الانتحار ، لم يبق له إلا أن يقتلها . . ولكنها كانت امرأة ضخمة الجثة ، جِرمة عفية ، وكان هو رجلاً قصيراً نحيفاً . . فماذا يفعل ؟ . . ذهب إلى صديق له وقال :

- أنت صديقى ، قاصدك فى معروف ، والأصحاب لبعض . .

- أنا تحت أمرك !

- بس لازمنى مساعدة فى مسألة . .

- أنا خدامك . . إيه هى ؟ . . قول . .

- بدى أخلّص على واحدة أعرفها . . مش قادر أموتها لوحدى لازم أجيب خبرها قبل ما تجيب خبرى . . لازمنى زى ما أنت شايف مساعدة . .

- بسيطة ! ، أنا تحت أمرك . . فين هى ؟ . . ياللا بينا .*

ودهب الاثنان ، وشرب الثلاثة خمراً ، وأمسك الصديق بذراعى المرأة وخنق السائق عشيقته ، فعضته فى إصبعه . .

وبعد ساعات قلائل من اكتشاف الجريمة ، بعد أن فاحت الرائحة ، ضبط البوليس القاتل وهو يسوق الترام بيده إصبع فيها ملفوف فى قطعة من قميص القتيل . . ففرملوه قبل أن يفرمل هو ترامه .

لا أنسى هذه القضية لأنى حرت يومئذ - ولا أزال حائراً - فى تفسير فهم أولاد البلد لحقوق الصديق على الصديق - هل تذهب إلى حد المساعدة فى القتل ؟

هذه قضية فريدة فى تاريخ الإجرام - فقد أقدم إنسان على قتل إنسان لا يعرفه ، لا بدافع الإنتقام أو الرغبة فى السرقة بل تطوعاً محضاً - لوجه

* (جريدة «الجمهورية» ، ١٩٥٩/٣/٢٧ ، ص ٥)

الله ! - لمساعدة صديق واقع فى ورطـة . . أعتقد أنـه مما دفـع الرجـل الصديق إلى القتل هو علمه بأن المرأة من بائعات الهوى فقتْلُهَا عنده حلال وتطهير للأرض ، له أن يـطلب الشكر عليـه ، ومن الظلم أن يحـل به عقاب . .

ولا أنسى كذلك صورة الجثة حين نشرتها الصحف وقتئذ . . محال أن تكون هذه الشلفطة واللخبطة : الشعر الأجعد الملتصق بالجمجمة بغراء من الدم ، والعينان الجاحظتان كعينى السمك المتن ، الفم المشـروم ، البطن المنتفخ ، الذراعان المتصلبتان على هيئة قوسين ، محال أن تكـون هناك صلة - أقل صلة - بين هذا كله وبين الإنسان الذى كان منذ قليل يغدو ويروح ، وينطلق لا بلسانه وحده بل بكل خلية وذرة فى جسده ، إن الحياة فى أبشع صور الدمامة جميلة ولكننا لا نراها .

***

وما تركت فرصة فى حديث إلا انتهزتها (وإن كنت لم أنجح إلا قليلاً فى استمالة السامعين إلىّ حتى أحسب نفسى أنفخ فى قربة مقطوعة ، أو أننى من عجينة غير عجينتهم . . أو أننى ملتـاث !) لأندد بـالغلظة وفقدان الإحساس وإنكار أبسط مبادىء الذوق والحياء حين يتجـلى هذا كله فى صحفنا التى تنشر صور القتلى مكبرة فى صفحاتها الأولى ، صور مشوهة بشعـة - والعجيب أن هذه الصحف تعلم أنها هى وحـدها دون سـائر صحف العالم كله ترتكب هذه الجريمة . . فهل نحن أقل ذوقاً من خلق الله جميعاً ؟ !

لا تزال فى ذهنى باقية ، صورة نشرتها إحدى الصحف ذات يوم لمجرم

عات فى الصعيد أرهب البلاد ودوّخ رجال الأمن والعباد حتى رتبوا له كميناً وقتلوه بعد معركة طويلة ، وها هى جثته ملقاة على الأرض .. وها هو مراسلنا بناحية كذا يهرول لمكان الموقعة ليسجل لنفسه نصراً صحفياً .. ولم ينس أن يأتى بمصور ، فالصورة أهم ما فى الخبر .. لا أدرى من الذى أصدر التعليمات .. ولكن الجميع تهيأوا لاتخاذ أماكنهم .. والجثة فى المقدمة بالطول لا بالعرض . اصطف من ورائها فى حلقة : المعاون النشيط الذى صرعه ، والمأمور الهمام الذى ضيّق عليه الخناق ، ومفتش الخفر الذى كاد يصاب برصاصة .. إلخ إلخ .. ومن ورائهم عدد كبير من الجنود مبرومى الشوارب ، وغفر قد هبطت اللبدة فوق الحواجب ، وحار المصور كيف يفعل من أجل أن «يبشرق» القارىء عينيه بصورة هؤلاء الأبطال جميعاً وصورة القتيل معاً .. فى (صعيد) واحد . والمصيبة أن القتيل لا يمكنه الوقوف على قدميه ولا يتأتى للأبطال أن يرقدوا - أو يقرفصوا على الأرض .. فما العمل ؟ . استدعى المصور فتى وكلّفه بأن ينحنى ويرفع رأس القتيل وحدها ويثنيها إلى الأمام حتى يظهر وجهه فى الصورة ، (ياأخى ! . هل هى صورة بطاقة تحقيق شخصية ؟) والفتى ميت على روحه من الضحك ..

لم أر شيئاً أبشع من رأس هذا القتيل وهى تبحث عن مكانها فى الصورة .. إننى أخجل من أن أطالب بإصدار قانون لمنع هذه الصور لئلا يقال عنا إننا لا نعرف الحياء إلا بقوة البوليس ! ..

والسبب الثانى الذى من أجله أذكر هذه القضية أنها وقعت فى حارة

اسمها «حارة السكر والليمون» ، وكنت منذ صغرى مشوقاً بتتبع الأسماء الغريبة أو ذات الدلالات لحارات مصر ، مثل «الزير المعلق» ، «بين النهدين» ، «درب الأغوات» إلخ إلخ . . وأشهرها عندى «حارة الوداع» ، نصفها فى المدينة مبلط ، ونصفها فى القرافة تراب . . أشد أنواع التراب نعومة . . كأنه طحن عظام . . وكنت أتتبع أبحاث المرحوم الأستاذ رمزى عن أسباب هذه الأسماء ونشأتها ، ولكنى لم أكن وقتذاك قد سمعت - أو تصورت - أن القاهرة بها حارة تسمى «حارة السكر والليمون» ، وقد سحرنى هذا الاسم - ولا أدرى لماذا ؟ لعله كان بشيراً باتصال حياتى فيما بعد بالفنون الشعبية ! - ولكن هذا الاسم جعلنى أزداد حباً لأولاد البلد واستلطافاً لروحهم المرحة وفكاهاتهم الرقيقة وإعجاباً بإنسانيتهم ، لعل هذه الحارة كان يسكنها فى الأصل خدم القصور المكلفون بإعداد الشربات فى الأعياد والمواسم . . من بقايا العهد الفاطمى الذى كانت فيه الدولة أكبر منتجة وموزعة للحلوى ولقمة القاضى . .

وقد سعيت بطبيعة الحال إلى هذه الحارة بعد القضية فلم أجد بها لا سكراً ولا ليموناً ، بل ولا شربتلى واحداً . . حارة مقبضة رهيبة وهى - علم الله - بريئة . إنما كنت أراها بعينى من حضر القضية ووقف على خبر الجريمة التى ارتكبت فى أحد منازلها . .

* * *

أسماء الحارات

ومن فكاهات أهل البلد ودعاباتهم - فى باب تسمية الحارات -

مافعلوه مع « مسيو كفاريللى» العالم الذى جاء مع نابليون فى حملته على مصر، وسكن إحدى حاراتها . .

- اسم الخواجة إيه ؟

- قال اسمه كفاريللى . .

- يعنى «اللى كفر» .

إبدال بسيط لنطق الكلمة فأصبحت اسماً على مسمى . .

وهكذا سميت الحارة «حارة اللى كفر» .

ولما بدأت مصلحة التنظيم تضع لافتات بأسماء الحوارى وقفت حائرة أمام هذا الاسم . وأخيراً هداها الله أن تكتبه هكذا :

«حارة الذى كفر» . .

وأضاع التفاصح نكتة العامة . .

وهذا القلب والإبدال من عادات أهل مصر . . أذكر أن أهل القاهرة كانوا ينشدون فى أوائل الحرب العالمية الأولى أغنية غريبة مطلعها هكذا :

كت فين امبارح
أيا . . شن . . ورن . .
كنت باسكر وباحشش
وباحمص بن . . .

وظللت مدة لا أفهم مطلع هذه الأغنية وأخيراً أدركت أنها تقطيع لاسم «كتشنر» العميد البريطانى وقائد الجيش . . «كت . شن . رن» وأن الأغنية سخرية منه . .

بقيت مدرسة الحقوق منذ إنشائها خاضعة - رغم الاحتلال الإنجليزى - للنفوذ الفرنسى ، منصب مدير المتحف المصرى وقف على فرنسى ، ومنصب مدير دار الكتب متروك لألمانى . . وهكذا فى تقارير اللورد كرومر كلام ملفوف عن براعته فى استرضاء دول الإمتيازات الأجنبية بتوزيع مناصب مصر عليها - وعن سخريته من هذه الدول التى تتكالب فيما بينها لالتهام هذا الفتات ، هذا ومنصب النائب العام يحتله إنجليزى ، فلم ينقطع الجذب والشد بين الإنجليز والفرنسيين حول مدرسة الحقوق ، إلى أن أفلح الإنجليز كخطوة أولى - فى شق المدرسة قسمين - إنجليزى وفرنسى - ولعل مما أمال الطلبة حينذاك إلى دخول القسم الإنجليزى - وهو ثقيل الدم عليهم - أنهم يأملون بذلك استجلاب رضاء النائب من أجل إلحاقهم بوظائف النيابة ، وفى الأزهر الشريف شىء يشبه هذا : فإن مصر ، وأغلب أهلها شوافع ، تجرى القضاء الشرعى على مذهب أبى حنيفة - كأثر من آثار الاحتلال العثمانى - فكان الرواق الحنفى أعمر الأروقة بالطلبة دواماً ، ثم أقدم الإنجليز على خطوتهم الثانية ، فألغوا القسم الفرنسى .

لم ينس الفرنسيون ما فعله الإنجليز فوقف المحامون الفرنسيون فى المحاكم المختلطة - فيما بعد - وراء الحملة التى تزعمها سعد زغلول (سنة ١٩١٧ تقريباً)لوأد مشروع «برونيات» - المستشار الإنجليزى لوزارة الحقانية - والذى رمى به إلى صبغ التشريع المصرى بالصبغة الإنجليزية ،

وتأليف جمعية تشريعية يدخلها الأجانب المقيمون فى مصر . وكان وأد هذا المشروع ارهاصاً بقرب الثورة الوطنية . هل وقف هؤلاء المحامون أنفسهم وراء تأليف الوفد المصرى وحثه على معاداة إنجلترا ومطالبتها برد حقوق مصر ؟ هذا جانب من تاريخ الحركة الوطنية لم يلق ما هو جدير به من عناية الباحثين .

وحين التحقت بمدرسة الحقوق (أكتوبر سنة ١٩٢١) وجدت أسماء بعض أساتذتها الفرنسيين لا تزال مذكورة كأنها لصيقة بالجدران . . مثل الأستاذ «جرانمولان» والناظر السابق مسيو «تستو» .

ناظر المدرسة رجل إنجليزى ، اسمه مستر «والتون» (ولعله من أصل كندى وهذا هو سر اختياره - فآثار احتلال فرنسا لكندا من ثقافة ولغة - وإن اختلفت بعض الشىء عن لغة فرنسا ذاتها - لا تزال باقية فى كندا إلى اليوم رغم الإحتلال الإنجليزى) ووجدت لمستر «والتون» كتاباً حسناً بالإنجليزية عن الإلتزامات فى جزءين ، يوزع علينا دون أن نمتحن فيه . . وكيل المدرسة الأستاذ «سيزوستريس سيداروس» أمدَّ الله فى عمره وفى شاربه المعقوص بالكوزماتيك ، وياقته المنشية ، ونظّارته المغروزة الأظافر على جانبى أنفه كأنه هابط علينا لتوه بالباراشوت من السوربون . . مستر «ميلفل» ، أستاذ القانون الرومانى ، حبيب إلينا لأنه يدخل الفصل أغلب الأيام مخموراً . . فيمضى درسه فكهاً سهلاً . .

مستر «البوكيرك» العجوز ، مدرس المنطق ، متواضع يركب معنا الترام - سكوندو - أراه وهو يراقب الحقول الخضر بين الجسرين - يتمتم بأشياء كنت أحسبها شعراً . . كم تمنيت أن أعرف مايقوله .

كل هؤلاء الأساتذة يتعمدون البساطة فى ملبسهم ومسكنهم ، حتى الناظر مستر «والتون» يأتينا راكباً «بسكليت» ووراءه الساعى على «بسكليت» مماثل فنظل حائرين فى فهم الخلق الإنجليزى حين نعرضه على ما فى طبع بعض أهلنا - فى خطئهم فى تفسير العيب ، (وما العيب إلا العيب) - فى التمسك بوجاهة كاذبة وتأنق مصطنع - علّمونا أن الكرامة والمكانة فى المجتمع صفات أصيلة فى الخلق والنفس لا فى المظهر والملبس . . يشذ عنهم مستر «روبسون» - أستاذ مقدمة القوانين - شاب أنيق حليوة . . معجب بنفسه وبملبسه . لأول مرة أرى تناسقاً بين القميص وربطة العنق والبدلة والجورب . ومع ذلك يأتينا هو أيضاً راكباً «بسكليت» .

وغشى المدرسة كلها ذات يوم شعور عجيب ، خليط من الوجوم والخوف والأسف والاستعلاء وترقب تحقق سريع ظافر لأهدافنا . . حين بلغنا نبأ مصرع مستر «روبسون» ضرباً بالرصاص بالقرب من الكوبرى الأعمى وهو عائد من المدرسة إلى داره . . كان ممن اقتصت منهم تلك الجماعة السرية التى لم يكشف أمرها إلا بخيانة شاهد ملك فى مقتل السردار «لى ستاك» .

وقيل لنا إن البوليس عثر على طبعة حذاء بالقرب من مكان الحادثة ، وقدمت إلى المدرسة بعثة من الهجّانة وقصّاصى الأثر - باحثين عن صاحب هذا الأثر بين طلبة المدرسة ، إذ حسب البوليس أن المتهم واحد منا ، ولم يسفر البحث عن نتيجة . . والواقع أن أحد أفراد هذه الجماعة وأحد المشتركين فى مصرع «روبسون» كان تلميذاً بالمدرسة ، هو الأستاذ عبد

الحميد عنايت وكنت أعرفه وأجلس إليه أحيانا . . شاب صموت خجول يكاد وجهه يقطر حياء .

* * *

فهمي النجار

وقد حضرت - كمتفرج - وقت اشتغالى بالمحاماة فيها بعد ، فأنا رجل - والحمد لله - خالى شغل ، كل جلسات الجولة الثانية لقضية مقتل السردار ، فإذا كان روب المحاماة لم ينفعنى بعد فى شىء فلا أقل من أن أستغلّه لدخول محكمة الجنايات بدون عائق . ورأسى شامخ أمام الحاجب الذى يصد الجمهور بقوة البوليس . لم تكن العادة قد بدأت بعد بطبع تذاكر دعوة لحضور محاكمة ! .

وجعلت مقعدى إلى جانب قفص الإتهام ، إذ من أجل شاغليه وحدهم قبلت التزاحم بالمناكب وجلوسى معظم النهار فى مكانى محشوراً لا أتحرك .

يجلس المتهمون فى صفين : فى الصف الخلفى السياسيون المثقفون ، ماهر والنقراشى جنباً لجنب ، كأنما هما عاشقان فى خلوة لا يكفان عن التحدث والابتسام كأن الأمر لا يعنيهما . . حسن كامل الشيشينى ، صامت صمت القبور لعله يتلو أوراداً فى سرّه ، عبد الحليم البيلى منبوذ من الجميع ، لم يوجه إليه زملاؤه كلمة واحدة ولا ابتسامة ولو خاطفة ، وفى الصف الأول جلس المتهمون من غير الساسة المثقفين ، جماعة من أولاد

البلد ، فى وسطهم النجار محمد فهمى (وذكراه وحدها هى التى تدفعنى لكتابة هذه النبذة) محنىّ الرأس يعتمدها على ذراعيه المسنودتين إلى ركبتيه ، يتتبع بإهتمام العامة مايدور من كلام عويص بين القضاة والمحامين ، الشيخ جاد الله ، بلحيته السوداء الطويلة ، أكثرهم حركة وأخفهم دماً ، الطالب الشاب مصطفى - وهذا كل ما أذكره من اسمه - وهو وحده يلبس بذلة إفرنجية ، والغريب أنه قلّما دار حديث بين الصف الأول والثانى . .

من حسن حظى أن هذه المحاكمة أتاحت لى الاستماع لأول مرة إلى الأستاذ أحمد لطفى فى دفاعه البارع عن المتهمين ، هو الذى اضطلع بالعبء الأكبر ، وكان أول المتكلمين ، وقيل لنا إنه جاء متحاملاً على نفسه لأنه مريض ، وكنا نجلّ اسم هذا المحامى لسبقه الزمن بتفكيره فى إنشاء الجمعيات التعاونية وتشجيعها كدعامة لبناء الإقتصاد القومى ، وتلاه نخبة من أكبر المحامين فى مصر يا لها من وليمة دسمة ، وكنا نحسُّ أن من ورائهم جميعاً يربض سعد زغلول فى بيت الأمة لتوجيه خطة الدفاع . .

على المنصة مستر «كيرشو» رئيس الدائرة ، انتزعها - بضغط الإنجليز - من المستشار على سالم ، خشوا أن يكون هذا الأخير موالياً للوفد (وهذا مَثَل من أمثلة خرق الإنجليز لحرمة القضاء فى مصر) ، ومستشار اليمين الأستاذ كامل إبراهيم ، مكب على كراسة يختصر فيها كل مايدور فى الجلسة ، ومستشار اليسار : على عزت لم يكن عضواً أصيلاً بالدائرة ولكنهم جاءوا به لتكملتها بعد تنحى المستشار على سالم ، وكنا نعلم فى قلوبنا أن مفتاح القضية فى يده ، فإذا انضم ل «كيرشو» ضعنا وإذا انضم لكامل إبراهيم نجونا . .

كنت فى الجلسة ساعة أن نطق مستر «كيرشو» بالحكم : براءة جميع المتهمين ما عدا شخصاً واحداً فقط هو النجار محمد فهمى ، إذ حكم عليه بالإعدام شنقاً – ليس فى أحكام أمثال هذه القضايا وسط ! .

القاعة تغصُّ حتى تكاد تختنق – فى هذه الساعة الرهيبة – بالمثقفين أصدقاء الساسة المثقفين . يحتلّون المقاعد والممرات . . فلم يكد «كيرشو» ينطق بالحكم حتى هبّوا جميعاً يصرخون ويهللون ويصفقون ويهتفون ؛ فرحاً وضحكاً ومرحاً ، بعضهم يُقبِّل بعضاً ، غرقوا جميعاً بعضهم فى أحضان بعض . . بل بدأ بعضهم يرقص رقصاً بلدياً مادّاً ذراعيه ، مطرقعاً بأصابعه ، هازّاً كرشه المتدلى . . ونظرى مثبّت على وجه محمد فهمى ، ابن البلد ، النجار الذى حُكم عليه وحده بالإعدام من أجل القضية الوطنية ذاتها ، الموجهة لزملائه ، لا من أجل السرقة أو النهب . . لا أستطيع أن أقول إن وجهه شاحب أو مذهول ، بل من عينيه تنبعث نظرة بلهاء لرجل حائر لا يفهم ما يرى ولا يدرى كيف يفسره . . لم يكلمه واحد من زملائه أولاد البلد فى الصف الأول ، فهم مشغولون بأنفسهم ، ولا واحد من شركائه الساسة المثقفين الجالسين وراءه ، بل كفوفهم تمتد فوق رأسه لمصافحة الأصدقاء المباركين . . . لم يكلمه واحد من الجمهور لأنه منشغل بالرقص والضحك والهتاف ، وظللت مسمراً نظراتى عليه إلى أن امتدت إلى كتفه يد رجل البوليس يدعوه للقيام ، وآخر ما أذكره منه ظهره وهو يغيب فى معطف أصفر – لعله من مخلفات السلطة العسكرية الإنجليزية – وراء الباب . .

رحمه الله رحمة واسعة . . ظللت أتتبع أنباءه إلى أن وافى يوم شنقه فجدَّد حزنى عليه . .

لما خرج مستر «كيرشو» من المحكمة حمله الجمهور على الأعناق وهم يهتفون :

- تحيا العدالة! يحيا مستر «كيرشو» . . يحيا القاضى العادل !

وعلمنا فيما بعد أنه لم يقصد داره ، بل ذهب لفوره إلى دار المندوب السامى ليعلنه أن القضاة المصريين أخلوا بالعدالة إخلالاً شديداً ، وأنه يقدم استقاله احتجاجاً على ذلك أولاً ، ولأنه يربأ بنفسه ـ ثانية ـ عن مزاملة هولاء القضاة . .

حار ونار فى جتتك يا «كيرشو» حملك على الأعناق والهتاف بعدالتك ! . .

***

نزع ملكية . .

وما دام ذكر المحاكم المختلطة قد جاء فى هذه المذكرات فلن أستطيع الا أن أروى منظراً شهدته - ولا أنساه - هو يكفى وحده للدلالة على الدور الخطير الذى لعبته هذه المحاكم فى هدم الاقتصاد القومى وسلبه وتثبيته فى يد الأجانب . .

يوم كنت - وأنا قد أصبحت «معاوناً للإدارة» كما ستعلم فيما بعد - أجوب الحقول على ظهر حمار بالقرب من التلال التى تحد الوادى من الغرب فى زمام «منفلوط» . . هدوء شامل ، تؤكده ولا تخل به زقزقة

العصافير . . مشاكل محلية لا يزيد نطاقها عن مدار الساقية . . تحتاج إلى دلو . . طول حبله عرض السموات والأرض ليخرجك من قاع هذه البئر لترى سطح الأرض ويعيد صلتك بالعالم والعمران . . فى الحقل أمامى فلاح . . تحتاج إلى نظر قوى لتتبينه وهو قريب منك . . جلبابه مصبوغ أيضا بلون الطين . . مكوم أعواداً عجافاً انعقدت عليها الآمـال للظفر بلقمة من خبز الأذرة أو الشعير ، ثم أنتبه على صوت سيارة قادمة نحونا تكركر وتدخن وتتمايل كأنها بهلوان على حبل . . ينزل منها شيـخ البلد ومعـه (خواجـة) بدين ، يـرتدى القبعـة التى صنعتها أوربـا من الفلين للمستعمـرات فى بلاد الشمس المحـرقة . . (حضـرته محضـر المحكمـة المختلطة . . لا يليق به أن يركب الحمار مثلى !) ونودى على الفلاح فجاء ووقف بينهما وقفة الخوف والخشوع . جذب شيخ البلد - بدون سلام أو كلام - إبهامه وضغط به على ختامة ، وبصم على ورقة ، ثم قذف إليه المحضر بأوراق من عدة صفحات مكتوبة باللغة الفـرنسية . . هـذا هو حكم نزع ملكية الأرض وبيعها بالمزاد العلنى فى القاهرة . .

ووقف الفلاح وحده يقلب الورق بين يديه كأنما عـثر على حيـوان عجيب يتلوى فى خشخشة الورق أنين خوفه . . ولكزت حمارى هارباً من منظر عينيه وهو (يبربش) بهما .

* * *

«ويلكوكس»

من العدل أن أذكر واحداً من الأجانب أعلم انه قد شذ عنهم هو مستر

«ويلكـوكس» الذى كـان من أشهر مهنـدسى الرى فى العـالم وعمل فى مصر . . فقد روى لى الشاهد الثبت أنه حينما نزعت ملكية أراضى الدائرة السنية من يد اسماعيل وسلالته خرج هذا الرجل يطوف القرى على قدميه يحث الفلاحين على شراء هذه الأراضى ، لأنها حق لهم ، وملكهم ينبغى أن يعود إليهم .

وقد رفض أغلب الفلاحين الاستماع لنصحه ، فلم يدخل فى روعهم قط أن الفلاح يضع يده على أملاك أفندينا ، وأن يوماً ما سيأتى - وهو قريب - يثب عليهم الخديو لاسترجاع أرضه والانتقام منهم . . وهكذا نزعت الدائرة السنية من مالك واحد غنى ووزعت على عدة ملاك أغنياء ، أغلبهم من صنائع الإنجليز . . وهذا باب فى تاريخ مصر ونشأة الأسر التى اعتمدت أرستقراطيتها على الأرض ، لم يلق هذا أيضا عناية من الباحثين فى تطور مصر الاجتماعى .

وقـد فعل «ويلكـوكس» هذا لأن روحـه كـانت روح «مُبشِّـر» . . والغريب أنه كان من المدافعين عن اللغة العامية ، ونشر بها كتباً من تأليفه عن الإيمان ، وطعام المؤمن ، كما نشر بها ترجمة للإنجيل . .

كنت أحار فى تفسير نهم سلالة اسماعيل وتكالبهم على الثراء - حتى بوسائل لم تقصر عن السرقة والنهب - إلى أن نشرت مذكرات الخديو عباس الثانى فكشفت لى عن السر*.

* («الجمهورية ، ١٩٥٩/٤/٣ ، ص ٣) .

إنه يقول فيها بصراحة إن سلالة اسماعيل قد وقع عليها وحدها ، دون سائر فروع أسرة محمد على ، ظلم صارخ بنزع ملكيتها للدائرة السنية ، وإنه لم يفهم علة لهذا النظام ولماذا تبقى سلالة حليم وطوسون مثلاً محتفظة بأراضيها . .

لذلك نهب عباس أراضى الأوقاف ، وضرب بالشلوت من أجل برتقالة ، كما نهب فؤاد أراضى الأوقاف ، وخطف فاروق ما وصلت اليه يداه . . من نفائس أفراد أسرته قبل غيرهم .

* * *

أساتذة وزملاء . .

لا تقبل مدرسة الحقوق إلا خمسين طالباً حسب ترتيب نجاحهم فى شهادة البكالوريا ، هذا عدد قليل كان ينبغى أن يتيح للقائمين عليها امتحان الطلبة المتقدمين لمعرفة مدى استعدادهم للانتفاع بدراسة الحقوق ، ولو فعلوا ما دريت هل كنت أصبح مقبولاً عندهم أم مرفوضاً . . على كل حال دخلت المدرسة لسبب واحد هو أننى كنت من بين الخمسين الأوائل وكنت أعد دخولها شرفاً عظيماً لا يناله من يدخل التجارة أو المعلمين .

ما لبث أن ولىّ مستر «والتون» ، وفى غمضة عين رأينا الأستاذ عبد الحميد أبو هيف أستاذ المرافعات يتولى نظارة المدرسة . كنت أجلس أمامه فى الدرس وأتطلع إلى وجهه الوسيم وجبهته العريضة الذكية ، وأشرب من

منطقه الفصيح وأهتز لحججه السليمة القوية ، وبيانه الناصع . . كنت أحبه وأجله ، وأغض النظر عن ساقه يمدها من تحت المكتب اذ كانت مبتورة من فوق الركبة - وأراه يضغط على ساقه الصناعية ليضع قدمها على الأرض ، وكان يسير معتمداً على عصاه ، فلا عجب أن مال جسده إلى البدانة . (وكان يقال : ثلاثة من نبغاء القانون فى مصر يحملون اسم عبد الحميد ، أستاذى أبو هيف ، وعبد الحميد بدوى - أمد الله فى عمره - والمرحوم عبد الحميد مصطفى) .

لم يكن أحد يحسب أن هذا الأستاذ الوديع يضم بين جوانحه قلباً كأنه شعلة من نار ، أعلن فى أول لحظة أعنف ثورة على الاحتكار الفاسد وسد أبواب العلم أمام أبناء الشعب ، حطم فى أول يوم كافة القيود والسدود ، ووقف بيننا يعلن أن دراسة الحقوق متاحة لكل من يريد ، ارتفع عدد المقبولين إلى مائة وخمسين ، ولما زاد العدد أمر بافتتاح قسم ليلى يتولاه أساتذة الصباح ، قيل له : ليس لدينا أماكن . . فأمر بإقامة أكشاك خشبية فى حديقة المدرسة . ولم يكفه ذلك، بل أمر بفتح باب الانتساب لكل من يشاء دون حاجة للحضور للمدرسة بل يكفى التقدم للامتحان .

أعتقد أنه أول من استحدث نظام الانتساب لتلقى العلم فى معاهد مصر ، وقد قابلت فيها بعد أناساً من أكفأ رجالات بلدنا ، يشغلون المناصب الرفيعة بجدارة وكفاية نالوا شهاداتهم بفضل نظام الانتساب الذى استحدثه أبو هيف ، وكانوا من قبله من صغار الموظفين الكتابيين الضائعين فى دواوين الحكومة ، ففتح لهم هذا الرجل الكبير باب العلم وخدمة الوطن ، إن فضله على مصر لا ينسى . .

كنت أراه يأتى مبكراً قبل الطلبة ، فيصعد السلم على مهل خطوة خطوة . . يمرر يده على الدرابزين ليرى مقدار نظافته وينادى الفراش لينبهه إلى التراب الذى يكسوه ، ولو كان قليلاً لا يأبه له آخرون ، ثم يدخل الفصول فصلاً فصلاً ليشرف بنفسه على نظافتها . . كل هذا وهو لا ينقطع عن إلقاء درسه . .

وكان إذا رآنا نميل للتهريج . . فنهجر المدرسة متذرعين بحجة واهية للسير فى مظاهرة تؤدى إلى نزهة . . وقف بيننا شأن الأب العطوف ينصحنا ألا ننقطع عن العلم لأنه أقوى سلاح . . ولا أنسى يوما من الأيام وقف فيه زعيم من زعماء الطلبة فوق المنضدة الكبيرة التى تتوسط بهو الدور الأول يخطب فينا ، يحثنا على الخروج . . هو شاب نحيف عصبى المزاج جهورى الصوت ، تحسبه سيفقد وعيه بين لحظة وأخرى فى نوبة صرع . . وكان هو أيضاً أعرج . . الأعرج الوحيد فى المدرسة . . وأقبل عبد الحميد أبو هيف يسير على ساق وعصا ، وأراد أن يخطب فينا ، وأبى إلا أن يصعد هو الآخر فوق المنضدة ذاتها - كأنها أصبحت حلبة ملاكمة - وحملناه بجهد حتى اعتلاها . . وقف الاثنان معاً يتجادلان أمامنا ، هذا يذرع المنضدة على صغر مساحتها إلى اليمين ، وهذا يذرعها إلى اليسار . . لا أظن كثيراً من الطلبة قد ابتسم لهذا المنظر الفريد ، فإن هيبة الأستاذ أبو هيف ومحبته تملىء بها قلوبنا جميعاً .

أتدرى ماذا كان جزاؤه ؟ تألب عليه بعض زملائه من الأساتذة المصريين ، وسعوا بالدس والكيد والوقيعة والكذب والبهتان بخسة ودناءة حتى زحزحوه من مكانه ، وصدر الأمر بنقله مديراً لدار الكتب (من حسن

الحظ أن على مبارك قد أنشأ هذه الدار لتضم الكتب والمغضوب عليهم) صورته معلقة فى اللوحة التى تضم صور مديرى الدار منذ إنشائها .

لعلى كنت قد بلعت هذه الوضاعة من أناس ينبغى لى أن أجلّهم وأسمو بهم لو وقف الأمر عند هذا الحد . . ولكنى خرجت عن حلمى حين دخل علينا واحد من هؤلاء الأساتذة الذين دسوا لعبد الحميد أبو هيف وقطع درسه ليقول لنا بأعلى صوته ، وهو يفرك كفيه ، فرحاً وافتخاراً :

- لا تثريث إن استطعت أن تصرع خصمك ولو طعنته فى ظهره . .

خرجت من المدرسة ذلك اليوم محنقا أكره الحياة ، وسعيت لدار الكتب لأزور عبد الحميد أبو هيف ، وأنا مبتلى بالحياء ، وما أقدمت يوماً على زيارة أستاذ لى . . فاستقبلنى ببشاشة ووجدته راضى النفس باسماً ، وما أظنه علم سبب زيارتى . .

لا شىء يلقى حتفه لحظة مولده مثل الاعتراف بالجميل . . إنه الموءودة التى يحمل الإنسان عارها ، تؤكد الألسن العزم على حفظ الوفاء ، وتهمس القلوب فى وجلها وخجلها إنه وهم وضرب من المحال، فما يكاد ينقضى عند قبول المنة ولثم اليد طمع حتى يثب على الفور مكانه سلالة له من أطماع أخرى متباينة مختلفة عنه مترتبة عليه عند الغير شفاؤ ها ، تفعل فعل المخدر فى النفس فلا يتحرج النسيان من طعنها بخنجره .

ليت العطاش الذين اغترفوا من منهل عبد الحميد أبو هيف - وهم كثرة - عرفوا كيف يذكرونه ، لا بإقامة الحفلات ، وإلقاء الخطب . . بل بترقب عودة يوم وفاته ليقرأ كل منهم فى خلوته الفاتحة على روحه أو

يذهب - إن كان من أبطال الأساطير - إلى قبره ليغرز فوقه صبارة ، أو يضع حزمة من الخوص والريحان . . والمصيبة إننى لم أعد أذكر متى مات . لقد نسيت أنا أيضا . .

* * *

من زملائى فى الفصل منذ أن دخلنا مدرسة الحقوق إلى أن خرجنا منها معاً : الأستاذ عبد الحميد الرفاعى العصامى الجلد الصبور ، مثال يحتذى فى الاستقامة والجد ، نعم الأدب والحياء حياؤه . . يلتهم مكتبة المدرسة التهاماً ، وما قرأ كتاباً - ولو مرة واحدة - إلا انطبعت صورته فى ذاكرته العجيبة الخارقة . .

والأستاذ المرحوم حلمى بهجت بدوى ، الشاب الوسيم الأنيق ذو الذكاء اللماح والشخصية الجذابة والبسمة الحلوة والنفس الهادئة الطيبة الراضية ، قليل الكلام . . لا يخالط إلا صفوته . . ولكنه يهش للجميع . . أحسسنا أنه سيكون له شأن عظيم فى خدمة الوطن . .

على قيد ذراع منى يجلس تلميذ ، يلبس - دون سائر الطلبة - طربوشاً قصيراً جداً ، غليظ الأسنان ، جاحظ العينين شيئاً قليلاً ؛ يجلس معتمدا ذقنه على قبضة يده ونظرته شاردة وذهنه سارح ، ملابسه نظيفة ، ياقته منشية . . قلما يكلم أحداً من زملائه . . كنت أقول لنفسى : هو ، ولا ريب ، أحد أبناء المرفهين يأتى للمدرسة لا للجهاد وفصد العرق بل للفرجة والترويح عن النفس : سواء لديه نجح أم لم ينجح . . ولذلك فبالرغم من طول تأملى له - كأن شيئاً يجذبنى نحوه - لم أسع إلى مخالطته أو التعرف إليه . .

هذا هو الأستاذ توفيق الحكيم فى مدرسة الحقوق . وأذكر أننى ما سمعته قط يذكر لأحد مفاخراً إنه يؤلف المسرحيات ، وكان قد فعل وهو لا يزال طالباً معنا . .

لقد خدعنى توفيق الحكيم عن نفسه بصمته وحيائه وعزوفه عن الناس وتهيبه من الغرباء . .

* * *

لا أنسى كذلك عم فرجانى ، فراش المدرسة المعمم ، المكلف بتسليم بريد الطلبة وتوزيعه عليهم . . الأسئلة المتلهفة تنهال عليه أغلب الأمر من طلبة الأرياف . . مكانه فى البدروم . . بيننا وبينه عوارض نافذة . . كأنه مكتب بريد بحق وحقيق ، ونطل عليه من خلال شبك الحديد وهو أسفلنا ، نسأله :

– فيه بوستة ياعم فرجانى ؟ .

فلا يرفع نظره حتى يرى وجوهنا ، بل يرد على كل سائل باسمه ، يعرفه من صوته وحده ، فى المدرسة أكثر من ستمائة تلميذ ، فيهم من دخل المدرسة منذ عهد قريب . . ولعله لم يكلمه من قبل سوى مرة واحدة .

أتأمل جبهته الوضاءة الذكية واتئاده واتزانه ، وعينيه الباسمتين الوديعتين وضبطه لنفسه ولعمله ، شىء خفى فيه يجعلنا نحترمه . . وأقول :

– لو أتيح لفرجانى أن يتلقى العلم ويدخل مدرسة الحقوق معنا أكنا جميعاً نكون قادرين على اللحاق به . . ؟

أراه بعين الحالم أستاذاً جليلاً فى مدرسة الحقوق تنحنى له الجباه احتراماً . .

أجيال عديدة ، جيل وراء جيل ، يمر بمدرسة الحقوق - فى دوران الساقية - يجتازها ويخرج للحياة ، فيهم من ينطلق ويلمع نجمه ، وفيهم من تبتلعه الأرض فيندفن مكفناً فى النسيان . . وعم فرجانى قابع فى مكانه ، العجينة بين يديه واحدة والأرغفة متباينة ، كأنه يوزع - كالقدر - مع بريد الطلبة حظوظهم أيضاً . .

لعل فى هذا سر ابتسامته . .

* * *

سعدت بتلقى العلم على يد أساتذة أجلاء أفاضل لا أنسى جميلهم . . منهم الأستاذ الشيخ أبو زيد ، مدرس الشريعة ، رجل دائم الابتسام ، يعالج الشريعة حتى يحيلها شراباً مساغاً لو استطاع لصبه فى حلوقنا صباً . . والأستاذ أحمد أمين ، العالم الثبت فى قانون العقوبات ، لو وضعت كل كراكيب العالم شذر مذر فى زكيبة وسلمتها له لهزها هزة واحدة وصبها فخرجت لك محتوياتها فى نظام بديع منسقة خير تنسيق . . الأستاذ المرحوم أحمد نجيب الهلالى . . دخل علينا الفصل فحسبناه لنحافته وصغر سنه تلميذاً مثلنا ، إن زاد علينا بشىء فبهذه النظارة السميكة التى تدل على إفناء بصره فى القراءة . . فما كاد يتكلم حتى انعقدت ألسنتنا وفُغرت أفواهنا إعجاباً به ، لقد هدم فى درسه الأول كل ما بين أيدينا من كتب قديمة بالية بكلام جديد تشع منه الحياة .

ولكن إلى جانبهم عرفت مع الأسف - وهذا شأن الحياة - أساتذة يجاملون رياء ونفاقاً وظلماً أبناء الوزراء وكبار موظفى وزارة الحقانية - وكانت المدرسة تتبعها ـ وأساتذة هم أقرب إلى التجار الجشعين منهم إلى حملة العلم ، وأساتذة جهلة فارغين يسرقون وقت الطلبة بالعبث والمماحكة .

هذا كلام ثقيل الوقع على نفسي ، أخرج به عن حد الأدب الذى هو فى طبعنا منذ حفظنا «من علمنى حرفاً صرت له عبداً» . ولكنى اعتزمت فى هذه المذكرات الإدلاء بشهادتى صادقة ، لا أكتم شيئاً ولو بدا للناس أننى قليل الأدب ، ناكر للجميل .

وبعد ، فهذه شهادة رجل واحد لا تصلح نصاباً للشهادة ، وقد تهدمها شهادة أخرى ، قد يكون العيب فىَّ أنا لا فيمن وصفت .

أضم إلى هؤلاء الأساتذة من ذكرت من الدساسين الذين هدموا عبد الحميد أبو هيف لتعلم سبب قولى السابق : إننى عاتب على مدرسة الحقوق . . . كنت أحسب أنها ستغسل أرواحنا وتبعثنا خلقاً جديداً وتضرب لنا الأمثلة الباقية فى توقير العلم وخدمته لوجه الله ، وأن منصب أستاذ المدرسة لا يعلوه منصب آخر ،وأن العلاقة بين الأساتذة والطلبة تراحم ، وإنصاف ، ومساواة . ولكن كل هذا ضاع فى إنهاء المقرر ، وزحمة الامتحانات وإعلان السباق المروع من أجل الظفر بالأولوية .

ولماذا أخص مدرسة الحقوق وحدها بالعتب ؟ إنها أكملت ما فعلته المدرسة الابتدائية والثانوية فى عهدنا ، من إهمال تربية الخلق وإنماء الشخصية ، وكشف المواهب ، وحزصها - فهذا أسهل - على حشد

الرأس بالقشور والعلم النظرى مدرجا فى أكفان . . إننى لا أغفر للمدرسة الابتدائية أنها أماتت يدى فلم تكن تصلح لشىء إلا أن أضرب عليها بحد المسطرة فى عز الشتاء . . ليس فى كتبنا شىء يمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى الموسيقى وهى غذاء الروح ، أو الفنون الجميلة ، وهى مهذبة للحِسِّ والذوق .

لم يحدثنا أحد عن أشجار مصر وطيورها وحيوانها كأنما طُلب منا أن نسير فى مناكبها كالعُمْى ، درسنا رى الحياض على الورق فكان لغزاً لم نفهمه ، ولو ذهب بنا المعلم إلى الأهرام ـ وهى قريبة ـ لرأيناها رأى العين . . بقيت زمناً طويلاً أجاهد لأتخلص من الشعور بأن المسافة بين أنف سيبريا وألاسكا هى عرض الأرض كلها لأننا درسنا الجغرافيا على خريطة مبسوطة . . وبقيت إلى أن ذهبت للصعيد فى سن الثانية والعشرين لا أفرق بين القمح والذرة فى الحقل . . ماتت الطبيعة من حولنا ودُفنت بين أكداس الكتب . . كانت القسوة هى القانون والغلظة هى العملة الدارجة والدمامة هى محيطنا . .

وظللت أحلم وأتمنى أن يكون فى ريف مصر ضيعة نظيفة خالية من القمل والبق والبعوض ، براغيثها قليلة . . . ماؤها غير عكر ، فلو كان بها مثل هذه الضيعة وكان لى ولد لفضلت ألف مرة أن أدفعه إليها وهو فى سن الثامنة ليعيش بها إلى أن يكتمل شبابه ، فهذا أفضل من أن أسلمه لمدرسة يلقى فيها ما لقيته . . ومما يشجعنى على هذه الأحلام والأمانى أن المولى سبحانه لم يرزقنى ولداً . . حمداً لله وشكراً . .

الباب الثانى

خبط عشواء

يوليو سنة ١٩٢٥ – شهادة الليسانس هى اليد التى دفعتنى فى ظهرى وأنا واقف ـ كمتفرج – على سلم القفز فوقعت بملابسى فى حوض السباحة وسط متسابقين أشداء ـ وكنت لا أعرف العوم ! ـ فيهم من يشق الماء بذراع قوى ، وفيهم من يتمنطق بقرعة استامبولى مكتوب عليها «المحسوبية» أو «الوساطة» وفوزهم لا يخلو مع ذلك من عامل غريب خفى مجهول اسمه «الحظ» .

كيف أحصل على عمل ألتحق به وأرتزق منه ؟ ليس أمامى إلا أن أطرق باب الحكومة . إننى لم أحن رأسى صاغراً للمثل الذى كان سائداً حينئذ «من فاته الميرى يتمرغ فى ترابه» أعتقد أن هذا المثل قد اختفى الآن ، ولم تعد الألسن تردده . والأمثال ـ كالناس والأغانى ـ يجرى عليها قضاء الموت ، لا لأن أحداً من أسرتى لم يصل إلى المناصب الرفيعة فى الحكومة التى تحف بها الأبهة والكبرياء ، فإننى لم يفتنى أن الحظ فى ذلك

العهد أن صغار الموظفين أشد من كبارهم خيلاء بمناصبهم وفخرا بها . . بل لأن أسرتى كان يشملها منذ وعيت روح من الديمقراطية والشعبية لا أدرى من أين جاءتها . هى طبع وخلق ، لا ثمرة علم واقتناع . فما دخل بيتنا خادم إلا خالطنا مخالطة الأهل ، لم ننظر قط بأنفة إلى القصاب والبقال وبائعة الجبن والصابون ، ولكنى أظنها ديمقراطية معاملة فحسب ، فلو جاء لأمى خاطب يطلب يد ابنتها لقدمت الموظف الصغير على التاجر الميسور ، لا تفضيلاً لطبقة على طبقة ، بل بحثاً عن الاطمئنان باتصال الرزق على نمط مضمون ، وفى موعد محدد ـ ولفضلت أيضاً المطربش على المعمم ، والمصرى على الأجنبى أيا كان . . سبحان مغير الأحوال !

فلم يكن وقوفى بباب الحكومة طلباً للأبهة والخيلاء . إنما كان مرجعه لسببين :

الأول : أن جميع أفراد أسرتى من الموظفين ، فليس فينا أحد من أصحاب المهن الحرة حتى أقتدى به أو أسير فى شق محراثه – والسبب الثانى أن ترتيبى جاء بين أوائل المتقدمين فكان من الطبيعى والمنتظر ألا أجد صعوبة فى الالتحاق بوظائف النيابة العامة ، وكانت تعتبر حينئذ هى ووظائف قلم قضايا الحكومة أقصى ما يصبو إليه حامل الليسانس .

أما وظائف النيابة المختلطة. فكانت وقفا على أولاد الذوات ومن ساعدتهم ظروفهم على جرى لسانهم باللغة الفرنسية وكان هذا يكفى بالنسبة للمصريين . وبين جرى اللسان وإجادة اللغة بون شاسع . وكان القضاة الأجانب لا يحترمون إلا من يعرفون هذه اللغة كأحد أبنائها ، وينظرون شزراً لمن هم دون ذلك .

وحين طالب أحد القضاة المصريين فيها بعد برد اعتبار اللغة العربية فى هذه المحاكم للمرافعة وكتابة الأحكام اتهموه بأنه يفعل ذلك لعجزه عن إتقان اللغة الفرنسية . . فالمسألة فى نظرهم ليست حَمِيَّة وطنية بـل قُصْر ديل . . وكان لم يتح لى إتقان اللغة الفرنسية لأنى لم أدخل المدارس الأجنبية فى مصر ولم أرحل إلى فرنسا لطلب العلم . . وكنا لا ندرسها إلا دراسة سطحية فى السنتين الأخيرتين من المدرسة الثانوية وأول سنة فى مدرسة الحقوق . .

لم يبق أمامى إلا النيابة الأهلية .

وكان لى شغف عظيم أن ألتحق بها . فأكذب إذا قلت إننى لم أكن مسحوراً بالوسام يعلق على صدرى ، وبوقوفى مترافعاً – هل تذكر كلامى عن الخطابة فى الباب الأول ؟ ـ أمام محكمة تحف بها الرهبة . . يا حضرات القضاة ! يا حضرات المستشارين ! . .

* * *

احتضار . .

ينبغى أن أتريث هنا برهة ، لا أحفل بنظام الكلام ولا أرهب اللوم . إن هذه العبارة ـ يا حضرات القضاة ! يا حضرات المستشارين ! حين كتبتها أحسست على الفور بهزة فى قلبى ،إنها تخرج إلى النور ذكرى كنت نسيتها وهى من خزائن نفسى . ذكرى صراع بين الوجود والعدم والطمع

والفناء فى لحظة ليس فى العمر كله لحظة أخرى تساويها رهبة وعبرة ، هى وحدها الحق وكل ما سواها زائل . .

لحظة طلوع الروح ، هى ذكرى احتضار رجل كان من أذكى أبناء مصر وأشدهم طموحاً ، عصامى ، نفسه سودته ، لمع اسمه وهو شاب صغير (بذكائه وفصاحته ودهائه ومضيه إلى غايته فى عناد لا يعرف الوهن ولا اليأس ولا الإعياء) ، ثم بلغ من المناصب أرفعها ولعب فى سياستها دوراً خطيراً . عَبَدَ الملك كما يعبد الوثنى الصنم وقدم على مذبحه قرابين لا يجهل أنها غير حلال . . كان فى وقت من الأوقات يحكم البلد من وراء ستار . . رئيس الوزراء يتلقى صاغراً أوامره الجافة القاطعة . لم يكن يعجبه أحد ولا يرى إنساناً أكفأ منه ـ ولعله كان محقاً – ولكن أضواء المجد تحيد عنه وتتركه فى الظلام وتسلط على دمى تقف على المسرح بفضل خيوط خفيفة تحركها من عل . فوق صدر هذا الرجل أرفع أوسمة الدولة ولكنها عنده من صفيح لا يبرق معدنها ما لم يعلها وسام فى حجم الرَّحى لا يكون إلا من ذهب مرصع بالماس : وسام الرياسة تصحبه قلادة إذا لبسها صاحبها ردته إلى بهجة بدواته الأصلية وهمجيته الأولى .

إن الفرق بين منصب الوزارة وبقية مناصب الدولة فرق شاسع . ولكن الفرق بين منصب رياسة الوزارة والوزارة هوة سحيقة ، فهو القمة التى تتلألأ عندها الأنوار ، فإليها ترفع الأبصار ، وعندها يسجل التاريخ . . أصبح المنصب أقرب من حبل الوريد يكاد يلمسه بيده لو مدها . . ولكنه فضل أن يقف أمام العرش ـ ولو كان خالياً ! ـ وقفة الخشوع ، ضاما يديه فوق بطنه ، محنى الرأس ، لا يريد أن تأتيه الرياسة

إلا بـإحسان من ولى النعم . . لم يـرفع عينيـه ولا نطق فمـه ، ولم يفتر إخلاصه ، لعل هذه الوقفة هى سبب مرور الأزمات الوزارية واحدة بعد أخرى دون أن يذكر أحد اسمه . . وتمضى الأيام وما عرف إنسان دخيلة نفسه .

وجاءه الموت ، وبلغت الروح التراقى ، وزاغ البصـر ، هزات فى صدره هى أواخر نبض قلب فى الدنيا وأوائل دق على باب الآخرة . . لم ينطق لسانه بالشهادتين أو إن تلجلج لسانه رفع إصبعه دلالة عليها ، ولا سأل عن ابن ولا أوصى بوصية ، بل أخذ يتقلب فى الفراش ، مشوحاً بذراعيه ، مشيراً بيديه ، يدير وجهه يمنة ويسرة ، وهـو يصرخ بصـوت مبحـوح تقطعـه الحشرجـة . حضرات الشيـوخ ! حضرات النـواب ، أحييكم أطيب تحية . . حضرات الشيوخ ! حضرات النـواب ! . . إن حكـومتى تعتـزم . . حضـرات الشيـوخ . . حضـرات النـواب . . حضرات . . حضر . . حضر . . حضر . . حـ . . حـ . .

ما أفضى إلى إنسان وهو حى بدخيلة نفسه أو بمطمعه . . لله ما كان أشـد عذابـه فى مماتـه ، وأبلغ عذابـه فى حيـاتـه . . رب أنت الـرحيم الرحمن . . فاغفر له . . إنه إنسان !

* * *

شغف بالمجرمين

كان طموحى أن ألتحق بوظائف النيابة العامة ، لسحر الوسام كما رأيت ـ ولسبب آخر،ذلك لأننى لا أدرى لماذا شغفت أثناء دراستى بتتبع

الأبحاث التى تعالج الجريمة فى المجتمع وتصف المجرمين وأحوالهم ونفسيتهم . المؤلف الإيطالى «لمبروزو» يزعم أن هناك صفات جسدية وخاصة فى الجمجمة تلازم المجرمين - ولن أخبرك بهذه الأوصاف حتى لا أثير الشك فى نفسك ! - ولما أتيح لى فيما بعد - حين اشتغلت معاوناً للإدارة - أن أخالط المجرمين كنت موضع دهشة زملائى - ولا أقول سخريتهم - حين يروننى أترك التحقيق جانباً لأسأل المتهم عن أصله وفصله وأمراضه وعلله ، وكان لى دفتر جعلت كل من يعرف منهم القراءة والكتابة يسطر لى فيه شيئاً بخطه ، كأننى «لمبروزو !» مصر يريد أن يحقق القول بأن خط المجرمين يختلف عن خط بقية الناس ، فأى شىء يستهوى النفوس أكثر من أن تطل على نفسية هذا المخلوق العجيب الذى يعطى لنفسه حق الحكم على مخلوق آخر بالإعدام ، ثم ينفذ هذا الحكم بيده ؟

دع عنك جرائم الغيرة والدفاع عن العرض أو الجرائم التى تنبعث من الغضب والاستفزاز ، ليست هذه هى الجرائم التى تستهوى النفوس إنها مآس ، المجرم فيها أسوأ حظاً من المجنى عليه . . إنما تستهويها جرائم تُرتكب بعد إصرار طويل ، يضع فيها المجرم خطته وينفذها بمكر ودهاء . القتيل - فى غالب الأمر - ضحية بريئة تثق فى قاتلها . .

لذلك كانت جرائم القتل بالسم أبلغها سحراً وأشدها بغضاً فى نظر القانون لأنها أكثر خسة ولؤماً . تتبعت أخبار المحاكمات الجنائية فى مصر وأوربا ، قديمها وحديثها ، أصبحت أعرف أشهر مجرمى أوربا معرفة وثيقة ، كما عرفت بفضلهم بعض كبار المحامين وقرأت تاريخ حياتهم - فى مقدمتهم عندى السير «مارشال هول» الذى دافع عن مرجريت فهمى قاتلة على كامل فهمى - وقد أروى لك قصتها إذا فتح الله علىّ . .

وكنت أتأمل الفرق بين طبيعة الشعب الفرنسى والشعب الإنجليزى إزاء هذه المحاكمات .

فى فرنسا تندلق أخبار الجرائم والمحاكمات على الصحف وتفور كما يفور اللبن ، وقد تزدحم قاعة الجلسة بعدد من نساء متأنقات يأكلن الشقانق والمقانق وهن يشهدن المحاكمة ، ثم تنسى هذه المحاكمات سريعاً . . الصحفيون الفرنسيون ـ وفى مقدمتهم اليهودى «ألبيرلوندر» ـ متخصصون فى رواية المحاكمات بأسلوب كله فكاهة وسخرية لا تجده فى انجلترا إلا فى النادر القليل . أما فى انجلترا فإنهم يؤكدون أن الاهتمام بهذه المحاكمات مرض نفسى خبيث يدل على فساد فى الطبع ويزعمون أنهم أرفع من أن يصيبهم هذا المرض ، ولكن الأخبار تكتب مع ذلك بتفاصيل لا تقل عن مثيلاتها فى فرنسا . . اللبن عندهم فى إناء مغلق ، تحسبه خامداً وهو يفور . . يحدث كل هذا الاهتمام فى تستر وحياء وتظاهر بعدم المبالاة . . لا أعرف شعبا كالإنجليز يعكف على الجرائم وتسجيلها وتحليلها . . إن هذا من أثر السادية التى يعانيها بسبب كبته لعواطفه وافتخاره ببروده وهو مع ذلك من أكثر الشعوب اهتزازاً للعاطفة*.

* * *

سلام للعريس

وقادنى هذا الشغف إلى رغبة أن أتخصص فى دراسة الأحداث (المجرمين) ، وكنت أحسب أننى أول من يشق هذا الطريق ، ولكنى

* («الجمهورية» ، ١٠/٤/١٩٥٩ ، ص ٣)

وجدت بحثاً قيماً كتبه الأستاذ حسن نشأت باللغة الفرنسية ونال من أجله لقب دكتور من إحدى جامعات فرنسا ـ فقلت لأقتفين أثره وأكتب باللغة العربية . .

وكان أكبر آمالي وأشدها إرهاقا لنفسى أملى إذا ما دخلت النيابة أن أرقى فيها بعد قاضياً للأحداث ، فلا أعرف إنساناً أدعى للعطف والرثاء وأحوج للرعاية والعناية من صبى برىء ، إما يتيم أولطيم ، أومطرود من بيت أب متزوج من غير أمه ، أو مطرود مرة أخرى من بيت أم متزوجة من غير أبيه . . تطحنه رحى الحياة فينصرع ويضيع ولا يجد ملاذاً ، ثم يسقط فريسة فى قبضة مجرم لا يعرف الرحمة ولا الشفقة ، فيدربه على الإجرام بقسوة تهصر جسده وروحه .

للصحافة المصرية ، منذ وعيت قراءتها مواظبة لا تخل ـ كأنها تتابع فصول السنة ـ فى فتح أعيننا للمآسى التى تحدث ـ ونحن غافلون ـ بين ظهرانينا حين تنشر بين الحين والحين نبأ اكتشاف عصابة تدرب على الجرائم جمعا من صبية قد يرتفع عددهم إلى الستين والسبعين ، تحشرهم فى الكهوف والمغارات ، وتهتك ـ فوق البيعة ـ أعراضهم ، لا أبالغ إذا قلت إن كل قصة صورة طبق الأصل لسابقتها ، ومع ذلك تنشرها الصحف كأنها مفاجأة لم يحدث لها مثيل من قبل !

قد تختلف المستويات فزعيم العصابة تارة مجرم خطير ، تلامذته من الفقراء ، وتارة صاحب دكان بسكليتات ، يجمع فى يديه أبناء الفقراء والموسرين . .

فى نفسى الآن هزة قديمة لا أنساها لأنها ترتبط بذكرى الأفراح والليالى الملاح ، حين يُفرش الرمل الأصفر وتُصفُّ الكراسى ويُعلَّق البطيخ الوردى والأحمر والأخضر ، وترفرفُ الرايات المثلثة ، (لاتسأل عن معنى رسومها) وتلعلع الزغاريد . .

ما أشد فرحة الصبى فى قلبى حين تأتى موسيقى حسب الله لا تهمنى ثيابهم المهلهلة ، وأحذيتهم المخروقة ، ولحاهم النابتة ، ولا هزال بطونهم الخاوية . . سلام للعريس ، سلام للمأذون ، طالع السعد ، أفراح القبة ، عصفورى يامة ، أولا أكواب الشربات الى حين موعد الأكل . . ثم الحلوى .

هذه الفرحة تخالطها عاطفة لا أتبينها ولكنها تجعل نفسى تغيم . . حين تكون الموسيقى القادمة ـ موسيقى الأحداث ـ أرى من بعيد يصطف جمع من صبية خائفين ذليلى العيون ، صامتين كأنما يسوقهم معلمهم بكرباج خفى ، سترتهم لها ياقة غليظة عالية تخنق رقابهم ، وتخالطها ألوان صفر وخضر كأنهم قطع الجاتو . . يشقون الحارة جيئة وذهابا وجيئة ، فى مشية الجند ، ثم يجلسون على الكراسى فى أدب وحياء ، وعيونهم تنظر خلسة : أى شىء سيشربون ويأكلون ؟ عجبا ! أيضا يحسنون عزف سلام العريس ، وسلام المأذون ، وطالع السعد . . لعل مرجع الغصة التى فى قلبى أن كلمة – الأحداث – كانت ترجمتها عندى – الأيتام بدليل أن بنات البلد ، الملتفات بالملايا السود ، يمصمصن شفاههن حين يرونهم – حسرة وأسى يزيدهما لوعة رؤية صبى منهم غارقا فى حضن نفير كأنه مخلوق عجيب يلتف حول عنقه ، له جسد أخطبوط وفم سمك القرش ،

ومطلوب من الصبى الصغير أن ينفخ فى طرف ليخرج الهواء من الطرف الآخر ! . . وصبى آخر عرف متاعب الحمل فى الشهر التاسع ، كأن الطبلة الكبيرة داخل بطنه لا خارجها ، هى التى تُسَيِّره وتَجُرُّه إلى الأمام وإلى الأرض فيمنع نفسه من الوقوع بالانحناء الى الخلف . . تحسب أن قلبه قد انتزع من صدره وعُلِّق على طرف العصا الصغيرة التى يدق بها الطبلة .

نساء البلد ، ما أرقهن! تود كل واحدة لوأنها تناولت الصبى منهم فربتت على ظهره وقبلته فى جبينه ، وأخذته فى حضنها، ثم أطلقته وفى يده نبوت الغفير أو خد الجميل . .

* * *

إصلاحية الأحداث

تمكنت من زيارة إصلاحية الأحداث فى الجيزة - ولا أدرى كيف - قد نسيت - وزرت ورشها وعنابرها - الله وحده يعلم ما يحدث بهذه العنابر بالليل - وجمعت بيانات وإحصائيات عديدة عن نزلائها . كيف أقوى أو أرضى أن أحتجز كل هذه المعلومات القيمة لنفسى لابد أن أُدِلَّ بها على الناس ، اتفقت مع نادى الحقوق المطل على ميدان الأوبرا أن ألقى محاضرة عن - الأحداث المجرمين - ونشرت الصحف النبأ العظيم ، وذهبت فى الموعد المحدد وتحت إبطى مظروف محشو بالأوراق ، أتدبر كيف أفتحه وأخرج أوراقه بهدوء حين أبدأ الكلام - مخفيا عددها حتى لا يضِجُّ الحاضرون من قبل أول كلمة . .

أقول لنفسى ماذا أفعل حين أدخل ويعلو التصفيق . . لا شك أننى سأشعر بخجل . . حقا لقد شعرت بخجل ، ولكن من نوع آخر . دخلت الردهة الواسعة فإذا مقاعدها تلمع ، كأنما لها أسنان بيض تبرز من شدة الضحك . . لم يكن فى القاعة كلها الا رجلان فقط . . هل ننصرف ونحمل الصحف جريرة الكذب بالإعلان عن المحاضرة ، أو أتكلم وفى هذه الحالة هل أستعمل صيغة الجمع - أو صيغة المثنى فى مخاطبتهما ؟ ولماذا أعلو المنصة ؟ أليس من الأنسب أن أجلس بينهما وأتحدث بما أريد ؟ والأعجب والأغرب من كل هذا أننى - برضه - ألقيت المحاضرة .

فى بعض الأحيان ننهب أعمارنا ونلهب ظهرها بالسوط حتى تجرى مسرعة ، لا لشىء الا رغبة منا فى نسيان جرح فتكون خسارتنا للعمر أشد مصيبة من الجرح ذاته .

وهكذا فعلت حتى خُيِّل إلى أننى نسيت هذه الوقفة المزرية فى نادى الحقوق . . فإذا بى لشدة عجبى أجد رجلا وقورا - لم أره من قبل - يدق باب بيتى ذات يوم ، فلما تقدمت إليه صافحنى بحرارة وحمد الله أن اهتدى إلىَّ أخيراً فهو يسمع عنى ويعلم بخبر محاضرتى ، إنه يأسف أن فاتته هذه المحاضرة القيمة . هل لدى نسخة منها ؟ يا أخى ! كان الجرح قد اندمل لماذا توقظه ؟

ومع ذلك أحسست براحة كبيرة وشكرت لهذا الرجل الكريم رده لكرامتى . . وأسرعت وأتيت له بالمحاضرة ذاتها - فليأخذ النص الوحيد عندى - لا نسخة منه فحسب ! ياللا مع السلامة ! يغور من عينى . . ثم استطرد فى الحديث يقول ـ انظر الى مبلغ كرمه !

ـ حرام أن تنقطع عن الاهتمام بإصلاحيات الأحداث . . إننى مستعد ـ لوجه الله ، ولخدمة هؤلاء المساكين ـ أن أضع نفسى تحت تصرفك . .

أخبرنى أنه يشغل وظيفة فى إصلاحية الأحداث بالجبل الأصفر ، لو أردت صحبنى إليها ومكنَّ لى زيارتها سرا ، إذ لا يجوز للغريب دخولها الا بإذن من مصلحة السجون ، وهى لن تأذن لى بعد أن انتقدت نظام إصلاحية الجيزة .

كيف أستطيع أن أفى هذا الرجل النبيل حقه من الشكر ؟ إنه أعاد إلىَّ أشواقا قديمة وردَّ ثقتى بنفسى . . إنه فاعل خير ، لوجه الله . .

وتقابلنا فى المحطة ، وركبنا القطار معا ، ونزلنا فوجدنا عربة الترولل التى يدفعها نزلاء الإصلاحية مسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات . . لتوصيل وتوديع السادة موظفى الإصلاحية ، ومفتشى مصلحة السجون ، والزائرين . . بتصريح أو خلسة أمثالى . .

لم أكد أجلس حتى لا حقنى صوت لا تحتمله نفسى ، وكدت أقفز من الترولل ، هاربا . . الصبية يلهثون من ورائى وعلى جانبى كأنهم كلاب عطشى ، مدلدلة الألسن .

كان الرجل دليلى ، أرانى ما أراد هو أن أراه ، ثم انصرفت على موعد معه فى قهوة . . وفى هذه الجلسة صبَّ فى مسمعى كلاما خِلْتُ أنه الحق ، وأنه من الشجاعة أن أجهر به ، كان الكلام نقدا مراً للإصلاحية ونظامها وإهمال المسئولين فيها . .

وقلت فى نفسى ينبغى أن أضع هذا الكلام فى إطار علمى ، عليه تحبيشة من أقوال العلماء وجداول الإحصائيات . . حتى لا يكون الرجل صاحب الفضل الأوحد . . فجمعت عدد النزلاء الذين أتموا مدتهم فى الإصلاحية بعد أن تعلّموا بها إحدى المهن وتتبعت مقدار التزامهم لهذه المهن حينما خرجوا للحياة وسعوا لاكتساب الرزق فلم أجد الا نسبة ضئيلة منهم ينطبق عليها هذا الوصف ، ويصبح من حقهم القول بأن الإصلاحية كانت ذات نفع لهم . فقدوجدت أن الحداد أصبح بائع صحف ، والنجار بائع أمواس حلاقة وهكذا . . وطبعت هذه الإحصائيات والمقارنات على البالوظة وعلى نفقتى من خمسين نسخة .

وكتبت بحثاً تفلسفت فيه بالنقد وتعاليت واتفقت هذه المرة مع نادى التجارة ، فى شارع عماد الدين ، فهو عمار يغاير نادى الحقوق المخروب - على أن ألقى به محاضرة - تانى ! - عن إصلاحية الأحداث بالجبل الأصفر . ولشدة دهشتى زاد عدد الحاضرين عن ثلاثين - ضاع تعبى ومالى فى البالوظة عشرين نسخة هدراً - فى مقدمتهم مدير مصلحة السجون بجلده ولحمه ، - بقية الحاضرين من موظفى المصلحة ، جاءوا وراء مديرها . . وكان المدير رجلاً طيب المنبت عاقلاً كريم النفس ، صبر على النقد يجيئه من صبى فى سن ابنه ، ثم قام وعقّب على المحاضرة بكلام يرد الأمر إلى نصابه .

لم أقابل دليلى الوقور قط بعد ذلك . كان فص ملح ذاب ، لم أعرف - الا فيما بعد - أن زيارتى السرية للإصلاحية كانت موضع تحقيق ، وأن الرجل الكريم ، فاعل الخير لوجه الله كان على خلاف مع رؤسائه ، وظن

أن تعرضهم لحملة من النقد ، يدبرها هو من وراء ستار ، وينطق بها مغفل نطق الببغاء سيزيحهم من مناصبهم ليحتلها هو ويفرض سلطانه .

كنت كف القط يمدها القرد إلى النار لتخرج له أبو فروة مشوية لذيذة .

وكان الجرح الثانى الذى سببته لى الغفلة والسذاجة أشد من الجرح الأول الذى سببه لى الغرور . . ومنذ ذلك الحين تبت والحمد لله عن المحاضرات وإلقائها .

والغريب أننى عشت بعد المحاضرة الثانية أياما يعترينى هم وحيرة مبعثهما سؤال يتردد فى نفسى - إن مدير مصلحة السجون لاشك قد أُعجب بك . . فلو طلبك ليعرض عليك منصبا فى هذه المصلحة تقبل - لأنك شغوف بالمجرمين فستكون معهم ! - أم ترفض لأن المنصب أقل من مطامعك !

وأخذت أطيل الجدل والنقاش مع نفسى وأعذبها من قبل أن يصلنى العرض . وطبعا لم يصل ، لأن مدير المصلحة ليس غرا حتى يعرض المنصب على من نقده ، بل على من يضحك الناس عليه بهذه السهولة ، وحسنا فعل . .

***

خبط عشواء

كل الذى فعلت أن كتبت طلب الاستخدام بالنيابة الأهلية وأرسلته بالبريد إلى النائب العام - كأنه خطاب معايدة وسؤال عن الأحوال .

وانتظرت ، فلا أعرف أحداً فى وزارة الحقانية ، أو أعرف أحداً يعرف أحداً فيها . أنا وقسمتى .

فإذا بى أعلم أن مدرسة الحقوق ستوفد أربعة من أوائل دفعتى إلى جامعات أوربا لإعدادهم لشغل مناصب الأساتذة فى المدرسة (وكانت حركة تمصير الوظائف قد بدأت تشتد) نسيت النيابة الأهلية وتعلقت نفسى بهذه البعثة تعلقاً شديداً - كنت كما ترى أخبط خبط عشواء - إن كلمتىّ «بلاد برا» لهما عندى سحر غريب منذ صباى . لى عم كان يسافر إلى سويسرا فإذا عاد أنعم علينا بمجموعة من كرت بوستال تفرد وتطبق ويزيد طولها عن المترين تصور جبال سويسرا وبحيراتها يندلق عليها لون أزرق قاتم لاأدرى لماذا تهتز له نفسى اهتزازاً مؤثراً . . يارب ! أفى الدنيا كل هذا الجمال ؟ «بلاد برا» عندى جنة الأرض . أهلها من عجينة غير عجينتنا . أحس ألا مجال لى للتثقف وتعلم اللغة إلا بالسفر إليها . . (دع عنك سحر الباليه والأوبرا والكونسير . .) لجامعاتها هيبة ووقار لاتعرفهما مدرسة الحقوق ، يكفى أن أساتذتها يدخلون الفصول يخبون فى «الروب» ونسمع أنهم - مع ذلك - أهل كرم وتواضع ، فيدعون تلاميذهم لتناول الشاى معهم ، الزوجة هى التى تدور بالأقداح عليهم . . سأرى رأى العين الأساتذة الذين ارتوينا من مؤلفاتهم ، وبدأت أسأل : فى أى جامعة يلقى الأستاذ «كابيتان» دروسه ؟ ثم إننى لم أتجاوز العشرين إلا بأشهر قليلة ، وخرجت من المدرسة وتجاربى فى الحياة معدومة ، فكان الخط الواضح أمامى أن أستمر فى الدراسة وأن أكرس نفسى للعلم .

ولكن الدور لم يأت علىَّ . ونزلت من مرتبة المرشح الأصلى إلى مرتبة

المرشح الاحتياطى فى بعثتى ، فإذا بجميع المرشحين - والحمد لله - قرأوا العلامات ، حتى المنمنة منها ، ودق قلبهم دقاً سليماً ، وراق بـولهم . . فسافروا وبقيت ، سعيت لرصيف الميناء يوم سفرهم ، أتتبع الباخرة وهى تشق البحر إلى الأمل المنشود ، إلى المستقبل الموعود ، وفـوق ذلك إلى المجهول الساحر ، أحسست أننى أودع نفسى ، وأن ضوءاً فى صدرى قد انطفأ ، وغلبتنى رغما عنى حسرة لم يبق بينها وبين الدموع إلا القليل .

* * *

سفه

وقعت عيناى - وأنا أراجع ما سبق - على ذكر تمصير الوظـائف فى العهد الذى تخرجت فيه فى مدرسة الحقوق . فتحركت فى نفسى ذكريات شتى مؤلمة . . أبناء الجيل الحاضر فى نعمة ، لايدركون مبلغ الذل الذى كانت تعانيه مصر . كان البلد لغير أهله . تجارة الصادر والوارد والمصارف والشـركـات . . فى يـد الأجـانب ، يملكـون قـدراً كبيـراً من الأراضى الزراعية . أحياء برمتها مستعمرات لهم ، هم ملاك مبانيها ومتاجرها ، اللافتات مكتوبة بالإفرنجية ، الشحاذون فى هذه الأحياء من الأجانب ، سائق التاكسى أجنبى ، الكمسارى فى الترام مصرى ، والمفتش أجنبى ، الكمسارى فى المترو أجنبى ، لأن المترو أرقى من الترام .

كانت مصر تستورد كل شىء من الخارج - حتى المومسات ، (كان اللورد كرومر يفخر بأنه لم يسمح لمومس إنجليزية بالقدوم - أو بالبقاء فى مصر) .

لن أتحدث عن مستشار الداخلية حين يجوب الأقاليم يستقبل كالملوك ، ويمسك المدير له زمام جواده ، ولا عن مستشار وزارة المالية (يخضع مجلس الوزراء لأمره) ، وإنما أتحدث عن الكونستابل فوق الموتوسيكل ، إنه امبراطور لا حد لسلطانه ، وهو وحده الذى كان يجعلنى أحس أن مصر بوابة بلا بواب . .

وضُحِك على ذقن مصر حين أعلن تصريح ٢٨ فبراير أنها دولة مستقلة ، وصدر قانون بتعويض الموظفين الأجانب عن تركهم خدمة الحكومة (وكان الاستقلال مشروطاً بصدور هذا القانون) لم يعط كل منهم مكافأة حسب مدة خدمته السابقة ، بل قدرت هذه المكافأة على حسب ما كان يستحق لو بقى فى خدمة الحكومة إلى أن يبلغ سن الستين ، مع تقدير العلاوات والترقيات،ودفعت لجميعهم ، سواء منهم من كان يعمل فى الحكومة منذ سنين أو منذ أشهر - كل هذه المبالغ مرة واحدة . . ولم يُكْتَفَ بذلك ، بل أُضيفت إليها مكافآت سخيّة ، وبعض الذين خرجوا عادوا للخدمة من جديد بدعوى أنهم تجنّسوا بالجنسية المصرية ، دفعت مصر الملايين من الجنيهات عبثاً . إن أبشع سفه يستحق الحَجْر لايعد شيئاً مذكوراً إلى جانب سفه حكومة ذلك العهد فى بعثرتها لأموال مصر ، فى وقت هى فى أشد الحاجة لمليم واحد لبناء صرحها الاقتصادى . ولم تتعظ ، إذ استبقت لوائح التوظف الموضوعة لصالح الأجانب ، كان يسمح للموظف الأجنبى بأجازة لمدة ثلاثة أشهر ونصف إذا قضاها خارج القطر . وظل هذا النص قائماً يطبق على الموظفين المصريين ، وعشت زمناً طويلاً أعجب كيف يتاح للموظف الغنى القادر على السفر للخارج مثل هذه الأجازة السخيفة ، ويحاسب الفقراء باليوم والساعة .

الأصفار خلصت

على ذكر الملايين المبعثرة : كان أحد رجالات مصر يتولى رياسة تحرير صحيفة الحزب الوطنى بعد أن تدهور حالها ، الإدارة عبارة عن دكان صغير ، فيه عامل عجوز يَصفُّ الحروف ويدير مطبعة يد ، ويترحم على أيام « اللواء » ، إنه يعمل فى المطبعة لا من أجل الأجر ، بل محبة فى مصطفى كامل الذى صافحه ذات يوم وابتسم له ، وسحره .. فى ركن من الدكان سلم خشبى تصعد بك طقطقته إلى « صندرة » بها مكتب وكرسى ولاتعرف لونهما وسط الظلام ، وجال فى خاطر رئيس التحرير أن يكتب فى يوم زاد فيه سخطه على الاحتلال الإنجليزى ، مقالا عن خسائر مصر من جراء قناة السويس ، الورق الذى يكتب عليه مقاله جزازات صغيرة لاتتسع الواحدة منها إلا لجملتين أو ثلاث وكتب على الورقة الأولى : إن مصر جندت لشق القناة ٦٠٠٫٠٠٠ عامل ، اشتغلوا ١٥٠٠ يوم فإذا قدرنا أن أجر الواحد منهم هو ٢٠٠ مليم فى اليوم الواحد . (فرغت الورقة فمد بها يده إلى عامل المطبعة وسأله أن يبدأ فى جمع الحروف واستمر يكتب) لبلغ ذلك ١٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون من المليمات ، أى ١٨٠٫٠٠ ٠٠ جنيه . .

وانظر إلى حماقة اسماعيل ، يقبل التحكيم بينه وبين دليسبس الفرنسى ، فلا يجد فى أرجاء الأرض كلها إلا فرنسيا آخر يحتكم إليه ، (هو الامبراطور نابليون الثالث بدعوى أنه صديق) ، ودفعت مصر بسبب هذه الحماقة ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك .

فرغت الورقة الثانية فناولها للعامل . . واستمر يكتب : « وإذا حسبنا مساحة الأراضى الواقعة على ضفتى القناة والتى اغتصبتها الشركة ظلماً وعدواناً لبلغت على الأقل ٦٠٫٠٠٠ فدان ، وإذا قدّرنا أن ثمن الفدان الواحد هو ١٠٠ جنيه لبلغت الخسارة ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه » .

(فرغت الورقة فناولها للعامل) . . واستمر يكتب :

« أما حساب ترعة المياه الحلوة . . »

لم يستطع أن يتم كلامه . . ارتفع صوت العمل من أسفل يقول له صارخا :

– ياسعادة البيه ! اعمل معروف خفف الخساير شوية ، أحسن الأصفار خلصت من المطبعة ! *

* * *

فى النيابة والمحاماة

وصلنى من النيابة العامة كتاب لا يتضمن تعيينى فى وظيفة معاون نيابة ، بل يخبرنى أننى سأوضع تحت التمرين مدة ما ، ينظر بعدها فى أمرى ، وعلى أن أختار النيابة التى أحب أن أتمرن فيها . .

بدأت الحكومة – ولم يقع الفأس إلا فى رأس دفعتى – تفلسف سياسة

* (« الجمهورية » ، ١٩٥٩/٤/١٧ ، ص ٥)

التوظيف ، يقول النائب العام - وهو على حق - إنه غير مقيد بنتائج امتحان الليسانس ، فهي ليست دليلاً على أن كل ناجح - ولو كان متقدماً - يصلح للعمل في النيابة فهو محتاج أن يختبر هؤلاء الناجحين ليرى مدى صلاحيتهم له . .

وفي مصر كل كلام على الورق لابد من تأويله تأويلاً قبيحاً . لم تتردد ألسنة السوء عن القول بأن هذه السياسة الجديدة تهدف إلى حرمان الأوائل من الوظائف وتقديم المتأخرين أصحاب الوساطات . . إن جلسة واحدة مع النائب العام تكفى للحكم . فهل سيمتحن المتقدمين في القانون من جديد ؟ وما قيمة امتحان الليسانس ؟ المقصود ياسيدى - القائل هو عليم ببواطن الأمور - هو مد الحبل ، وتعيين المحاسيب واحداً بعد آخر دون ضجة ، وبذل الوعود الكاذبة للباقين . وموت ياحمار عبال مايجيلك العليق !

لم أصدق هذا الكلام لأننى لا أحب المكر ولا أثق بالماكرين . . وإن كنت أحسست أننى سأضيع وسط الزحام .

اخترت نيابة الخليفة (ومقرها في المحكمة الشرعية) لأنها قريبة من دارى ، وبدأت عملا أصدق وصف له « صبى وكيل النيابة » كقولك « صبى حلاق ، وصبى ترزى » كل مهمتى أن أجلس إلى جانبه ، وأراقبه ، وإذا أعطانى محضر تحقيق قرأته وأبديت رأيى فيه شفهيا . . أما التحقيق فيجُريه رجال البوليس فلم يُتح لى أن أقابل أحبائى المجرمين وجهاً لوجه ، إلا حين يدخل علينا عسكرى يجرجر وراءه جمعاً من الناس في يد

بعضهم الكلبشات ويضرب « سلام » ويقول « تَلَبُّس ياأفندم »! ننفض أيدينا منهم سريعاً ، بتحويلهم إلى قسم البوليس !

سرعان ماتبينت حقيقتين ، الأولى : أن التمرين بدون تحمل للمسئولية مضيعة للوقت . . لو وُكِل إلىَّ عمل تعود نتائجه علىَّ إن خيراً أو شراً لأقبلت عليه بهمة ، أما الوضع الذى كنت فيه فلا يزيد عن وضع المتفرج الذى لا يبالى ، لاأحاسب على حضور ولا على انصراف .

والحقيقة الثانية : أن الدراسة النظرية شىء آخر ، مختلف جداً . أغلب الأوراق التى بين يدى مخالفات لاذكر لها فى قانون العقوبات الذى حفظته . . مطعم مطلوب إغلاقه لمخالفته للشروط الصحية . قهوة مطلوب تقديمها للمحاكمة لأنها وضعت كراسى « فوق الرصيف ». . أراجع قانون العقوبات فلا يسعفنى بشىء . قال لى وكيل النيابة :

– لاتبتئس . كذلك كان حالى فى أول عهدى ، كاتب النيابة يتعالى علىَّ ويسخر منى حين يرى لخمتى . حتى سألت عن « مجموعة اللوائح والرُّخَص » فجىء لى بجزئين ضخمين ، علاهما التراب . نفخته عنهما ، وقضيت ليلتى ساهراً فى مراجعتهما حتى تمكنت من قطع دابر السخرية .

أمامى محضر تحقيق أقف أمامه حائراً . كيف أصف جريمة رجل كل ما فعله أنه بصق فى وجه آخر . . هل هو سب ؟ هل هو ضرب ؟ . . إن قانون العقوبات لايتضمن مايعاقب على البصق فى وجوه خلق الله .

لم ندخل المحكمة ، ولم ننتقل لتحقيق الجنايات ، ولم يقل لنا أحد من

هو الحَكَم على أدائنا فترة التمرين بنجاح ، ووكلاء النيابة يتبادلون علينا واحداً بعد آخر .

* * *

أصل إلى المحكمة هابطاً أتدحرج من شارع « نور الظلام » - ماأعجب هذا الاسم لأنه شارع ضيق شديد الانحدار - على الجانبين مكاتب وكلاء المحامين الشرعيين ، أغلبهم فى جلاليب وجاكتات ، وعلى الأذن قلم . . فيهم من لاتفارق شفتيه ابتسامة ساخرة ، وفيهم البلداء لو قامت القيامة ما اهتزت لهم شعرة . يجلس داخل هذه الدكاكين وعلى أبوابها نسوة ، دهشت - فقد كنت أتعرف جو المحكمة الشرعية لأول مرة - حين رأيت أغلبهن متبرجات بالكحل والأحمر والأبيض . . إن يوم الذهاب للمحكمة عندهن يوم عظيم ، ينبغى التأثير على القاضى ، فإن حساب النفقة لايمكن أن يغفل الشياكة والجمال ، ولأنهن سيقابلن أزواجهن وجهاً لوجه وتبقى العين فى العين مدفوعات بشهوة التشفى أو الأمل فى الصلح . . يوم عظيم - مرة أخرى - لأن الشفاه والأفواه والحلوق والأيدى لن تكف عن رواية الخناقة القديمة ، فإنها إذا نسيت فماذا يبقى لهن من كلام أو مدعاة لاستجلاب الرثاء . . لسوء البخت أدخل وراءهن المحكمة فأجد حدة الدكان قد باخت . . المأساة الحامية حين تروى تنقلب مهزلة مضحكة . . فإذا خرجن من قاعة الجلسة عادت الحدة وتبينت فظاعة المأساة من جديد . . تزداد النقمة إذا كان الحكم قد صدر بتأجيل الدعوى لجلسة أخرى . . هذه هى اللحظة الحرجة التى يبدأ فيها تبادل السباب والتشابك بالأيدى ، وضرب الروسية والعض والنهش . . وأحياناً القتل .

وراء كل قضية قصة . . كم كنت أتمنى في ذلك الوقت أن أشتغل كاتباً لمحام شرعى كما قال « فوكنر » انه كان يتمنى أن يشتغل بواباً لماخور . . فى يد هذه النسوة صبية صغار لاأحد ينتبه لهم .

* * *

خاب ظنى وتحقق قول العليم ببواطن الأمور . . . أُخِّرت وسبقنى من هو خلفى . وكنت أفضل أن أصل فى الطريق إلى سد من أن انسى فى طريق بلا نهاية ، وأصدرت أنا نفسى الحكم - لاأتركه لغيرى - بأنه من الخير لى أن أتخذ وجهة أخرى فقلت لأجربن حظى فى المحاماة ، اذ أنفت ، رغم احتياجى ، أن أشتغل فى وظيفة كتابية ، وكبر على نفسى أن أُحرم مما حسبته حقى .

إن أسرتى قليلة العدد منطوية على نفسها ، كل رجالها موظفون ليست لهم معاملات مع الناس ولا قضايا مدنية أو جنائية أو حتى شرعية ، والقاهرة بلد كبير يحتاج فيه المحامى الناشىء إلى حلقة من المعارف والأصدقاء يسندونه فى مبدأ أمره . . وقلت لنفسى ينبغى الهجرة إلى بلد آخر ، أصغر من القاهرة أبدأ فيه خطواتى الأولى ، هكذا تفلسفت مفضلا الصفر على النزر القليل ، واتجه ذهنى إلى مدينة الاسكندرية ، فقد كنا فى القاهرة نعلم أن فى مديرية أسيوط مدرسة متقدمة من المحامين المصريين : أولاد دوس ، وعلوبة ، وبسيونى ، وفهمى ، ورمزى . . أسماء معروفة لدينا ، أما فى الإسكندرية فلا تلمع أسماء محاميها الأهليين ، ولعل السبب أن محكمة الاستئناف المختلط - وكان مقرها الإسكندرية - احتكرت السوق بمحامييها الأجانب ، تاركة المصريين فى الظل . وهماسهَّل علىَّ

الهجرة للإسكندرية أن كان لى بها خال موظف بالجمارك . وقلت لأنزلن عنده ضيفاً ولو ثقيلا .

ولكنى اشترطت ألا أشتغل عند محام بالمجان ، وطلبت أن أكافأ ولو بمبلغ قليل من المال ، لسد مصروف جيبى ونفقة انتقالاتى وصيانة كرامتى فلا يقال عنى إننى لاأزال صائعا .

وجدت فى الإسكندرية محاميا وعدنى بمكافأة شهرية قدرها ستة جنيهات ، وبدأت العمل عنده فى منتصف الشهر ، هو من اليهود ، وكانت هذه الكلمة لاترن فى أذنى ذلك الوقت رنين أجراس عربة المطافىء أو الإسعاف . . كنا فى غفلة تامة - بفضل سذاجة زعمائنا السابقين - عن الخطر الداهم رغم النُذُر السافرة والطلائع البيِّنة ، أكان هذا إيذانا من القدر بأن خطوتى الأولى تجمعنى بهذا الجنس العجيب من الناس الذى سيقابلنى شبحه فى مستهل كهولتى فينكبنى ويؤذينى أشد الأذى ، ويقلب كل المبادىء الجميلة التى أعتنقها بحب وغرام إلى أضداد لها !

لقيت فى هذا المكتب لأول مرة أناقة وحبا للفنون لم أعهدهما من قبل . . فى بيتنا كتب ولكن ليس به صورة واحدة أو تحفة فنية . . مكتب فخم ، وكرسى بزنبرك تميل به إلى الوراء فيشدك إلى الأمام . مكتبة قانونية غنية . مكتبة أدبية أغنى منها . مؤلفات « أناطول فرنس » فى أجمل طبعة . على المكتب صورة لفتاة صغيرة ، هى بلا شك ابنته ، تشيع فيه جوا غامضا من الحنان ، وصور فوتوغرافية لوصية نابليون كتبها بخط يده فى المنفى ب « لونج وود » بجزيرة « سنتاهيلينا » يطلب فيها دفنه بجوار « السين » فى أحضان الشعب الفرنسى الذى طالما أحبه ، ويوصى

بممتلكاته الشخصية لخادم له . . أعداد متناثرة من « المقتطف » « والهلال » « والبيان » « والمحاماة » « وروايات الجيب » وروايات غرام . . غير أنى لم أكن حينئذ متنبها لدعوى اليهود حبهم للفنون والثقافة وضربهم فيها بسهم وافر.

وجاء أول الشهر ووثقت أن المحامى سيدفع لى ثلاثة جنيهات ، فأنا مفلس ومن أسرة كلها موظفون ، كلمة أول الشهر عندهم مقدسة ، هى المنارة الوحيدة فى حياتهم ، والأوتاد التى تثبت بها خيمتهم على الأرض ، ولكن المحامى اعتذر أننا كنا فى عطلة الصيف ولم ترد للمكتب قضايا جديدة كثيرة ، ووجدت الوعد اليقين قد أصبح كلاماً عائماً . تركته - وفى قلبى غُصّة .

وانتقلت إلى مكتب محام مصرى وعدنى بمكافأة شهرية قدرها ثمانية جنيهات ولا أسميها علاوة لأنى لم أقبض قبلها شيئاً . . . مكتب ليس به دلالة واحدة على أن الحياة بها شىء اسمه الفن ، أيا كانت صورته ، ولا حتى أبو زيد الهلالى . لاذوق ولا ترتيب ، ولاكراسى هزازة . . ولعلى كنت فى ذلك المكتب أكثر اطمئناناً لنفسى منى فى المكتب الآخر الذى كشف لى مبلغ جهلى وتخلفى وحرمانى .

كان من بين الخطط الاستراتيجية التى وضعتها بحنكة غير المجرب أن أراسل الصحيفة الوحيدة التى تصدر فى مدينة الاسكندرية وهى صحيفة « وادى النيل » - فنشرت لى سلسلة مقالات عن المحاماة لأشهر المحامين فى مصر وأوربا ، فى ذيل كل مقال اسمى وتحته كلمة « محام » . . ولكن بدون عنوان ! . . فاذا بهذه الصنارة لاتصطاد سمكة واحدة .

وكنت قد زرت صحيفة « وادى النيل » إبَّان تـأجج عـواطف أهل الإسكندرية للغازى مصطفى كمال فى حربه من أجل تحـرير بـلاده . . أعداد الصحيفة توزع كألواح الثلج فى عربات يد يتخاطفها الناس وهى طازجة بحبر المطبعة . وتُقرأ البرقيات المطولة التى تنشرها تحت عنـوان ضخم « لمراسلنا الخاص بمدينة أنقرة » بأصوات مرتفعة متهـدجة ، ولما ذهبت لإدارة الصحيفة دخلت على رجـل ضئيل الحجم لم يخلع معـطفه ولاطربوشه ، نظارته تمتطى حدبة فى منتصف أنفـه . . . أمامـه صحف تركية عديدة ، وفى يده مقص يقطع به مقالات تهيأ لترجمتها . فلما سألت عنه قيل لى « هذا هو مراسلنا الخاص بأنقرة ! » .

وسعدت فى إدارتها بالتعرف إلى الشاعر الرقيق الصبور عبد اللطيف النشار ، له قصيدة جميلة يصف فيها إحدى المقابر ، وكان يركب القطار ذات يوم ، ووقف فى محطة تجاور مقبرة ، لم يصـرخ الكمسارى « الميت ينزل » ولكن الشاعر ترك القطار ومشواره وأشغاله ومنتظريه عند الوصول ونزل إلى المقبرة ينفرد فيها بنفسه ، ويكتب قصيدته . . كان يتولى تحرير الصفحة الأدبية فى « وادى النيل » ويتولى صديق آخر لى تحرير الصفحة الإقتصادية . . طلبهما صاحب الجريدة ذات يوم وقال لهما إنها فى حاجة إلى تجديد . . ورفض اقتراحهما بأن يستخدم أقلاما جديدة . . فهو لايريد أن يدفع مليماً واحداً ، وأخيـراً اهتدى إلى حـل موفق ، طلب من الأديب الشاعر أن يحرر الصفحة الاقتصـادية ، وطلب من زميله المتخصص فى الاقتصـاد والتجـارة أن يكتب الصفحـة الأدبيـة . . فلم يسعهـما إلا القبول . . والعجيب أن صحيفة « وادى النيل » فى عهدها الجديد زادت رواجا عن ذى قبل . .

الإسكندرية

انى أحب ثغر الإسكندرية ، أحس بسعادة كبيرة تنزل بردا وسلاما على قلبى حين أتجول فى مينائها بين عطر زكى من عطور الشرق ينبعث من مخازن الخروب ، ورائحة نفّاذة يتسلل غولها فى خياشيمك ساعياً إلى تخديرك وأسرك فى قبضة لن تتراخى ، تتسرب من مخازن التبغ - إننى عين وزارة المالية ! - أشاهد السفن تفسد مؤخرتها الحبل رشاقة عرنينها ، مربوطة كأنها الخيل أمام المداود ، تحس أنها تغلى وهى باردة ميتة الأنفاس ، يخيل لك أنه لو قطع الحبل لوثبت من فورها ولوت عنانها واختفت وراء الأفق . لنشات - رغم ضآلتها - متعجرفة تمخر فى خيلاء البطة ومشاكسة كلاب الصيد الجائعة ، لها ولولة تَرُجُّ القلب . . ما ألذ الشعور بالخوف المفاجىء وأنت فى أمن مطمئن . قوارب صغيرة يدفعها رجالها وهم وقوف ، وجوههم - لا ظهورهم - إلى الطريق ، تتأرجح فوق ماء أزرق يفصله عن ماء رمادى خط مرسوم لاتدرى سببه ، عربات النقل الطويلة يسوقها أيضاً أصحابها وهم وقوف (يذكروننى برمسيس فى عربته) ، فتوتهم تحب الرعشة السارية فى أبدانهم من قلقلة العجلات فوق البلاط .

أعود فأمر أمام الدكاكين التى تبيع الحبال والقلوع والبَكَر ، لاأعرف غيرها يصلح مصنعا للأحلام . . وعلى الشاطىء هياكل لسفن أخرى من الخشب ، عجفاء بادية الضلوع كأنها ديك رومى فى نهاية مأدبة مصرية ، أراقب بلذة « قلفطة » شقوقها . يقطع عليك نسيم البحر فجأة رائحة غليظة عطنة زخمة ، يضيق بها صدرك وتنجذب إليها فى وقت واحد ، يقولون إنها « يود » البحر ، والبلدية ومجاريها أعلم . .

أبناؤ ها أهل نخوة وشجاعة وكبرياء لايعرفون مركب النقص ، تراهم بالسروال الأبيض المنتفخ والحزام العريض جالسين رافعى الرءوس فى المقاهى الافرنجية التى تزعم أنها وقف على الأجانب والطبقة الراقية - وهذا شىء لا يفعله أولاد البلد فى مصر ، إذا تركوا أحياءهم ضاعوا وأحسوا بالغربة - إذا قارنت عدد ضحايا المظاهرات لوجدت الاسكندرية تتفوق على جميع مدن مصر ، شنق من أهلها فى الحركة الوطنية ثمانون رجلاً مرة واحدة ، منهم أب وابنه . .

ولكن ماسر هذا اللون الأصفر العجيب الذى يكسو كالطفل وجه الفتاة الاسكندرانية ؟ . . من أجله أحببت بنات بحرى حباً شديداً ، وما سر أن الاسكندرية وهى مهد كبار ملحنينا - ترضى أن تعيش بدون صحيفة أو مجلة أو عدد يليق بها من المكتبات ؟ هل هى حق أم باطل تلك الأسطورة التى تؤكد ان بها طلسما يذود عنها الحدآت والغربان ؟ وأخيراً ما سر هذه الشخرة التى تنفرد بها عن بقية ثغور مصر ؟ كان سليمان نجيب عائداً من اوربا وعلى رأسه قبعته ، فما كادت السفينة ترخى حبالها حتى تسلق إليه كالقرد صبى شيال ووقف أمامه وتناول حقيبته وقال له :

- وان باوند يا خواجة..

فالتفت إليه وشخر له شخرة عالية وصرخ :

- بتقول كام ياضلالى ؟ !

جرى الصبى إلى حافة الباخرة ، وأطل على المعلم ، وقد انتصب طوله فوق الرصيف ، وهتف إليه بصوت مجلجل :

- « يامعلم ده بيشخر ! ! آخد منه كام ؟ »

سعيت إلى دكان الحبال والقلوع والبَكَر لأقابل العامل الذى قيل لى إنه لف الأرض سبع مرات وعاد وفى حقيبته صور عديدة .

. . سألته عنها فأرانى صورته وهو واقف أمام جدار ولا شىء آخر فى الصورة - وقال : أنا فى هونج كونج ، وصورة أخرى له أمام جدار آخر وقال : أنا فى بومباى ، وصورة ثالثة أمام جدار وقال لى : أنا فى سان فرنسسكو .

ونظرت إلى عينيه فوجدتهما سليمتين قويتين فحمدت الله أننى أعمش !

* * *

دمنهور

لم أجد فى قلبى مقدرة ولا شجاعة على أن أشتغل أو أفتح مكتباً باسمى ، فان تأثيثه يحتاج إلى نفقة لا أملكها ، والإيراد غير مضمون ، والصفر الذى فضلته فى الإسكندرية على نزر القاهرة لم يزد مع الأيام عن صفر .

ومتى ارتد الانسان عن وقفته فى الصف الأول وارتضى الصف الثانى بديلاً فلا يلومن الا نفسه اذا تزحلقت قدمه بعد ذلك إلى الوراء .

انتقلت من الاسكندرية لأشتغل محامياً بدمنهور بمرتب شهرى قدره ١٢ جنيهاً ، فكأنى عجزت فى ميدان العمل الحر بالمحاماة أن أخلع مريلة

موظفى الميرى ، ونزلت أيضا فى دمنهور ضيفاً عند أحد أنسبائى البعيدين .

وإذا كنت ذرعت مديرية البحيرة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً الا أن مخالطتى لأهلها لم تكن مخالطة مباشرة بل مخالطة عن طريق ملفات القضايا ، وأغلبها قضايا صغيرة (التى أتولاها نيابة عن المحامى صاحب المكتب الذى يقصده الناس ويجرى هو وراءهم - ما عرفت الجرى وراء أحد طول عمرى . عشت فى الريف ولكن على هامشه) .

ركبت لأول مرة قطار الدلتا ، ولم يكن صورة مصغرة للقطار ، بل صورة مكبرة للعب الأطفال شاهدت انبثاث الأروام بين الفلاحين ، فهم تجار القطن يركبون معنا هذه القطارات فلا نجد لذلك عجباً .

لاأزال أذكر إلى اليوم كيف كنا نصل إلى محكمة أبى حمص والمحطة تبعد عن البلد كثيراً فإذا كان اليوم ممطراً خُضْنا فى بحور من الوحل ، ونزل السائق يغوص فيه إلى وسطه ليدفع الحصان العجوز بيديه وطرقعة لسانه وسوطه . وأبو حمص من أفقر البلاد فى المساكن . ولما سألت عن السبب علمت أن أرضها حكر يستغله مالك يهودى لايأبه بالبناء ويحاربه . .

رشيد حسبتها قريبة من الإسكندرية ، كنا لا نبلغها الا بعد ثلاث ساعات ونصف ساعة فى قطار بطىء . أتأمل من النافذة صفوفاً لاتنتهى من النخيل والتين الشوكى ، على اليمين صفحة هادئة لا تتحرك هى بحيرة إدكو ، وعلى الشمال رمال ورمال . ولكن لابد أن ترى فلاحاً وراء محراثه . . نساؤها يلبسن ثياب أهل القاهرة الملاية والقصبة التى لا تعرفها الإسكندرية ، ورجالها كذلك كأهل القاهرة إلا نفراً قليلاً يقتدون بزى

أهل الإسكندرية البنطلون الواسع والحزام العريض . أسماؤهم غريبة تنتهى بواو ممدودة مثل «جادو» ، ولعلهم من مهاجرى الغرب ،أو أسماء مثل الدرس والنزر . . لقيت رجلاً اسمه «الفلس» . شهرتهم عندنا نحن أهل القاهرة أنهم أرباب نكتة يتكلمون بالقاف ، لم تسعفنى زيارتى العابرة أن أتحقق من ذلك . لا أدرى لم هى فقيرة رغم أنها مشهورة بالفسيخ والسردين والسمان والليمون والسيرج والبلح الزغلول . . فى المحطات يعرض علينا سمك مشوى لنشتريه .

محكمة الدلنجات تنعقد فى حجرة صغيرة ليس بها الا ما يكفى لجلوس ستة أشخاص ، وأصحاب القضايا والشهود جالسون على الأرض أكواماً وصفوفاً . كاتب الجلسة مصدوع يربط رأسه بمنديل حريمى مفلفل . . إذا طلب القاضى مستنداً تركنا ليبحث عنه ، ثم يعود . .

كل مراكز مديرية البحيرة متخلفة إلى درجة تبعث على الرثاء . . لا يوجد فى واحد منها مطعماً تستطيع أن تأكل فيه لقمه نظيفة . دمنهور نفسها محرومة من المجارى ولأهلها عادة غريبة ، أن «يدلقوا» من النوافذ مياه بيوتهم قذرة وغير قذرة . . رأيتها تتحدث بعجب عن مدير فضله أنه شق طريقاً وأقام متنزها . . مع أنها مدينة غنية تعج بمحالج القطن وأهلها أرباب تجارة وحزم لا يفلح بينهم غريب .

وكنت أجوس خلال الريف وأنا كالمخدر لا أفهم سبب علته ولا أحس فى قلبى إلا يأساً مريراً واستسلاماً صاغراً .

سماسرة

عرفت فى المحاماة جنساً عجيباً من الناس ، أنفت منه وأنفت من أجله من مهنة المحاماة ، فلبعض المحامين سماسرة للقضايا . ليس سبب أنفتى راجعاً إلى المهنة ذاتها ، فالأرزاق على الخلاق ، ولا بأس أن يحتاج العمل إلى وسيط ، ولكن السبب أنهم لايعملون على المكشوف بل فى الخفاء وبالمخادعة .

كنت فى حضرة المحامى فدخل علينا رجل يتأدب ويخشع وكأنه يلبس مسوح القديسين ، لا جاكتة فوق جلابية ، تعلن ابتسامته أن عشمه فى جدوى الخير لوجه الله لا يموت ، فعليه سمة الشهداء أو الفدائيين .

سلّم على المحامى سلام الغرباء باحترام وتهيب شأن من لا يعرف أحدهما الآخر من قبل . يجر وراءه جر النعجة رجلاً مصفر الوجه مدهوشاً . . وقال الرجل الأول للمحامى : «صديقى هذا عرفته من القهوة له قضية وقد استشارنى فلم أجد غيرك أهلاً لها . . لأنى وإن كنت لا أعرفك ، أسمع عن كفايتك ونزاهتك وستكسبها لنا» . ولم يقل له بإذن الله . . كلام جميل كله تعاطف ومودة لوجه الله . . سُحِر الرجل فدفع مقدم الأتعاب وتسلمّ الإيصال وخرجا . لم تنقض خمس دقائق حتى عاد السمسار وحده مندفعاً كالرصاصة ، فى عينه نظرة النسر ، فسلمّ عليه المحامى سلام الحبايب العشاق ، واندفعا فى حديث سريع لم يمنعنى من أن أنتبه ليد السمسار تمتد كالمخلب - وسط الحديث وكأن لا علاقة لهذه اليد بهذا الحديث - إلى المحامى فناوله خلسة - ولا أدرى ممن وإنما هو الشعور

بالخجل - أجر سمسرته . . ثم بلع كل منهما ريقه إيذاناً بختام المأساة أو المهزلة و إلى اللقاء مرة أخرى .

اذا كان السماسرة جنساً عجيباً من الناس ، لا يصطادون الا جنساً أعجب منهم يستحق ما يجرى عليه . يصاب الرجل بتَحُكُّم «كيف» الدخان أو تَحَكُّم لعب الورق فى القهوة ، أما هم فيصابون بتحكم «كيف» القضايا والمحاكم . فى حياتهم مسألة هينة ما أسهل حلها بالمصالحة . . بل لا حظت أن صاحبها لا يحسن روايتها بل يغرقها حتى تضيع معالمها وسط تفاصيل لاتنتهى عن مؤامرات الأقرباء ودسائس الأنسباء وموالسة الحكام ، ولكنها فى جسده كالجرب أكبر اللذة أن يعكف على حكّها صاحياً نائماً . . هم أكثر أصحاب القضايا لجاجة وجرياً وراء المحامين ، وتتبعاً لحركاتهم وأخبارهم وأسرعهم اتهاماً لهم بالتواطؤ مع الخصوم . . . كنت آنف من السماسرة ولا أجد لهم عذراً وأنا شاب عفيف متحمس . . إلا أننى وأنا أكتب الآن عنهم ، أجدهم - بعد أن وصفت ضحاياهم السمجاء - من أخف الناس ظلاً وأكثرهم ذكاء . . فحلال عليهم مهنتهم الشريفة .

***

النصب

وهكذا فى جميع قضايا النصب أثور حينما أجد الناس لا ينتبهون - وهذا شىء مخيف اذ يكاد ينطق بأن الأمانة فى هذه الدنيا والعنقاء سواء -

إلى أن الضحية المزعوم بأنها بريئة تستحق العطف إنما هى أشد من النصاب لؤماً وخسة ودناءة وطمعاً وجشعاً . فأيهما أثقل ذنباً : نصاب لعله رب أسرة مأزوم بلاه الله بحدة الذكاء فأضله الشيطان عن الطريق المستقيم ، أم رجل يقال إنه فاضل كريم يرضى - وهو مستور الحال وقد يكون من كبار الأغنياء - أن يشترى من رجل فقير ، لعله حافى القدمين رث الثياب ، خاتماً من الماس لا يقل ثمنه عن مائه جنيه بخمسة قروش لا غير ؟ لو كان فى قلبه ذرة من أمانة لقاده إلى صائغ ينقده الثمن الحلال . سرق النصاب خمسة قروش أما هو فسرق مائة جنيه . والغريب أن هذا الرجل الفاضل هو الذى يجرى فيفضح السر ويطالب بمعاقبة من ضحك عليه ! ولا أدرى أيهما ضحك على الآخر ، إذا قسا عليه الناس لم يزيدوا عن وصفه بالبلاهة وطيبة القلب وهما أغرب مترادفين فى قاموس الأخلاق !

ما أمتع باب النصب فى قانون العقوبات . إنه المرة الوحيدة التى تحس فيها أن هذا الشيخ الصارم الوقور الذى ضم بين حافتيه سجلاً سلبياً للفضيلة بتعداده بلذة كبرى الرذائل (المسمى قانون العقوبات) يتشوق إلى اللعب بالأقنعة وسيوف صلاح الدين وثياب الفراعنة والمماليك وجند الرومان وبقية هلاهيل الفرقة القومية ، فهو يشترط لجريمة النصب وحدها إخراجاً مسرحياً !

لابد لى أن أروى هنا أعجب إخراج فى النصب صادفته لأن بطله يلبس رداء الفلاحين السذج من ملابس مسرحية لتوفيق الحكيم.*

* («الجمهورية» ، ١٩٥٩/٤/٢٥ ، ص ٤)

قال صديقى الفاضل :

ـ كنت أسير فى عتمه المساء فى شوارع جاردن سيتى ، فإذا على الرصيف المقابل فلاح على ملابسه طين الحقل ، فى يده حبل ليف لعله خلعه عن وسطه حين دخل المدينة ، فى قدميه بلغة صفراء مسودة ، تتعثر مشيته حين يدب بها على أرض ملساء مرصوفة ـ وهى تجرى جريا فى دروب القرية وأخاديد الغيط ـ فهى تأبى أن تمشى به فيجرجرها زحفاً على الأرض ، بجانبه امرأة هبط ثدياها كالخرجين على بطنها ، تفوح منها رائحة اللبن الرايب والحلبة والجبنة القريش ، على رأسها مقطف به علو برسيم وحمامة قرعاء تصوصو منتوفة الريش زرقاء اللحم متآكلة المنقار ، يتخبط الرجل فى المرأة وتتخبط المرأة فى الرجل كأنهما تائهان فى أرض مجهولة مخوفة ، رغم أنوار البلدية . .

أحس صديقى أن الرجل قد انتبه له وأنه يهم بالاشارة إليه والتقدم نحوه فيكفكف خجله وتشده المرأة من كمه ، يؤكد صديقى أنه رأى شفتيه ترتعشان من شدة ارتباكه وحيائه وزجره لأول نوازعه الحمقاء حين تهمس له إنها عين الحكمة .

ومضى صديقى فى طريقه فإذا بصوت رقيق فيه مسكنة الشيخوخة وحشرجة الحلقوم الذى تخشب بعد نضارة يقول له :

ـ ياسيدنا الافندى ! ياسيدنا الافندى !

ـ أفندم . . ؟

ـ من فضلك باين عليك طيب وابن حلال عاوزك فى معروف .

.. آمن صديقى بهذه الشهادة وارتاح قلبه فسارع يقول له :

ـ أفندم .. خير ! تحت أمرك ..

ـ بقه شوف .. احنا فلاحين غلابة بنبيع ساعات بيض وفراخ لواحد طيب زى حضرتك فاتح أجزخانة مش بعيد من هنا.إيه قولك .. النهاردة قال لى «لازم يافلان أهديك بهدية حلوة من عندى حلال لك وناولنى قزازة وقال لى إنها كويسة وتشد الحيل وتمنع الرطوبة وتنقى الدم وتفتح الشهية حاجة اسمها كينا .. حاجة زى دى .. مراق وغوشتنى ولعب الفار فى عبى .. قالت لى : إوعى يابو فلان تكون مخلوطة بخمرة .. احنا مش وش كده .

وأخرج الرجل من المقطف زجاجة نظيفة مُغلَّفة فى ورق شفاف يخرفش ، مختومة الرأس بالشمع الأحمر وعليها رسم رجل نصف عار فى إزار جلد النمور ـ كأنه شمشوم أو هرقل يمزع فكى أسد مهول أحدهما عن الآخر ـ وتحته «كينا بسليرى ـ احترس من التقليد !»

ومال الرجل بسذاجة على صديقى وقال له :

ـ اللى أنا عاوزك فيه بس ياسيدنا الافندى تقول لى من فضلك وتصدقنى بأمانة الدوا ولاالمشروب ده دخله صحيح خمرة ولا سبرتو ؟

ضحك صديقى وأكد للرجل وهو يربت على كتفه إن الأجزجى لم يَغَشُّه وإنها هدية طيبة تنفعه .

تناول الفلاح الزجاجة يتأملها بحسرة ، كأن المولى سبحانه وتعالى لم يشرح صدره للحق يأتيه من أول غريب يقابله ، وأن وصفه من قبل بالطيبة

والإخلاص ـ ومعشر المؤمنين أهل شك وريبة حين يكون الأمر حلالاً أو حراماً . .

وقال :

- والله الاجزخانجى ده على نياته ، فتح شهية ايه واحنا ناس مش لاقيين ناكل . . والله ماهى لازمانى . . تسوى لها كام يا سيدنا الافندى .

هبط صديقى أول درجة فى سلم الأمانة وقال : ٢٠ - ٣٠ قرش .

وهو يعلم أن ثمنها خمسون قرشاً بالتمام والكمال .

- عوضنا على الله . لو كان ادانى بريزة كان أحسن لنا .

طرطقت أذنا صديقى فأسرع يقول وهو يحس أنه بارع واسع الحيلة نهاز للفرص :

- تاخد فيها ١٥ قرش ؟

ترك مجالاً للفصال . . يا للمكر . .

زم الرجل شفتيه ونظر إلى المرأة فأشاحت كأنها تقول «أنت صاحب الأمر والنهى اذا كنا أمام الناس» .

مدَّ الرجل يده بالزجاجة إلى المقطف مقدار ثانية ثم عاد وأخرجها وهو يقول :

- طيب خليها بعشرين قرش ، ما انت قلت ان ثمنها ٢٠ - ٣٠ قرش .

دفع صديقى الريال كأنه يتكرم عليه بإحسان قدره خمسة قروش وأسرع فى خطوه ، وكان الصديق هو أول من طلب الهرب ، ليبتعد عن الرجل وهو لايزال يتعثر فى مشيته وبُلغْتَه تكاد تنفلت من قدمه .

وفى الدار فك صديقى الورق الشفاف ، لم يأبه أن وجد على ظهره بعض البقع اللزجة وحين حاول فك الشمع الأحمر انفلت فى يديه بسهولة لم يكن يتوقعها . . لم يصدق همساً بدأ يوسوس له الا حين صب أول كأس فوجده ماء خالصاً من ترعة عكرة .

والغريب أن صديقى نزل من الدار مهرولاً ليطارد الرجل النصاب فكان فص ملح وداب . . لم يذهب - والحمد لله - للبوليس ولو ذهب لقيل له : هذه ليست أول مرة وأن البطلين لم يعرفا الريف قط نظراً لأنهما من سكان احدى العطوف فى مجاهل القاهرة الحانية على الجريمة والشحاذين والقرداتية وعصابات خطف الأولاد . .

* * *

فى ساحة المحكمـــة

لم تكن الصعوبة التى واجهتنى فى أول عهدى بالمحاماة هى «ماذا أقول ؟» بقدر ما هى «كيف أقول ؟» رغم أنى دخلت المحاكم - كمتفرج - من قبل فإننى لم أقدر صعوبة موقف المحامى الا حين وقفته . كنت أود أن يجىء مكانى - كما نرى فى محاكمات السينما الفرنسية - بجانب المتهم فيميل إلىَّ موشوشا وأميل إليه هامساً ، وأن تتهيأ لى الأسماع حين يطلب منى

القاضى أن أتفضل وأبدأ المرافعة ، وأن يتاح لى أن أثب من مكانى لأمسك بتلابيب الشاهد - وسبَّابتى تكاد تخرق عينه ، وأحاول فضح كذبه بسيل من الأسئلة البارعة .

أين كل هذا من محاكمنا الجزئية ومحاكم مراكز البحيرة ، وبالأخص محكمة الدلنجات ؟ المحامون محشورون حشراً كالسردين فى مقعدهم يترافعون وهم وقوف به . كنت أجاهد بذراعى حتى أجد لى مكاناً بينهم إذا قام جارى عن يمين أو يسار قمت أنا أيضا - لأنى قزم ضئيل - بضغط أجسامهم - والمتهم وإن كان مقبوضاً عليه فهو فى قفص الاتهام بعيداً عنى . وإن كان مطلق السراح فهو يقف سداً بينى وبين القاضى ، يجد من حسن الأدب ألا يدير وجهه إلىَّ ، وإذا نظرت إلى الناس من ظهورهم وجدتهم كلهم أبرياء . . كل شىء يجرى فى عجلة ، رول الجلسة به ٢٥٠ قضية على الأقل .

بعض القضاة يأتون بقطار . . ويعودون بقطار آخر . . بينهما وقت محدود ، ينبغى إنجاز هذه الأكوام خلاله . . شَهِّل شَهِّل . . لاتُتاح الفرصة لأن أوجه للشاهد سؤالاً ، وإذا وجّهته طلب أكثرهم - أنفةً وكبرياء - إلا أن يكون توجيه السؤال من القاضى . . وهذا التكرار يكسر حدة الهجوم ويضيع أثرها ، فالأولى التنازل عنه . .

رأيت أغلب القضاة يكتبون الحُكُم وأنا فى أول المرافعة ، لأن القضية واضحة كالشمس ، وكل كلام لغو . . بعض مقاعد المحامين عالية لا يظهر منها الا رأسى إذا وقفت . فلم أرض أن تبدو للقاضى كهذه الرءوس المقطوعة الموضوعة فى طبق فوق مائدة فى ألعاب الحواة والسحرة وهى مع

ذلك تنطق وتضحك وتسأل الجمهور أن يتوجهوا للمولى سبحانه ليرحمها ويصبِّرها على بلواها ، وأغلب بنات البلد يجأرن بهذا الدعاء بعيون مغروقة بالدموع ، ويسلكن صاحب الرأس فى سلك الأولياء أصحاب الكرامات ، ويتهامسن لو خطونا عليها هل تفك عقدة العقم ، هيهات أن يصدق القاضى أننى أيضا من الأولياء أصحاب الكرامات . . فجعلت من خطتى أن أنفلت من المقعد ، ولو دست على أقدام جميع الجالسين . . وأقف فى حرم المحكمة بين منصة القاضى وهذه المقاعد ولكننى كنت أحس أننى تهت فى هذا الحرم واختلطت بالشهود والمتهمين مطلقى السراح .

ثم عدلت عن خطتى سريعاً بعد أن ترافعت يوماً أمام قاض وقفت منحرفاً إلى يمينه ، فلما جاء دورى فى الكلام دق القاضى المنصة بكعب قلمه الرصاص ، ونظر إلى يساره وقال «اتفضل» نظرت حيث نظر فوجدت محامياً آخر قد غرق وجهه فى ملف . . . ظننته يقصده فصبرت . . عاد كعب القلم يدق مرة أخرى ثلاث مرات بدلاً من مرتين «اتفضل» . المحامى الآخر لا يزال غارقاً فى الملف فصبرت فإذا بالقاضى يميل بكل جسده إلىّ ويصرخ :

- ما قلنا ستين مرة اتكلم يا حضرة المحامى . . !

لم أفطن الا فيما بعد انه مصاب بالحول . .

ومما زاد بلوتى أن بعض القضاة يُصِرّون على ألا يترافع أمامهم المحامون الا مرتدين الروب الأسود . . وكانت أكبر متعة لزملائى القادرين أن يفصلوا لهم يوم نجاحهم هذا الروب ، أما بقيتهم من الفقراء أمثالى فكنا نؤجره من فراشى المحكمة لقاء نصف ريال .

أعوذ بالله من رائحة عرق المحامين إنها تفوق زميلتها رائحة النفتالين . . لم أجد روبا واحداً يليق بى ، بل كل روب لبسته أخذت أعوم فيه ، كأننى قسيس أرثوذكسى يخوض حفرة فى يوم مطير . . أململ أطرافه وأرفعها إلى وسطى حتى لا أقع به إذا مشيت .

إذا كنت خجولاً متهيباً وكانت قضيتك هى رقم ١٢٥ بقيت مسمراً من الصباح للساعة الثانية بعد الظهر ، فنحن لا نعرف ترتيب القضايا إلا يوم الذهاب للمحكمة . أما إذا كنت مشهوراً أو على الأقل ملحاحاً مكشوف الوجه لا يهمك الكسوف استطعت أن تحمل القاضى على أن يقدم قضيتك عن غيرها بدعوى أنك ذاهب للمرافعة - كذباً فى أغلب الأحوال - فى قضية هامة جداً فى محكمة أخرى .

حضرت مرة قاضياً طيب القلب يستجيب لهذا الرجاء بسهولة . . وبعض القضاة - وقد لاحظت بدهشة أن أغلبهم كان فى مبدأ أمره محامياً - يرفضون إدخال أى تعديل على رول الجلسة إكراماً للمحامين . على يمين القاضى فوق المنصة تل مرتفع مائل كبرج بيزا من الملفات بين البدين والنحيف . .

- من فضلك نمرة ٦٥ . .

- مد القاضى يده وسط التل وإخرج الملف . .

- من فضلك نمرة ٧٧

- من فضلك نمرة ١٤٤

ولما فرغ إلحاح المحامين عاد إلى ترتيب الرول ، ولكن برج بيزا كان قد اختلت بعض أدواره - دون أن ينتبه القاضى - وأصبح سكان البدروم فى السطح وسكان السطح فى البدروم

- القضية اللى بعديها نمرة ١٩

وتناول القاضى أول ملف (ربنا يهون) . وزعق الحاجب بصوته الرنان كأنه ينادى على بلح أمهات لا تين ولا عنب زيك . .

- عثمان أبو سريع ! . . عثمان أبو سريع . .

قفزت عين القاضى بين الأوراق خطفاً لا يبالى حتى وقفت عند وصف التهمة وذكر المادة الواجب تطبيقها . . تهمة إحراز حشيش . .

- ايه قولك فى التهمة ؟

عثمان أبو سريع خائف ، مضطرب كالفأر فى مصيدة ، بدأ يتلعثم من قبل أن يتكلم :

- ياحضرة القاضى ربنا يخليك ، أنا كنت طالع الصبح بدرى أصلى الفجر حاضر وقدام الجامع لقيت وزة قلت دى لازم تايهة يبقى ثواب لو مسكتها عبال ما يبان صاحبها . .

قاطعه القاضى بغضب وحدة قائلاً .

- مش ح تبطل تخريف الحشاشين ده ؟ هو لولا اتهيأ لك إنك شفت وزه كان عرف البوليس يمسكك ؟ حبس ٣ شهور . . غيره . . القضية اللى بعدها .

بعد ساعتين أو أكثر ، حين قال القاضى وقد هد التعب جهده وصوته : القضية اللى بعدها . . ونادى الحاجب بصوت أكثر رنينا ، فقد خلت الردهة من الزحام الشديد . .

- داود محمد مبارك . .

ودخل رجل هادىء النفس ثابت الجنان على شفتيه ابتسامة ساخرة . .

وجرت عين القاضى فى الملف كعادتها وسأله دون أن يرفع وجهه :

- ايه قولك فى التهمة . . سرقت الوزة ؟

كان القاضى قد نسى القضية الأولى

فقال له داود وهو فخور بأن يصحح للقاضى خطأه ، ولو على حسابه :

- يا سعادة البيه ، أنا المتهم فى الحشيش وقضية سرقة الوزة هى اللى حكمت فيها قبل كده . . معاذ الله أكون حرامى ، وأكون دنى أسرق وزة . . ليه مش لاقى آكل ، أنا صحيح مضبوط بالحشيش وقسمتى كده . . لكن بشرفى لما ضبطونى الدور ده ماكانش معايا حشيش ، الجاويش هو اللى حطهولى فى جيبى . .

قال له القاضى مقاطعاً :

- بس . . بس . . هى حدوته

وقام من فوره ليقدم تقريراً يلتمس فيه إلغاء الحكم الذى أصدره خطأ . . بسبب إلحاح المحامين وارتفاع برج بيزا . .

***

كسبت أول جناية وخسرت أول جنحة

لم يكن محرما على المحامين تحت التمرين أمثالى فى أول عهدى بالمحاماة المرافعة أمام محكمة الجنايات إذا كانوا يتكلمون نيابة عن محام مقيد أمامها ، وقد وجدتنى ذات يوم مع الأستاذ الأول - صاحب «أناطول فرانس» . فى محكمة الجنايات بالإسكندرية ، منعقدة برئاسة المرحوم طلعت باشا . وكنت أحب هذا الرجل وأتتبع بإعجاب شديد أسلوبه الناصع الذى ينم عندى عن ذهن صاف ونفس سمحة (وقد شُغفت فيما بعد بالمقارنة بين هذا الأسلوب وأسلوب عبد العزيز فهمى ، يتميز هذا الأخير بالمنطق العلمى الجاف والبراعة فى إثارة الاعتراضات - أحياناً مفتعلة - لإظهار براعة أشد فى الرد عليها وتفنيدها) . ونودى على قضية ، المتهم فيها أعلن عن فقره وعجزه عن توكيل محام له فندبت المحكمة له محامياً للدفاع عنه بالمجان ، وكان المحامون يضيقون بهذا التكليف كل الضيق ، ولا يخصُّون هذه القضايا بكبير عناية . . فلاعجب أن غاب هذا المحامى ، وزاغ ، ولعل طلعت باشا كان قد قرأ القضية وعرف أن التهمة واضحة البطلان لا تحتاج إلى «لت» أو «عجن» ، فوذ أن يفرغ منها دون تأجيل ، وطلب إلى الأستاذ أن يتطوع بتصفح الملف والدفاع عن المتهم . . وظن الأستاذ أنها ورطة ، فهدته حيلته أن يورط فيها تلميذه

فدفع إلىَّ بالملف وقال لى : «هذه فرصة فريدة تسنح لك بالمرافعه أمام محكمة الجنايات ، هنيئاً لك يا بختك» .

كنت أدافع عن رجل لا أعرفه ولم أقابله ولا أدرى هل هو خفيف الدم أم ثقيله . .

نظرت إلى قفص الاتهام ، أتأمل شابا طويل القامة مفتول الذراعين ، ضيق الصدر أسمر الجبهة ، نظرته مكشوفة غير متهيبة ورأيته بدوره - حين عرف أننى سأتولى الدفاع عنه - يتأملنى بنظرة مبتسمة ليس فيها خوف أو غضب ، فرددت ابتسامته بابتسامة أرشق منها كأننا من أعزِّ الأصدقاء ، قرأت الملف على عجل فإذا بى أتبين أن هذا الشاب القوى عرَّض للخطر ذات يوم حياة سكان حى بأكمله ، كأنه أحقر من الميكروبات ، كالطاعون أو الكوليرا . . كان يشتغل صبى فرن ووقعت الشحناء بينه وبين المعلمة ، فلما انتهى ذات يوم عجن العجين وتهيأ العمال لقطعه أرغفة وخبزه رشَّ خلسة على العجين كمية من مسحوق التوتيا الخليلى ، وانصرف لايهمه أن يهلك الآف من الناس الغلابة حين يأكلون هذه الأرغفة المسمومة .

ونوديت المعلمة ، فدخلت امرأة نصف لها وجه فتاة ، وجسد برميل وصوت القنوع المحتج بأنه لم يأثم إذا طلب من الحياة ما تعطيه لأمثاله ، لايطمع فى زيادة فمن العدل ألا يكون نقصان .

علمنا من شهادتها أنها ورثت الفرن عن زوجها المرحوم وروت لنا القصة فى كلمة ونصف ، فهى سيدة عملية عاقلة ، ثم التفتت إلى قفص الاتهام فرأيت نظرتها ترق رقة الأم لطفلها وقالت :

- أنا مسامحاه . . المسامح كريم . ؛ وعاوزاه يرجع لشغله . .

نظر إلىّ طلعت باشا بابتسامة حلوة ملؤها التشجيع والسرور . يعد نفسه للتسلى بمرافعتى ، يتساءل فى مرح ماذا عساى أن أقول .

فكّت هذه الابتسامة عقدة لسانى ووثبت روحى إليه . إننى أومن بأن الفكرة مخلوق حى ينتقل بوسيلة لانعرفها من رأس إلى رأس ، ولو فرّقت بينهما أبعد المسافات ، إننى واثق أن فكرته عن القضية دخلت رأسى .

قلت كلاما لم يزد عن دقيقة واحدة ، وجلست ، وانتهت أول مرافعة لى أمام محكمة الجنايات . «يا سيدى الرئيس يا حضرات المستشارين»

هذه الجملة وحدها هى نصف المرافعة .

لون المادة لايخفى عن العيون . . ليست هناك نيه قتل . . بل مجرد إتلاف أشياء منقولة وهى مخالفة ، لاجناية . أطالب بالبراءة .

احتفظ طلعت باشا بابتسامته ، وخُيِّل إلىّ أنه أحس بشىء من خيبة الأمل لأننى لم «أُهجِّص».فيضحك علىّ ، ونظرا إلىّ بسرور وحنو وهزّ رأسه ، ثم أدار وجهه يمنة ويسرة - لا للتشاور بل لمجرد تقابل النظرات مع زميليه - ونطق من فوره الحكم بالبراءة .

من سماحة محكمة الجنايات وهى أكبر محكمة ألا تحكم فى المخالفات ولو كانت ثابتة . فهذا لا يليق بها فإذا كنت متهماً فى مخالفة ، فخير لك أن تخطىء النيابة فى حقك وتحيلك على محكمة الجنايات متهماً فى جناية باطلة .

لما خرجت من المحكمة رأيت عن بعد المعلمة والفتى يسيران جنباً لجنب وهو محنى الرأس إلى الأرض وفى يده سيجارة وهى - لأنها تمشى تهتز على الجنبين - تصدم كتفها فى كل خطوة بكتفه صدمة خفيفة . انشرح قلبى

لهذه الذبذبة اللذيذة وشعرت أن الصلح قد عُقد ، وأن استئناف العلاقات مضمون ولو إلى حين .

ومن العجيب أنى انتظرت فى اليوم التالى أن يزورنى هذا الفتى ليشكرنى ولكنه لم يفعل . . لم أره قط ومع ذلك عشت أياماً لا أبدأ الأكل من رغيف إلا إذا فتحته أولاً ودقّقت النظر فيه ، فإنى لا أعرف عدد معلمات الأفران الأرامل فى الإسكندرية .

* * *

نسيت مهنة هذا العامل الفقير الغلبان ، وإنما لا أزال أذكر رأسه المكور ووجهه المرسوم بالبرجل وعينيه المستديرتين . لاعجب أن وهبه الله - فى شكل علامة استفهام - أذنين كبيرتين نافرتين كمقبضى إبريق شاى ، يخال لك أنك تستطيع أن تمسكه من إحدى هاتين الأذنين - فهو قصير نحيف له يد عظامها قراقيش - وترفعه عن الأرض فيرتفع - كالعلقة - معك ويدور جسده دون أن يهز ساقية . . لأنه فارغ وكلامه فارغ ، ومع ذلك لا ينقطع عن التحدث عن نكبته .

يجد لذة كبرى فى أن يروى للناس جميعاً كيف اكتشف أن زوجته تخونه . . مالك والزواج يابطل الأبطال ؟ المصيبة أن بعض الناس يظنون أن الزواج ستر شرعى دائم - لافضح علنى عاجل لضعفهم الجنسى . . وما الدليل على الخيانة ؟

لم يقل إنه شكّ فى مسلك زوجته ، أو إن الفار لعب فى عبّه ، أو إنه ارتاب من قبل فى غريم معين وأحكم مراقبتها فضبطها متلبسين «فرقعها»

علقة سخنة أو سلمها للمحاكمة والفضيحة بجلاجل ، بل نكبته الكبرى التى يضرب من أجلها كفاً بكف أنه كان يعيش فى غفلة .

احتاج ذات يوم إلى «رخصته» التى يصونها فى غلاف من الجلد ، فعاد مسرعاً إلى البيت ، والبيت حجرة معتمة فى بدرون رطب ، ومع ذلك يزحمها سرير عال من الحديد الأسود تعمم قوائمه - والظاهر أن الزوجة لا تخشى البوليس - أربعة عساكر مبعجرة صفر مزنجرة . . بحث عن الرخصة فى سلقط ملقط لم يجدها . وأخيراً طوى مرتبة السرير ، فإذا به يجد تحتها رخصة من نوع آخر . . كرت بوستال لصورة رجل فتوة مبروم الشارب يجلس على مقعده منفوش نافخاً صدره ووراءه تقف فتاة كل جمالها من رونق الصبا تضع يدها فوق كتف الأسد ، وتعدل ضفيرتها من وراء إلى صدرها لتلمس ثديها .

عرفها أولا من ثوبها الذى أقامت لشرائه القيامة . . إنها زوجته بعينها . دقق النظر فى الرجل فعرف بعد تلبث جاره الجزار الفاتح دكانه أمام باب البيت . ومما أطال تأمله أنه لم يره قط فى هذا الثوب غير الملطخ بالدم . . إنه يحتجزه للمواسم والأعياد والفنطزية .

لا أدرى ما الذى حدث بعد ذلك ؟ . . ولكن الشىء الذى لاريب فيه أنه لم يشتك للبوليس ، ومضى يروى نكبته لعموم الناس . . حتى فوجىء ذات يوم بإعلان من زوجته تطالبه أمام المحكمة الشرعية (هل لها عين فتمثل أمام قاضى الشريعة ؟) بدفع نفقة مسكن وملبس وطعام وأكدت أنها حُبْلى - فوق البيعة - عندئذ ثار الرجل لشرفه . لم يبق إلا أن تبتز هذه الفاجرة ماله ! . . فى أغلب قضايا الأعراض تتحول سريعاً

الكرامة المثلومة إلى نزاع مالى . . كأن الاستغفال فى المال أشد وقعاً على النفس .

نصحه سماسرة القضايا بأن لديهم حيلة تفسد حيلتهـا وفجرهـا . ماعليه إلا أن يرفع دعوى جنحة مباشرة لإثبات جريمة الزنا ، فإن الحكم بالإدانة يسقط النفقة وقد يسقط الولد أيضاً .

وجرجروه إلى المكتب ودخل علينا مشهرا الصورة يرفع بها ذراعه ، فتخاطفتها الأيدى حتى الكتبة والفراشين ، وأَمنَّا نحن على قول السماسرة ورفعنا الدعوى باسمه .

تعال نحتكم للمنطق . . إن خروج الزوجة مع عشيقها وذهابها إلى المصور نتيجة لخلوة داعرة من قبل لاشك فى ذلك . إن هذه الصورة هى عادة تسجيل لشىء حدث . ولكن قانون العقوبات لا يعترف - والحمد لله - بهذا المنطق . . إنه يتطلب لإثبات جريمة الزنا شروطا قاسية . . أن تُضبط متلبساً، أو أن تُضبط لك خطابات بخط يدك فيها ذكر صريح للعلاقة الاثمة ، أو أن تعترف طواعية واختياراً .

وإذ كانت الدعوى خاسرة فقد بعثنى الأستاذ للمرافعة فيها . . فقلت فى ختامها : إذا سمحنا لقانون العقوبات - وهو مستمد من منطق الناس - أن يعبث كما يشاء ويهوى بهذا المنطق فإنها مصيبة كبيرة لا نعرف عند أى حد تقف .

لا مصيبة ولا غيرها . . كان تعليق القاضى على هذه الفلسفة أن

حكم من فوره بالبـراءة ، وخسرت أول جنحـة ترافعت فيهـا . وخرج الزوج يقول لى :

- يخلصك كده ؟

لم أفهم هل يشير إلى زوجته أم إلى القاضى . غير أنه - لطيبة قلبه - لم يوجه إلىَّ كلمة لوم واحدة ، فأسرعت أبتعد عنه وأنا أقول له :

- لا تسكن مستقبلاً أمام جزار !

* * *

ليس فى ذهنى عن الإسكندرية ، ودمنهور ذكرى قضيـة كبيرة . لـو تركت لشأنى لبقيت حيث كنت وإن لم أفز بمجد أو بشهرة أو بمال عريض . فإن الخروج من مسلك أصعب بكثير من الدخول فيه . . ثم إننى أكون أضيق صدراً بالعزال والتبديل والتغيير ، ورحم الله المتنبى صاحب البيت الخالد :

خُـلقـت ألـوفـاً لـو رجـعـتُ إلى الـصِّـبـا
لـفـارقتُ شـيْبـى مُـوجَـعَ الـقـلب بـاكـيـاً

* * *

لم يمض على اشتغالى بالمحاماة أكثر من ثمانية شهور حتى بدأ القلق على مستقبلى يساور أهلى ، وبدأ تراب الميرى يملأ خياشيمهم ، فتعرَّضت لضغط شديد - خُوِّفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول - من أجل أن أرضى بوظيفة فى الحكومة . لم يجدوا لى - بعد الوساطات والشفاعات - إلا وظيفة معاون إدارة . وكانت وزارة الداخلية قد بدأت منذ عهد غير

بعيد تُطَعِّم وظـائف المديـرين بالقضـاة والمستشارين ، فـأدوا فى عملهم الجديد أجل الخدمات ، ورفعوا مكانة المنصب ومستواه (وهو الآن يعانى من حرمانه من هذا التطعيم) . . كما رَغَّبت حملة الليسانس - وقد أخذ عددهم يزداد - للعمل فى السلك الإدارى بأنها سوف تضعهم فى درجة يساوى مرتبها مرتب معاون النيابة . والناس تردد مثلا غريبا يقول «غضب الله على اثنين محضر محكمة ومعاون ادارة» ، وإن هذه الوظيفة أقل كرامة من وظيفة النيابة ، فلم أقبل المنصب إلا صاغراً مستسلماً . وقد عانيت فيه مشقة كبرى ، وامتحنت امتحاناً عسيراً عرفت فيـه الغم والهم والحسرة والألم .

ومع ذلك كان له أكبر الفضل فى أن أعرف بلادى وأهلهـا وأخالط الفلاحين عن قرب . وأعيش فى الحقول بين نباتها وحيوانها ، وآكل بصلها وسريسها ، بل إننى وجدت فيه سعادتى عندما أصبح الحمار يزاملنى طول النهار . . نعم وجدت سعادتى مع الحمـير . تسلّمت فى أول ينايـر سنة ١٩٢٧ عملى معاوناً للإدارة فى مركز منفلوط . . فإلى اللقاء هناك*

* («الجمهورية» ، ١٩٥٩/٥/١، ص ٥)

الباب الثالث

وجدت سعادتى . . مع الحمير !

حين نزلت الصعيد لم أفهم لأول وهلة قول محدثى عن رجل من الأعيان إنه «حمّار» - بميم مشددة . ظننت والكلام عن غائب قد تحول كالعادة من الأستفتاح بالمدح إلى التثنية بالذم والسب ، فلما تلجلجت فى الرد أردف يقول عن صاحبه : إنه أكبر مالك للحمير فى المركز وأن ربحه واسع مضمون .

أدركت أن كلمة «حمّار» هى عندهم ترجمة لكلمة مليونير . . وأنها عنوان صناعة من أهم الصناعات ، أحفادها فى الوقت الحاضر شركات النقل باللوريات .

لم تكن هذه الصناعة تعنى بنقل الناس ، فالفلاح يمشى وإن طلب مطية ركب حماره أو حمار جار ، له ظهره كله أو نصفه الخلفى ولا يركب بالأجر . أما الأفندية الموظفون فمن الضرائب المفروضة على العمدة أن

يوفر لهم حماراً سيره إما رخاء كبساط الريح وإما عذاب تفك قلقلته كل المفاصل . . حسب المقام وطمع العمدة فى راكبه ، أو يشتركون هم والغرباء فى ركوب عظام حمارين أو ثلاثة تقف بالمحطة ويرتزق منها رجل فقير ، يزيد دخله إذا تكفل أيضاً بتوصيل الخطابات والبرقيات إلى القرى ويسمى حينئذ بالطوّاف .

وإنما تعُنى هذه الصناعة بنقل محاصيل الحبوب . فهذه الأكوام المكدسة المتناثرة فى جنبات الوادى بين الجبلين من القمح والذرة والفول والشعير . . لا وسيلة لنقلها إلا بأكياس على ظهر الحمار ، حتى لتحسب أن الحمار قد مدُّ من عموده الفقرى شريطاً لسكة حديدية تجوس خلال القرى وتعبر المصارف والترع والوهاد بلا جسور ، من ينقلها غيره ؟

إن جسمه مفصل (على الضيق) فلا يضيع عند حمل الكيس فضل ، ظهره فى مستوى يد الإنسان ، خفة وزنه تعينه على هبوط الأخاديد وتسلق جوانبها ، له حافر دقيق - إذا قارنته بخف الجمل أو حافر الجاموسة (المبرطش) - يتشمم ويبصر المطبات ويختار من بينها مسلكاً ، فكأنما يمت للماعز بنسب .

يمشى على السن ويستند إلى شظية حجر ، حين تجف الأرض وتغطيها شبكة من الشقوق ترسم جزائر صغيرة فى حجم الكف ينخفض سطحها ويتكسر إذا ديست . . انظر إلى الحمار حينئذ كيف يتحسس طريقه ، يمرق من المآزق ويثبت عند المزالق ، قوائمه طوع أمره كالخيزران . له جلد على الجرى ، ويحفظ الطريق ، ينتظم فى القافلة لا يربكها . لا يعرف الجموح ولا يقفز خوفاً من خياله كالحصان الأسترالى الذى عرفته دورية المركز .

غلبان يبلع الإهانات ، بخس الثمن نادر الأمراض ، لا تنتفخ بطنه على ندى البرسيم كما يحدث للجاموس . لا يجر صاحبه إلى الترعة ، بل إذا طلب الاستحمام سار وحده ليتمرَّغ فى التراب .

***

عاشرت الحمار سنتين ، أركبه من مطلع الشمس لغروبها وكنت أول العهد به أطالب مع البردعة بلجام ورِكاب أوهم نفسى أننى من الفرسان ، والحقيقة أننى أتعلم الركوب ، أطلب اللجام لظنى أننى أتحكم به فى الحمار فكان تحكمه فىَّ أكثر ، والرِكاب لأمنع سماجة تدلدل القدمين على الجانبين ، وأتقى الانزلاق عن يمين أو شمال . ولكن كيف أفعل ؟

لابد لى أن أحمل مظلة وإلا انسلقت فى الشمس ، ومنشة من ليف النخيل وإلا انفلت منى عيار شفتى ولسانى وخدى وحاجبى ورمشى ومفصل رقبتى إن أردت ـ ويداى مشغولتان باللجام والمظلة ـ أن أطرد ذباباً لحوحاً كالشحاذين يرشق وجهى ويحط عليه ليتخذ منه ساحة للعبة (الاستغماية) . أما العصا فوزرها تركته لصبى يجرى ورائى . . بعد قليل تنازلت عن الركاب كبقية الناس .

نخرج من المدينة ونسير قليلا على جسر « الإبراهيمية » ثم نُعرِّج إلى سطح صليبة حوض ، وهى تل من تراب يتلوى وسط الغيطان كالثعبان ، يكون الجبل أمامنا تارة ، أو عن يميننا أو يسارنا تارة أخرى ، وكان رأسى يصيبه الدوار أول الأمر . من حوالينا غيطان متشابهة تمتد إلى مرمى البصر ، كأن صوتاً خفياً مرهوباً أمر الدنيا بالصمت ، حينئذ كنت أخلو إلى

صاحبى . لم أر كالحمار حيوانا تحس أنه أدرك أنه أُسقط فى يده ، أنه لم يقبل قدره عن عمى وغفلة أو تدليس عليه ، بل عن بصيرة وفهم بعد أن وازن بين حيلته وقدرة ظالمة ، وقاده ذكاؤه العملى إلى الاقتناع بأن كل أمل قد مات ، وأن لا فائدة ترجى من الثورة أو اللجاجة أو العناد ، فوضع إرادته وغرامه وبهجته ومرحه وحبه للعب والمعابثة فى حرز مكتوم فى قلبه ، وأحنى رأسه وأذنيه وسبَّل ضهره ، واستسلم بلا قيد ولا شرط .

قال لنفسه : « فلتحسبن أن الذى يعيش فى جلدك هو حمار غيرك ، ولتبق لى روحى لا يعلم بسرها إلا خالقى » . . . للبقرة عين غارقة فى أحلام لذيذة ، وللجمل عين ترقب الدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كأنما يخشى أن تلحق بكبريائه إهانة على يد حقراء ، وللحصان عين تنم عن الخيلاء والنبل والذكاء ، تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة ، وللتيس عين فيها العناد كله وإضمار الخبث والمؤامرات ، وللجاموسة عين منطفئة لا تنبعث منها حياة أو إرادة إلا وهى أم ترضع طفلها فينعقد سباتها على الحنان . لم أر جاموسة تنطق بمعنى إلا مرة واحدة لا أزال أذكرها ، كانت تسير تبرطش فى الطريق وتخلّف عنها وليدها . فوقفت وأدارت رأسها إلى الخلف ونادته إليها بخوار غليظ ، سأحدثك فيما بعد عن جاموسة تحتضر وتنظر إلى صاحبها وفى يده سكين . أما الحمار فإن عينه ذليلة حزينة ، تكاد تترقرق فيها الدموع . . . بل يُخيَّل إلىّ فى بعض الأحيان أنها (معمصة) كعيون الأطفال بعد بكاء ، أهذا هو سر نهيقه ؟ ليس فى صوت حيوان آخر مثل هذه الحُرْقة والتفجع والمرارة ، إنها صرخة عذاب واستغاثة وإشهاد للناس فى نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء ثم تذوب كأنها لم تكن .

أحس بمكنون طبعه حين أراه وحده من سائر الحيوان يعلن عن شبقه بلا حياء ، ويلاحق الأنثى فى الطريق علنا بإرادته ، لا ينتظر حتى يساق ذلولا إلى موعد غرام مرتب له من قبل .

ثم هو وحده يفعل هذه الفعلة . . إذا مر بنا جمل مُحمَّل بالبرسيم لا تثنيه قوة عن أن يطعنه بخطمه ، وقد كَشَّر عن أسنانه الغلاظ ونهش منه نهشة يتمثل فيها الغيظ والفوز بعد لأى باستخلاص حق مهضوم من يد غاشم سافل شحيح . إنه يعرف صاحبه ولكنه يتجاهله ، المفاوضات بينهما مقطوعة والود مفقود . لا يريد إلا أن يفرغ من امتهانة ليخلو إلى نفسه ، ناعسا مطأطىء الرأس مسكينا تحت سقيفة فى مدخل السوق ، إذا ربت على ظهره ورقبته أحسست كم هو طيب وديع وكم هو محتمل لذله بصبر واستسلام .

وراء منزلى خرابة لها سور خشبى غير مرتفع يطلق فيها أحد جيرانى حماره عند الغروب ، وكنت ألحظ كل ليلة حماراً ثانياً يأتى من بيت فى الطرف الآخر يسير الهوينى كأنه يتنزه ، ثم يقف جنب زميله وبعد معابثة خفيفة بالأسنان يمد الاثنان رأسيهما خارج الحاجز كما يفعل المطل من النوافذ ، ويلبثان هكذا برهة ينظران للطريق والمارة ثم يمضى كل منهما إلى حاصله .

حمار الأجرة

على المحطة حماران للإيجار ، غُششت أول الأمر فاخترت أكبرهما جثة ، حسبته أقوى على الجرى من زميله القزم الأغبر ، هو أبيض اللون ، على ساقيه وظهره لطخ من الحناء ، أذناه متدليتان على صدغيه كمقاصيص بنت البلد ، ولكنه لم يكد ينفلت من مرمى بصر المعلم بعد أن ودعه بطرقعة من لسانه على سقف حلقه «تشك» ، فيها تحذير وتنبيه لتقديم حساب عند العودة ، حتى نسي الدنيا ومشوارى وتهديد المعلم ، وأبى الا أن يسير كما يشاء هو ، كأنما يغرز قوائمه فى عجين ، عظمتا كتفه - فهو موتور من سلندرين - تعلو واحدة وتهبط أخرى وأنا أتأرجح فوقه . . كل ضربة عصا وراءها خطوة واحدة سريعة ثم تعود ريمة لعادتها القديمة ، استنفدت أنا والصبى كل ألفاظ وأصوات الحث على المشى حتى جف ريقنا ، بلا فائدة . أسلمت أمرى لله واعتمدت على يدى أضغط بها فوق البردعة لأخفف اهتزازى .

وأصبحت أتجنب هذا الحمار وأرفضه ، لأننى جربت بعد ذلك - وليس لى خيار فهما حماران لا ثالث لهما - الحمار القزم الأغبر الذى احتقرته أول يوم ، فوجدته ذلولا يقطع الأرض فى حركة لا أدرى لماذا تذكرنى بيد غسالة عفية تفردها وتطبقها على القماش فى الطشت فى حركة متشابهة . إياك أن تستهتر بالأقزام فى الحمير والناس . .

***

وذات يوم خرجت لأمر عاجل فلم أجد الا الحمار الأبيض . ياللوقعة

السوداء . . أين صاحبنا الأغبر ؟ إنه خرج فى مشوار ولن يعود إلا بعد الظهر ، ما العمل ؟ رضيت بقسمتى وركبته وأطلق المعلم ورائى صبياً جديداً لم أكن أعرفه ، دهشت حين وجدت الحمار يقفز لكل زقة من العصا خطوتين بدلا من واحدة . لم أفطن أول الأمر للسبب ، ولكن شيئاً فى قلبى أنزلنى عن الحمار وتناولت العصا فإذا بى أجد أن هذا الصبى قد ثبّت فيها مسمارا حادا ليغرزه فى لحم الحمار المتعب ، ثارت نفسى لهذه القسوة الحمقاء الغاشمة إلا أننى عجبت وأنا أقارن بين فعل الذل فى الحمار : لا يزيد عن مقاومة سلبية وفعلة فى هذا الصبى ، إنه يخاف أن يضربه المعلم إذا تأخر عن موعده المرسوم ، وكان خيراً له أن يسير الحمار هذه الخطوة البطيئة لئلا يلهث وراءه ويتصبّب عرقاً وله فىَّ شاهد يستغفر له ، ولكن الذل جعله يتطوع بالشر وإلحاق الأذى بالغير ولو إضرارا بنفسه ، وهكذا يصبح دائماً الصبى الأذل أشد قسوة من المعلم الظالم .

أخذت بعد ذلك أنتبه لجروح الحمير تحت البردعة وعلى السيقان ، وأعرف من عذاب الحمير هذه الذبابة اللعينة التى تعشش فى منخره فتخرجه عن حلمه ويكاد يجن ، والحمد لله أن ليس لذنب الحمار إذا قُطع منفعة ، والا تعرض لما يحدث للخيول فى الاسطبلات من إغارة اللصوص عليها بالليل يقطعون ذيولها بالموسى لينتفعوا بشعرها ، ولكن الحمار يعرف بالليل فى بعض القرى اعتداء أخس على يد بعض شبان مرضى تختلط فى قلوبهم الحماقة والبهيمية والكبت وحب العبث والاستهتار والمباهاة بالمخاطرة والجدعنة .

حرت كثيرا فى أمر هؤلاء الصبيان لا يزيد عمر الواحد عن السابعة أو الثامنة ، يجرى ورائى طول النهار ، لفلفة الصليبة قد تعينه على اختصار

بعض الطريق ، فما نكاد فى اتجاهنا غربا نصل إلى منعرج يسير بنا جنوباً شوطاً طويلاً ليرتد من جديد شمالاً إلى مكان لم يقربنا نحـو الغرب إلا مسافة قصيرة حتى يتركنى الصبى بلا استئذان وأراه يتدحرج (كالبلية) على الجسر ويشق الغيطان ويغيب عنى شبحـه ثم ألقاه جـالساً عـلى الأرض يترصدنى حيث تنتهى هذه اللفة الفارغة ليستأنف الجرى ورائى ، وإلى اللفة القادمة فيها فرج .

أتحدث اليه طول الطريق . نهم للمعرفة يتخفى تحت وهم التطوع كرما بتسليته لينسى بلاءه . ولعله يلعننى لتنشيف ريقه بالكلام أكثر مما هو ناشف من الجرى واللهثان . أغلب كلامى غير مفهوم له ، ومعظم ردوده مقتضبة لا أستخلص منها ماأريده الا بعد إلحاح واستفسـار . أذكر أننى هفوت مرة وقدمت للصبى قطعة من الشيكولاته ولكنه رفضهـا بشدة ، حسبته أول الأمر يتأبى حياء ، فإذا بى لشدة دهشتى وفزعى أجده يقول :

- جِسَّك تكون حاطط لى فيها حاجة . .

يـاخبر أبيض . . كنت أظن أننى اكتسبتـه كصديق فـاذا به يتهمنى بحيازة المخدرات أو لعله لا يستبعد علىَّ هتك الأعراض .

فى قلب الفلاح ريبة متأصلة من الغرباء ، وريبة أشد - فى ذلك العهد الأغبر قبل الثورة - اذا كان الغريب من طبقة الأفندية الموظفين - وسيأتى كلام عن هذا فيما بعد . أعود بالذاكرة إلى القاهرة وأسترجع صورة هذا القروى عند محطة الترام ، يتقدم إلىَّ بحذر وحياء وأدب يسألنى : هل يمر من هنا الترام الذاهب إلى «الإمام» ؟ فأجبته بكلام لا ألويه بل أضمنه كل ما فى قلبى من حنو :

- نعم ، يمر من هنا ، وقِفْ مكانك بجانبى سأرشدك إليه حين يأتى . يتخذ جسمه هيئة من اطمأن وسكن وانفرجت أساريره وبلع ريقه . ولكنه كاذب ومخادع ، بعد قليل يشيح عنى بوجهه ثم يتسحَّب ، جسمه متمسكن مضعضع كأنما يحمل أثقال الأرض كلها ، ويبتعد خطوتين ، ويختار رجلا آخر ، أسمعه يسأل بصوت خفيض حتى لا يبلغنى :

- هل الترام الذاهب إلى «الإمام» يمر من هنا ؟

أرجو أن يصدقنى القارىء إذا قلت له إنه لا يكتفى بشاهدين بل يذهب لثالث . كنت فى ذلك العهد أسأل نفسى : مامعنى هذه الظاهرة وما تفسيرها ؟ إنها شىء مخيف .

ويأتى الترام رقم ١٣ فلا يستطيع الرجل ركوبه لارتباكه بين الصاعدين والنازلين ولارتباكه الأشد بين الريب والشكوك .

هذا الصبى الذى يلاحقنى زحيرة ، لو سمحت نفسى الشحيحة لا ستأجرت له حمارا حتى تنجو أذنى من عذابها ، ولكن هيهات . . . لا لأننى أخشى اتهامى بالشذوذ والحمق ، بل لإحساسى بأن فعلتى ستكون بمثابة جنيه واضح التزييف يُعرض على أناس يتعاملون بالملاليم وأنه كلام فارغ وبذخ . . لو زرعت فى الأرض الجدباء عود وردة لاجتثته من فورها يد الإملاق . . إنه قذى للعين وخلل يزعزع الطمأنينة لعُرْف مألوف . وقد غلبنى الخجل ذات يوم فأردفت الصبى ورائى - قسوت على الحمار لأرحمه - فما كدت أدخل القهوة بعد عودتى عند المساء حتى وجدت الخبر قد ذاع فى المركز كله يتبادله الناس كأنه نكتة ، علا الضحك والقهقهة ، واستقبلنى المعارف والغرباء بابتسامة ساخرة . فكانت توبة نصوحا ،

والغريب أننى لم ألبث طويلا حتى ألفت أذنى سماع الزحير ، ولم أعد أبالى به . وصحب هذا التحول فى طبعى جرى لسانى لأول مرة فى حياتى بأقذع ألفاظ الفُحش والسباب كما سترى فيما بعد .

* * *

الحمير درجات

والحمار جعله الانسان على درجات، أدناها حمار السبخ ، لا يطلب منه أن يجرى ، بل له - إن قدر - أن يمشى كما يشاء ، فيمشى يربط عظامه بعضها إلى بعض خيط واه ، مشية أجرب يحك بيد خفية قروحا بعيدة على جسده لا يبلغها إلا بعد مشقة وتلو ، يجند لهذه السخرة حمير أشلّها الضعف أو الكبر أو السقم ، ودعت الدنيا لأنها لا تعيش إلا على هامشها . . منهوكة القوى عاجزة حتى عن الأنين ، لا ينطق منها حمار بمعنى واحد يدل على أنه حى . . فى بعض الأحيان يضع الصبى الفلاح وهو يسير بجانب الحمار ذراعه على كفله ، أظن أن هذه اللمسة - رغم ثقلها - هى صلته الوحيدة بعالم الشعور ، لا يجد فى غيرها إلفا أو شفاء من الوحدة والضياع .

والدرجة الثانية هى حمير الأجرة بالمحطة ، لا تعرف الراحة ، تعتصر قواها إلى آخر قطرة كما يستنزف دم الذبيحة ، يقاس طعامها بالدرهم بمقدار ما تبذله من جهد لا بمقدار جوعها ، هى أكثر الحمير إصابة بالجروح وبخاصة على سلسلة الظهر تحت البردعة ، فلا تشفع لها ، كل علاجها أن تكتم - حتى لا تتبين لأعين الغرباء - بدهان من الحناء أو الطفل ، هيهات

أن تخفى احمرار لهاة الجرح . فى حياتها معالم واضحة الصورة ، أولها (المعلم) وهى تعرفه وترهبه وتكرهه وتذل بين يديه وتفهم كلامه ، وإن زعمت أنها تجعل أذناً من طين وأذناً من عجين ، وثانى المعالم (صبى المعلم) يسترد معه الحمار بعض إرادته فإن أذاه لا يتضمن الإرهاب بل القسوة وحدها ، فلكل هجوم من الصبى دفاع معد من الحمار ، وقد رأيت الحمار ينتصر كثيراً على الصبى ويرغمه على الرضى بجهده المبذول لا يطالبه بمزيد هو قادر عليه .

وثالث المعالم هو الطريق ، فإنه ما يكاد يوضع فى أوله حتى يعلم إلى أين ينتهى ، وتحس من مشيته وحدها ما إذا كان المشوار طويلاً أو قصيراً .

لذلك كان حمار المحطة أكثر الحمير مكراً ، هو ابن سوق مُحنَّك بالتجارب ، له طبع ينفرد به عن غيره ، ويحدث كثيراً أن يطلق المعلم على الحمار اسماً - لا أدرى لماذا كان اسم (سماره) أحب الأسماء إليهم - وإنى أجزم عن خبرة - وان حسبتنى مخرفا - أن الحمار يعرف أنه صاحب الاسم ، وأنه يجد فيه - كما يجد فى طبعه ونوع مكره - مقومات استقلاله عن غيره .

ثم يأتى بعد ذلك حمار الفلاح . . ركوبته الخاصة ، وقد وجدته - رغم أنه يكون أحياناً ضخم الجثة - طيب القلب وديعاً فيه كثير من عباطة السذج لأنه يعيش - وان فى شظف - بين أحضان أسرة كواحد من أفرادها ، وإذا خرج عن دائرته بدا عليه شىء من الحيرة واحتاج إلى شىء من الوقت ليعرف ماذا يراد به وإلى أين يُقاد . إنه لا يحتاج من صاحبه إلى كثير من الزجر والحث ، بل يبذل له - طواعية - غاية جهده ، وهو قدر

حددته العادة ومألوف طبع صاحبه وصلح بينهما منذ قديم . وهذا سر اضطرابه أول الأمر إذا ركبه غريب .

على رأس القائمة حمير تعد من الطبقة الأرستقراطية ، لعلها أوشكت الآن على الانقراض فى الريف ، ولكننى لحقت فى ذلك العهد أواخر سلالتها ، يهيم بعض الأعيان أصحاب الأطيان من أجل راحته وإشباعاً لزهوه وتدليلاً على مكانته بأن يكون له حمار فاره قوى ، منتصب الرقبة مرفوع الرأس ، راقص الخطوة ، أكحل العينين ، له بردعة من جلد ثمين أو من قطيفة لها زينة كثيرة ، ولجام وركايب ، ويضن به الا على كبار الحكام ، أكله موفور وتعبه قليل ، إذا حمل صاحبه إلى المدينة أو انتظره على المحطة رمقته الأبصار ، وإن سار به إلى الغيط صدرت من فوقه الأوامر من تحت المظلة مؤيدة بعلو المقام .

ينبغى أن أعترف لك بأن هذا الأرستقراطى لم يثر انتباهى إليه كثيراً . . أعلم أنه سعيد بلحمه وشحمه . . والسعادة وإن كانت مطلبنا الأسمى إلا أنها ـ على خلاف الشقاء ـ قضية واضحة ليس لها ظاهر وباطن ، إن نكشت فيها لم تخرج بسر أو عجيبة ، ومن دواعى الحيرة أنها لا تباع إلا بثمن واحد . . هو التفاهة . .

***

مدرسة الحمير

ولكن لا تحسبن أن هذا الحمار الأرستقراطى يولد هكذا ، فإنه حينئذ

لا يختلف عن بقية أطفال الحمير . . شعرها لا يزال زغباً ناعماً ، لها شوشة منفوشة فوق جبهتها ، كأنها حملان كبيرة ، ضخامة الرأس اذا قيست إلى البدن علامة هذه الطفولة وكأنها تعدنا بعقل جبار ، وستُصحح النسبة عند البلوغ ، حياتها قفز ولهو ولعب . . المفاصل مركبة على صواميل لا تزال لينة فالخطوة فوضى ، ستفسد فيها بعد ما فرط من الحرية وتتخشّب ويصبح الظهر لراكبه من ألعاب العذاب فى لونابارك . . حينئذ ينبغى إنقاذ ابن الأكابر من هذا الخطر الداهم ، آن الأوان لإرساله للمدرسة لتعلم المشى ، لا المشى الذى يريده هو ، بل المشى الذى يريده له الإنسان .

نعم . . وجدت للحمير مدرسة عجيبة يديرها رجل فى إحدى القرى اسمه الشيخ شعبان ويجعل منها أكبر مورد لرزقه . .

وهى مدرسة مختلطة ، من تلامذتها الخيول ، التى يطلب أصحابها أن تمشى مشية الرهوان ، وأغنياء الفلاحين مغرمون بهذه المشية غراماً شديداً ويرونها ليس مثلها علامة على الأناقة والصبونة ، وهى مشية تحتاج إلى تعليم طويل ، وتدريب أطول لا يحسنه الا المتخصصون أمثال الشيخ شعبان .

ومن تلامذتها الحمير الأرستقراطية يطلب منها أن تكف عن الفوضى واختلاف حركة كل مفصل عن الآخر ، وأن تعرف أن المشى كالرقص له أصوله وقواعده ، حتى يصبح الظهر كالبحر الهادىء لا الهائج ، وهذه مشية تحتاج أيضاً الى معلم صبور . .

وهى مدرسة خارجية داخلية . . فى القسم الخارجى تلاميذ الجيران ، يأتى الرجل بالتلميذ كل صباح ثم يتسلمه عند الغروب ، حتى

لا يدخل فى أجر الشيخ شعبان حساب وجبة العشاء . . وتلاميذ القسم الداخلى يأتون من بعيد مع كل تلميذ زاده وزواده : كيسان أو ثلاثة من الفول والتبن ، وينصرف صاحبه ليبقى التلميذ بالمدرسة إلى أن ينال الشهادة .

وقد حضرت أول قدوم لبعض تلاميذ القسم الداخلى إلى المدرسة ، وانتبهت إلى الحمار حين ينتقل من يد يعرفها لا يوجس منها شراً إلى يد جديدة تنم هى وصوت صاحبها عن جد لا يعرف الهزل ، انتهى عهد السرمحة ياحبيبى . . أرجو أن يصدقنى القارىء اذا قلت لـه إننى رأيت التلميذ يستخذى ويلزم أدبا فيه الكثير من الحزن حين يخلو إلى الشيخ شعبان بعد أن يودعه صاحبه ويغيب عنه*.

والشيخ شعبان رجل مُتَّئد الحركة ، وقور ، خفيض الصوت ، لكلامه غُنَّة لذيذة ، متعطر متكحل متأنق ، يلبس العمامة والجبة والقفطان - فهو ناظر مدرسة - ما أحوجه لبنطلون . . ولكن هيهات ! فهذا لبس الكفرة فهو حرام - وهو فوق ذلك مهزأة . له كفان مبسوطتان غير مطخطختين ، وأصابعه سرحه طويلة ، يزُيِّن بنصره الأيمن خاتم من فضة له فص كبير من العقيق فى لون الدم ، موصوف له فى طالعه ، له عثنون كأنما انتزعه من صورة لجحا .

كنت أرى شبحه من بعيد على الأفق فوق الجسور ، مقوس الظهر فوق دابته فأحسبه - بفضل عثنونه - من طلائع غارة جديدة لجحافل

* («الجمهورية» ، ١٩٥٩/٥/٨ ، ص ٣)

التـتر ، فى يده سـوط لا يستعمله إلا نادرا ، هـو لـلإشـارة والتنبيـه لا للضرب ، فإن أدواته الأولى هى ركبتاه ، يطبق بهما على ظهر دابته ككسارة اللوز والجوز ، ولكزات خفيفة من كعبه ، وألفاظ قليلة متقطعة ، فيها رقة النصح والإرشاد ورهبة التهديد معاً . والتلميذ من تحته صاغر فـاهم ، يخطىء ويصيب فيصبر عليه الشيخ شعبان مرة وأخرى .

ويعود إلىّ الشيخ شعبان ونجلس أمام البيت نشـرب القرفـة ، إذا وصلت إلى خياشيمى رائحتها الذكية المنبعثة من معابد الشرق البعيد ، لا أدرى لماذا كان يخيل إلىّ أن الرجل يذكرنى بقائد حلقة الذكر . وأسـأل نفسى بعد مر السنين الطوال وأنا أكتب هذه السطور : هل السر فى عمامته وجبته وقفطانه أم فى عثنونه أم لعله تشابه الوظيفتين فى تحويل حركة من الفوضى إلى الانتظام ؟ لقد ذلل الشيخ شعبان مشية الصفوة من خيول المركز وحميـره ، والآن شكيمتها ، وعلّمهـا الأدب ، وأبرأهـا من العناد والزبلحة .

قابلته ذات يوم فى المركز فرأيته مهموماً مُقطِّب الوجه ، وأخبرنى أنه ذاهب للمحكمة الشرعية فلما سألته : «خير إن شاء الله ؟» أجابنى :

- إنى رافع قضية إسقاط نفقة زوجتى فقد نَفَّذت عليها حكم الطاعة ثلاث مرات وفى كل مرة تهرب ناشزة إلى بيت أهلها .

حمير القاهرة

وكما لحقت أواخر سلالة الحمير الأرستقراطية فى الصعيد لحقت أيضاً - وأنا صبى صغير - أواخر عهد الحمير فى القاهرة بين شعبية وأرستقراطية .

حكيمة القسم فى حيِّنا - حى الخليفة - سيدة عجفاء لم أر وجهها فهى مُقنَّعة - كعصابة «كلو كلوكس كلان» - تلبس (لا أدرى لماذا) حبرة بيضاء كأنما فصلتها من ملاية سرير ، تخترق الدروب والحوارى ممتطية حماراً ، وبجانبها رجل يسندها بوضع ذراعه وراءها . .

لكثير من الناس الموسرين تحت بيوتهم اصطبل فيه حمار حصاوى ، لا تزال تزن فى أذنى نداءات باعة البرسيم «ربع غزالك» والمفهوم من هذا هو وصف البائع المهذب لحمير هؤلاء السادة ، فمن الذى لا يشترى منه .

فى شوارع القاهرة وميادنيها لافتات مثبتة على أعمدة مكتوب عليها بخط أبيض جميل على رُقعة زرقاء «موقف لثلاثة حمير» ، أو أربعة أو ستة حسب اشتداد حركة النقل فى هذا المكان . أذكر من بينها بوضوح لافتة على سور حديقة الأزبكية أمام مدخل فندق الكونتنتال . وسبب ذِكْرى لها للآن أنها كانت مكتوبة هكذا «موقف لثلاثة حيمر» الياء قبل الميم - لعل مرجع هذه الغلطة الفريدة أن مدير البلدية كان خواجة . .

وكنت من زبائن موقف الحمير فى العتبة الخضراء . بجانب سقيفته

الخشبية الشرقية ، يجلس تحتها صف من ماسحى الأحذية أمام صناديق كبيرة مزينة بالنحاس الأصفر ، أصحابها من الطليان والأروام - لا عجب فقد كان بناء المحكمة المختلطة يقوم وسط الميدان - وكنت إذا خرجت من سينما أوليمبيا «أيام ماشيست العظيم» أركب من هذا الموقف حماراً ليوصلنى إلى آخر شارع محمد على عند ميدان الرفاعى ، أفعل هذا لا للتعب بل للهو وحين يبقى معى قرش واحد .

أما الحمير القاهرية الأرستقراطية فأراها حين أذهب إلى مسجد السيدة نفيسة أو السيدة سكينة ليلة الحضرة ، يتوافد علينا واحد بعد آخر - كأنهم المماليك فى استعراض - رجال من أولاد البلد يَخُبُّون فى الشاهانى وشيلان الكشمير ، على حمير فارهة قوية تمشى مشية الراهوان ، تزيد عن حمير الريف الأرستقراطية بأن شعرها مقصوص فى رسوم زخرفية ، وعلاوة على البردعة الفخمة ، يتحلى الحمار برشمة فضية براقة تهتز فوق صدره ، لبعضها أحجبة تقيه شر العين ، لجامها مشدود ، شكيمته تكاد تمزِّق شدقىْ الحمار ، وينسكب منها رغوة بيضاء متماسكة كغزل البنات ، يخيل إلى أنهم كانوا يقيسون أصالة الحمار بمقدار طول هذه الرغوة ووفرتها ، ومع ذلك فإن نفسى تعافها ، وأعجب كيف رضى ابن البلد - وهوصاحب ذوق رقيق - بهذا المنظر السمج ، ثم يتخذ كل منهم مكانه فى القهوة وحماره أمامه . . ويدخن الجوزة وينفخ الدخان من فمه وطاقتى أنفه إلى خشم الحمار ، فأراه ينشقه بلذة كبرى ، كالعتاة من أصحاب الكيف ، كنت وأنا صبى أحسد الحمار على هذه المتعة المحرمة على ، ولعل هذا هو السر فى أننى حين كبرت أصبحت من غلاة المدخنين . وكانت تقوم فى بعض

الأحيان معارك لفظية قد تصل إلى حد التضارب إذا استهان واحد من أولاد البلد بفضائل حمار منافسه .

عشنا ورأيناهم يركبون الموتوسيكل والحرمة فى السيدكار . .

***

لصوص الحمير

يصادفنى فى القصص الغربية - وبخاصة فى الأدب الروسى - ذكر لأناس من عجائب الخلق يطلق عليهم « لصوص الخيول» ويوضعون فى أحط دركات البشرية ، ثم لا أجد لهم وصفاً يشفى غليلى ، لعل السبب أن حياتهم تمضى فى الهرب والتخفى .

وعرفت فى الصعيد أيضاً حين نزلته عصابات لا لخطف الخيل - فهى قليلة وفى حراسة شديدة - بل لخطف الحمير ، لا من البيوت ، فهذه مجازفة لا تساوى غنيمة بخسة الثمن ، بل فى الأسواق يوم انعقادها حين يستأمن الفلاح لحماره مربطاً غير مأمون ، أو حين ينشغل بالبيع والشراء وسط الزحمة وتخونه يده فتظل من وراء ظهره توهمه أنها قابضة على الحبل بعد أن يكون قد انفلت منها ، وُتؤلف هذه العصابات من عدد من الأفراد يوزع عليهم العمل ، والذى يسرق الحمار - يحوط عليه بعض زملائه - يسلمه من فوره لثان فيجرى به إلى ثالث يخرج به من البلد مسرعاً ليُطَوِّحه إلى مكان قصى يختبىء فيه زمناً ثم يساق منه بعد ذلك إلى مديرية أخرى

ليباع فيها . . فانظر ما يحتاجه هذا العمل من تنظيم دقيق . . والله وحده يعلم كيف يُقسَّم الثمن بين الجميع .

إن جريمة خطف الحمير هى وسط بين النشل والسرقة ، وقد عهد إلىَّ ذات يوم أن أحقِّق فى قضية تنازع رجلين على حمار ، كان الأول يسير فى سوق القرية فإذا به يهجم على رجل آخر ليس من أبناء المديرية ويمسك بخناقة ويتهمه بأن حماره مسروق منه هو . . . يقسم أغلظ الأيمان . والثانى يقسم بأيمان أغلظ أن التهمة كاذبة وأنه يصح فى الحمير كما يصح فى الناس أن يخلق من الشبه أربعين .

قمت من المركز ومعى المتخاصمان والحمار حتى بلغنا قرية الأول ووقفنا على مشارفها من بعيد ، ثم أطلقنا الحمار فجرى واختار من الدروب اليمين ثم اليسار ثم مرق بين منازل القرية لا يتريث حتى دخل جرياً بيت الرجل يكاد يحطم الباب بنطحة من رأسه ، وكان قد مضى على السرقة أكثر من سنة . هل بعد هذا دليل ؟

شاهد الإثبات الوحيد هو الحمار نفسه ، ولكن هيهات أن نسوقه ليقف أمام القاضى ، فلا مفر من أن أذهب أنا للمحكمة وأقول لها : أنا شاهد حاضر عن الحمار ياأفندم !

* * *

نكت الحمَّارة

حتى النكات التى كنتَ أسمعها وأنا صبى لم تكن تخلو من ذكر للحمَّارة والحمير . . فالنكات من أصدق علامات الزمن ، وهى تدل على

أن الحمّارة كانوا قوماً معروفين بخفة الدم وحب المداعبة . أبقاها فى ذاكرتى نادرة تروى عن الشيخ على الليثى الشاعر الفكة نديم الخديو توفيق ، وكان الأثرياء يتخاطفونه ويحبسه كل واحد منهم فى داره أياماً ليستمتع به فلا يغادره إلا تلقفه ثرى آخر وهكذا . كان يقطع صحراء حلوان على ظهر حمار متنقلا من مضيف إلى مضيف ، فأخذ يناجى سائق الحمار ويقول له :

- أتعرف إلى أى شىء تهفو نفسى الآن ، لقد شبعت من اللحوم والديوك حتى أصبحت لا أطيقها . . من لى بأكلة عدس وبصل أخضر تحرّش معدتى . .

لكز الرجل الحمار وقال :

- ياشيخ على ! المسألة سهلة ، اذهب إلى بيتكم ولو مرة واحدة فهذا أكلكم يوماً بعد يوم . .

***

السرك وحماره

لم يبق فى جعبتى من أصدقائى الحمير الا حمار واحد . هو أشدها ذكاء وأخفها دما وأكثرها إلفا بالإنسان . . «حمار السيرك» ، وهو سلالة متطورة من حمار الحاوى ، كان يدخل حارتنا وينعقد الناس من حوله فإذا قال له صاحبه :

- اختر لك عروسة . . وقف الحمار ، بعد أن يدور دورة كاملة ، أمام فتاة جميلة وأبى رغم الضرب أن يتحول عنها ، والغريب أن الفتاة

تخجل وتسر لهذه الشهادة ! وإن سأله «أين حماتك ؟» وقف أمام عجوز لحظة ثم مضى هارباً لاينصت لأمر صاحبه بالتريث عندها ولو قليلاً . لقد اختفى حمار الحاوى من دروب القاهرة .

وقد كنت منذ صغرى من هواة السيرك أسعى إليه عند سيدنا الحسين أيام الاحتفال بمولده ، لايتم السيرك الا باستعراض للخيول المدربة . ويكون به أحياناً أسد شيخ هزيل يكاد يقع من طوله ، لفرط الإعياء ينطق كل جسمه بأن أمله الوحيد فيما بقى له من حياة أن يظفر يوماً بماشطة وبَلاَّنة ، أين منه أسد مترو جولدين ماير ، لاينقصه الا أن تُعلَّق فى رقبته الجلاجل وتعقد على جبهته فيونكة من حرير .

وكان سيرك سيدنا الحسين يضم أيضاً - إثباتاً لمصريته وشعبيته - حماراً يخرج إلى الساحة منطلقاً كالرصاصة ، وينزل إليه عدد من الرجال يتراقصون أمامه ويخايلونه ، فيجرى وراءهم ويلاحقهم وهم يفرُّون أمامه يحاول أن ينطح واحداً منهم برأسه أو يصرع آخر بشلوت من ساقيه معاً . لا يدلُّه أحد - كما فى الخيل والكلاب المدربة - ماذا ينبغى أن يفعل . إنه يحفظ دوره ويعلم أنه يلعب ، ويتأجج نشاطه كلما علا الضحك والتصفيق من حوله . وتنتهى «النمرة» بتغلب الحمار على منازليه جميعا ، فهم يتواثبون واحداً بعد آخر من فوق السور ويلوذون بالمتفرجين ، فإذا خلت الساحة له كف عن جموحه ودار أمامنا يستعرض بطولته وخُيلاءه ثم انطلق خارجاً كالرصاصة كما دخل .

من حسن الحظ أن السيرك كان يحطُّ رحاله فى منفلوط وهو فى طريقه نازلاً إلى مولد السيد عبد الرحيم القنائى . إذا دخل البلد انتشر خبره فى

المركز كله وجاءه الفلاحون من أقاصى القرى ، يتكدسون بعضهم لصق بعض ، غابت أجسادهم فى تشابه ملبسهم وبقيت أعناقهم مشرئبة وعيونهم مثبتة على ساحة السيرك . الكفان موضوعان - فنحن فى الشتاء - خِلف خِلاف تحت الإبطين ، ظهورهم محنية إلى الأمام ، أما أنا فأجلس فى « بنوار » كتب عليه إصبع تلميذ مبتدىء بدهان أحمر «بوليص» إعلاناً أن شاغله - مع الاحترام وحفظ المقام - قد دخل سفلقة وبقوة السلاح !

من سحر السيرك يجلس الناس فى حلقة كأنهم أسرة واحدة مجتمعة فى مندرة أو فى دوار العمدة ، وجوه بعضهم فى وجوه بعض ، ما أسرع الفلاحين للضحك والمرح وما أسرعهم أيضاً إلى الدهشة والتعجب حين يرون فتاة صغيرة عفريتة تنقلب أمامهم على أربع ظهرا لبطن وتتداخل وتدور كالرحى ويبرز وجهها كأنما تطل به من بين قوائم طاقة فى بدروم جسدها ، فأنت أصبحت لا تدرى أين الساقان وأين الذراعان . إعجابهم بها لا يخلو من إشفاق وترحُّم ، ولكن اللحظة الحرجة - مع استئذان يوسف إدريس ! - تأتى حين تتقدم أختها الكبرى فتعلو قمة هرم ملخلخ من قوائم خشبية مرفوعة بعضها فوق بعض لايُحكِم رصَّها إلا قطع صغيرة من الورق تُدَسُّ بينها ، ثم وهى فى هذا المكان المهول تقوم بحركات لو زلَّت فيها زلة واحدة لهوت صريعة إلى الأرض . يقول لهم صاحب السيرك حينئذ «ياجماعة اللعبة خطيرة ، الزموا الصمت وادعوا الله فى سرِّكم !» فلا تسمع فى السيرك كله نأمة واحدة . فإذا بلغت الفتاة غاية الخطر ارتفع صوت الرجل يقول «وحدوه» فتنطلق فى أرجاء الخيمة تجلجل كالرعد شهقة عالية « لا إله الا الله»!» تكادجباههم تتفصَّد عرقاً من شدة معاناة الوجل . .

ثم هذا مغن يقلد الشيخ سلامه حجازى كما تقلده اسطوانة له ممسوحة ، وهذه مسرحية من فصل واحد فيها ملك ووزير ميمنة ووزير ميسرة تردنا إلى بغداد أيام الرشيد ويحيى البرمكى ، ولكننا لانرى زبيدة ولا أبانواس . . إنزال الستار ورفعها ينوب عنه فرش ولم لبساط قديم حائل ، لو كنت من أذكى الناس لما عرفت ماذا كان لونه ، يثير فى الحالتين سحابة من الغبار ، ولكن لابأس إنه شىء هينٌ إذا قيس إلى الروائح من روث الخيول وعفونة الأسد المصور ، ثم يأتى دور الرقص . .

إن الفلاح لا يعرف شيئاً عن بهجه الأنثى،حتى الغوازى - وهن قلائل - يرقصن فى لباس يغطى أجسادهن إلى الكعبين . . لاغرو أن كانت هذه الراقصة أحب شىء لديهم ، إذا دارت عليهم بالطبق . وجدت من بين هؤلاء الفلاحين من يدفع لها القرش كأنما هى التى تُحسِن عليه بتناوله منه ، لم تكن السينما قد انتشرت بعد فنقلت الكباريه إلى بيوت القش والطين .

مع هذا السيرك الذى وصل منفلوط رجل من أهل الصين - متى خرج من بلاده وأين ينتهي مطافه وكيف حطَّ رحاله بهذا السيرك ؟ ! الله أعلم - يرقد على ظهره ويُهشِّك برميلاً كبيراً بقدمين تشبهان قدمى الأطفال . .

ولكن أعجب شىء هذه الموسيقى التى تنبعث من أبواق مشروخة مخرخشة ، ومع ذلك تنفذ إلى قلوبنا وتهزنا كأنها من أشجى الألحان وأعذبها ، لم يكن الميكرفون - والعياذ بالله - قد دهمنا بعد . .

فى السيرك حمار يقوم بلعبة أخرى غير التى رأيتها فى القاهرة فهو يخرج للساحة ومعه رجل واحد ويدور بينهما صراع ، يحاول كل منهما أن يُوقع صاحبه على الأرض . . وتنتهى اللعبة - كما فى القاهرة - بانتصار الحمار .

ولم أر فى أوربا سيركاً واحداً يضم برنامجه لعبة الحمار . . فهى من الأمجاد الخاصة بالسيرك المصرى وحده .

ولكن بهجة السيرك أصبحت عندى يخالطها فى قلبى شىء من الضيق والحرج . . لم أنتبه لما يجرى وراء الستار الا يوم دخلت على قرداتى يعرض ألعابه فى خيمة فى معرض شعبى عام مقام فى أرض الجمعية الزارعية ، وجدت قرداً صغير السن مختبئاً فى ركن تسيل الدماء غزيرة من شدقيه لم أر فى حياتى مثله ينطق بالذعر والألم والعذاب .

سألت صاحبه عن السبب فلم يتلكَّأ فى الإجابة ، بل سارع إلى رواية الخبر بلا خجل كأنه يزهو بقوته وحيلته وبطشه ، هذا قرد ماكر لئيم لاينصاع لأوامره . . أجاعه وضربه بالعصا فلم ينصلح ، وبلغ من سوء أدبه أن عضه ذلك اليوم فى يده ، فأقسم أن يلقِّنه درساً لا ينساه وأن يجرِّده من سلاحه . فأمسك بالقرد الصغير وتناول حجراً أخذ يهوى به على خطمه حتى هشم له جميع أسنانه . . هو واثق أنه سيصبح بعد ذلك فى يده ذلولاً لا يعصى له أمراً . وسمعت - ولم أشهد بعينى وإن كنت لا أستبعد الخبر - أن الدرس الأخير للقرد أن يدخل عليه صاحبه يمسك فى يد جَرْوا وفى يد سكيناً ، ثم يصدر للجرو أمراً فلا يطيعه ، فيتناوله ويقطع رأسه بالسكين أمام القرد ويقول له «هذا جزاؤك إن عصيت !»

أغلب حيوان السيرك يعانى عذاباً تختلف درجاته وكلها تؤدى ألعابها فى قبضة الإرهاب ، لو دققت النظر تبينت آثاره عليها . إرهاب يبلغ حد إبطال الغريزة ، كما نشاهد الحصان يرضى أن يعلو الأسد ظهره ويجرى ، أو يرقد على الأرض ويخطو الفيل من فوقه .

ولا ينفرد الحيوان وحده بهذا العذاب ، فقد روت لى بهلوانة من أسرة معروفة فى عالم السيرك عندنا أنها لم تتعلم ألعابها وهى طفلة صغيرة الا بعد أن ضربها المعلم ضرباً مؤذياً ملاحقاً لاتزال« توحوح» منه إلى اليوم . . والغريب أن المعلم هو أبوها !

***

يسرح ذهنى فأذكر كيف أقف وأنا صبى بجانب حوض المياه فى ميدان القلعة أرقب الخيل والحمير وهى تشرب . .

أقدمت مسرعة كأنها تعرف المكان تحنى رأسها وتعب من الماء ثم ترفعه وتسكن برهة وقطرات الماء تتساقط من خشمها فلا أدرى لماذا يرق لها قلبى ، وتنبعث من عينيها نظرة غائمة كأنما أصابها الارتواء المفاجىء ، بعد العطش الشديد ، بدوار خفيف . . يرتعش جلدها على البطن أو الساق وتهز ذيلها وتحنى رأسها مرة أقل زمناً ومرة سريعة كسلام الوداع ، ثم تمضى متثاقلة للعناء من جديد . أمشى بجانب عربات الدبش تسحرنى عجلاتها الضخمة تتمايل وتقعقع وتأكل الطريق أكل الأهتم ، دحديرة القلعة امتحان لعربات مثقلة بأحمال لاتعرف الرحمة ، فيقف الحصان كأنه تمثال مصبوب لم تنبض فيه حياة أصيب فجأة بالعمى والصمم والخرس ، فهو لايبالى بشىء من الضجة التى تقوم حوله كأنه ارتفع فجأة فهو تمثال جامد فوق قاعدة عالية ، يدفع صاحبه العربة من خلف بكتفه وقد قصرت ساق عن ساق مغروزة فى الأرض ، أو يستدير للطريق ويعلق كل وزنه وقوة قبضته تشد عارضة العجلة إلى الأمام فيتزحلق حتى يكاد يرقد على الأرض ليحركها من مأزقها ، وقد ينهال بالسوط أو العصا على دابته فكأنه

يضرب ميتاً لولا إطباقه وفتحه لجفنيه . ينشب الحصان سنى حافريه الأمامين فى الأرض ، ويتقوس ظهره وتتحرك رقبته حركة تذكرنى بعمل المضخة . . أمرنا لله . . ولكن الفرحة الكبرى لنا حين يقع حصان العربة الحنطور على الأرض ، إنه أطبق عينيه . لو تُرك مكانه لنام إلى آخر النهار ، تختلط القوائم والعريش واللجام فى كوم واحد كأنه حطام . يتجمع الناس وتكثر الآراء والنصائح ، ثم إذا وقف الحصان على قوائمه أحسسنا أنه يُبعث من قبره . .

يبرز لذاكرتى من هذه اللوحة التى رسمت لك معالمها شبح امرأة أجنبية تلبس لبس الملكة فيكتوريا - مظلة وقبعة مستديرة واسعة ينحدر منها شرشف من الموسلين ، وحذاء رجالى بكعب واطىء - تهل من بعيد فيصاب سائقو العربات بذعر . . تكشف الجروح وتتدبَّر الأحمال ، وتُحيل القساة المذنبين والحيوان المسكين إلى القسم . . هذه هى مندوبة جمعية الرفق بالحيوان .

لقد اختفى الآن حوض مياه شرب الحيوان من ميادين القاهرة ، وإذا كان عدد الحيوان قد قلَّ كثيراً الا أننى لا أعرف هل الحاجة إليها قد انقطعت أم لا . . ولكنى لاأزال أطمع أن تطلع علينا بين الحين والآخر فى شوارع القاهرة سيدة مصرية تحوطها الهيبة لها عين فاحصة وكلمة عادلة لاتقبل الجدل اذا سألنا عنها قيل لنا : هذه مندوبة جمعية الرفق بالحيوان .

أما العذاب النفسانى الذى وصفته لك بمناسبة الكلام عن السيرك ، فلن نصل إلى كشفه أو علاجه ، يكفى أن تحس به القلوب ، وأن تشمل

ضحاياه فى دعواتها حين تسأل خالقها جناحاً من رحمته للمعذبين فى الأرض .

* * *

الطبيب البيطرى

على ذكر جروح الحمير وعلاجها لم أجد فى منفلوط وزمامها الشاسع إلا طبيباً بيطرياً واحداً ، هو طبيب المركز الذى لولا مرتبه لمات جوعاً . . لم أر خلال سنتين ولو مرة واحدة فلاحاً غنياً أو فقيراً يقصده لعلاج حيوان له ، لا جاموسة ولا جمل ولا حصان ولا حمار ، فلا تتصور أن يقصده لوقاية دجاجة من الخُنَّاق ، أو لحقنة ضد الكوليرا . .

فالفلاح متمسك بوصفات بلدية لا يؤمن إلا بها ، ويراها رغم إخفاقها بين يديه مراراً كثيرة تُغنيه . تَصدُّه عن الطبيب البيطرى ريبة مزدوجة : ريبة من ضرر علاجه ، وريبة أخرى أشد كما سترى فيما بعد ، من الموظف الأفندى الغريب الذى يُطبِّق عليه قوانين لايفهمها ، إنه قد يصادر لحم الجاموسة إذا نفقت عنده ، ومع ذلك إذا ماتت الجاموسة ذُرفت عليها الدموع ولُطمت الخدود وتعالت الصيحات وأُقيمت لها مناحة كبيرة . . وتقبَّل صاحبها العزاء من الأهل والجيران ، ولولا الحياء للبس عليها السواد . .

لاأنسى يوماً مررت على فلاح قد جلس أمام داره جلسة تنبىء بالألم والضياع ، يجلسها أحياناً أمام حلاق الصحة حين يبتلى بصداع لا ينفع فيه

الأفيـون ، فيسأل الحـلاق أن يُشرِّط صـدغيـه بـالمـوسى ليفصـد الـدم الفاسد . . ترقد أمامه على الأرض جاموسته فى النزع الأخير . . بين عينيها ويد الرجل سكين كبير ، كلاهما ينظر إليه ، هذه كأنما ترجوه أن يحزم أمره وينقذها من عذابها . استسلمت ، أدركت أنها تموت ورضيت بالذبح من يد صاحبها . وهذا لا يفقد أملاً مادام نفسها لايزال يتردد فى حلقومها . . إن يده لن تتناول السكين الا قبيل لحظة طلوع الروح بثوان قليلة لتكون الطعنة له ولها واحدة .

ثم ينبغى العثور على القصَّاب الذى يقبل شراء لحمها ، وقد يكون غائباً فى قرية أخرى ، ولا مفر من قبول الثمن البخس الذى يجود به .

يُعلَّق لحمها فى السوق ويتناثر فى القدور ، وقد ينتهى الأمر إلى المركز إذا أصيب بعض الأطفال بتسمم . وقد لاحظت أن المصابـات فى هذه الحوادث أكثر من المصابين ، لأن الفلاحة تأكل نصف اللحم من القدر من قبل أن تتم الطبخة بدعوى أنها تريد أن تعرف هل نضج اللحم أم لم ينضج بعد .

ويبقى للطبيب البيطرى الإشراف على سلخانة البلدية ، والمرور على الأسواق ، وتصيُّد الكلاب الضالة . يتسلم من الوزارة قـدراً محدداً من الاستراكنين فيجعل معاونه - وهو من عساكر المركز - يعجنه أمامه فى بقايا من لحم على هيئة أصـابع الكفتـة ، ويخرج بهـا المعاون ليجـوس خلال القرى ، وعليه أن يعود من رحلته ومعـه عدد ممـاثل من أطـراف ذيول مقطوعة للكلاب التى أعدمها ، إثباتاً لأدائه لمهمتـه . . إذمن واجبه إذا ألقى السم للكلب أن ينتظر أمامه حتى يموت ويقطع علامة من ذيله .

يأتى الينا هذا العسكرى فى المساء ونحن جلوس فى القهوة ، فى يده كوز من الصفيح صدىء قذر فى قعره أطراف ذيول غارقة فى الدم . فيُلقى عليها الطبيب نظرة سريعة متأففة ويقول : «كويس» . . يضرب العسكرى سلاماً وينصرف .

لا أدرى ماذا دار بخَلَد الطبيب البيطرى ، لعله لحظ على العسكرى دلائل شبع ورى . . فإذا به يتغلب ذات مساء على تأففه ويطيل النظر إلى قاع الكوز . . ليس هذا الشعر شعر كلاب . . أحدَّ بصره فإذا به يتبين بأنها ذيول ماعز . .

سرق المعاون السم ليبيعه للفلاحين الذين ينتقمون من خصومهم بفعلة دنيئة ليست بعدها خسة . . يثقبون كالح الذرة ويملأونه بالسم ويلقونه أمام جاموس عدوهم . .*

* («الجمهورية» ، ١٩٥٩/٥/٢٢ ، ص٣)

الباب الرابع
الصعيـــد

لا أستطيع أن أتبين شعورى حين علمت أننى مهاجـر لأقيم منفرداً بالصعيد . هل هو تَهيُّب من المجهول أو خوف من الانقطاع والوحدة ؟ لم يسبق لى قط أن سافرت للصعيد أو خالطت أهله . صورته المنطبعـة فى ذهنى رسمتها لى أقاويل تقارب تهاويل الإشاعات عن جرائم القتل والأخذ بالثأر ، القاتل يصرف عمره فى تتبع ضحيته ككلب الصيد وهى تفر أمامه من بلد إلى بلد ، والقتيل يراق دمه - وقد يلغ فيه القاتل - تكفيراً عن اعتداء وقع قبل مولده ، إن رمزت للصعيد بشىء فبهذه الشومة - خشبها فى صلابة الحديد - تهوى بها أذرع قوية مفتولة عـلى الرؤ وس والعـظام تحطمها وتعجنها ، فى المتاحف من عهد طيبة جماجم لموميات عليها آثار وقع الشومة .

نساؤ ه حبيسات فى دورهن ، فيهن من تفخر بأنها لم ترتد الملس الا مرة واحدة ، يوم أن خرجت زفتها من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، وكأنما ودت

لو كُفِّنت به لتلبسه مرة أخرى وهو قشيب . معظم بلاده - رغم غناها - محرومة من الماء والنور ، أما الحرمان من المجارى فكل بلاد الريف كانت حينئذ فى الهوا سوا . . دع عنك أنباء زحف العقارب ، إن سلم منها فراشك كمنت لك فى حلق القلة أو كوز الزير ، وأحياناً داخل حذائك أو فى بطن لوفة الحمام . .

حياة خشنة صارمة ، مجردة من الزينة ، لاتعرف ولا تجيز دلع القاهرى فى طعامه وملبسه ، نكاته ونزهاته .

الليل فى الصعيد سجّان له يد سوداء تغلق الأبواب عند غروب الشمس على الإنسان والحيوان .

ومع ذلك أشعر بسعادة الانطلاق إلى عالم غامض أحس بسحره وعطره ، كنت أشتاق إليه من قديم وأدرك أن مصريتى ومحبتى لبلدى لاتتمان إلا إذا اغتسلت فى حوضه . .

منذ صغرى ألحظ فى زملائى أبناء الصعيد فى المدرسة رجولة ونخوة وشهامة وجلدا ، ثم - وهو الأهم عندى - قدرة - أشبه بالغريزة - على تناول الحياة حلوها ومرها كما تلقاهم ويلقونها ، لا يفسد تمتعهم بها ابتلاء بالتهيب ، والشكوك والملل وفراغة العين ، والبحث فى ملك اليد عما وراءه . ماسمعت منهم شكاية ، ولاأحسست بهذا النازع الخبيث المتستر فى النفوس الضعيفة لاستدرار العطف والحدب عليها ، هو نوع من الملق والنفاق يُصوِّب سهمه للداخل لا للخارج .

وكنت أتتبع من فوق الكبارى هذه المراكب العريضة - تكاد تغطس فى الماء - قادمة مع التيار ، محملة بالتبن أو البلاليص ، جماعة من أهلها

متحلقـون عند الـدفة حـول قـدر مسـود ، تحس أن صمتهم أكـثر من كلامهم ، ورجل آخر يقفز فى خفة القرد يتسلق الصارى ليلم القلع المرقع ويميل به حتى تمر المركب من تحت الكوبرى . بينه وبين ماسك الدفة صراخ لا أتبين ألفاظه ، حاد غضوب ، كأنه تلاحم النبابيت ، تتقد له الأعين كالشرر ، وتبرق الأسنان كوميض السلاح .

ما هو بلدهم ؟ من أين هم قادمون ؟ ماطعم هذه الحياة الطافية فوق الماء ؟ كم تمنيت أن أصحبهم فى رحلة لأعرف أسماء الريـاح وعلامـاتها وحيل التيار المخاتل ، وأطل على الدوامات ، ويرسم لى النخيل الرشيق فى كل لفتة لوحة فى النهر متباينة ، وأسلم فى كل ليلة على «موردة» جديدة .

يهتز قلبى حين يقال لى إن الجنازات فى بعض بلاد الصعيد تعبر النيل من الغرب إلى الشرق ، أحس أننى أعيش فى عهد الفراعنة ، وأظل أصور لنفسى تأرجح الميت فى القارب فوق المياه ينهى به حياته كما بدأها بتأرجحه فى المهد . وكانت لى جدة تقول ضاحكة إنها تتمنى أن تشيع هكذا جنازتها حتى تشم الهواء قبل أن تغيب فى قبرها .

* * *

ولماذا أقصر كلامى عن أهل الصعيد على أبناء المدارس ؟ حتى الباعة الجوالون من فقرائه المعدمين يمشـون فى عزة كـأنهم جند فى استعـراض عسكرى لجيش ظافر ، تضرب أقدامهم الأرض تكاد تخرقها ، أجسامهم ممشوقة ، ورءوسهم مرفوعة ، بطونهم مشدودة وظهورهم مبسوطة ، إذا بانت لك عظام الصدر أحسست أنها غطاء دينامو لا يلهث ولا يصفق طلبا للنجدة ، كأن كل واحد منهم أمير فى قومه . . أكثر ما يجذب العين فيهم

رقبة طويلة مغروزة فى الجسد كصخرة فى جبل ، هى وحدها التى تضفى عليهم هذا النبل وهذه المهابة . .

لا أنسى بائع الرمان الذى كان يدخل حارتنا ، فى كل جانب من عبه - فوق حبل مشدود على وسطه - أقتان على الأقل من الرمان ، على كفيه رمان ، وفوق رأسه قفة كبيرة مملوءة لفم عينها رمانا . لو قبل الشارى - فى غفلته - أن يساعده على إنزالها كادت تخلع ذراعه وتطرحه أرضاً ولو كان فحلاً . يمشى هذا الرجل الشيخ ، وقد خط الشيب شعره ، من مطلع الشمس إلى العشاء ، لاترى فيه من أثر الجهد إلا رفع حاجبيه وخفضهما كأنه يوازن بهما القفة فوق رأسه . . «منفلوطى يارمان !» . . كل قوته انحبست فى رقبته . . ولا تسألنى من أى طعام تستمد قوتها .

على جانبى الشريط وجسور الترع والمصارف ، وفوق السقالات بين أرصفة الموانىء وبواخر محملة بالفحم ، جنس يحيل العمل من فوره إلى وقدة الحمى ، يشبه النمل فى دأبه وتبعثر أفراده وانتظام مجموعته معاً ، إذا كان لامفر من «الحزق» فعيب أن يصدر من حلوقهم إلا متستراً فى ترجيع جماعى لمقطع فى أغنية ينشدها واحد منهم . لقد طوّفت فى بقاع الأرض فلم أجد للصعيدى نِدّاً فى تحمله للجهد .

فى ليالى الشتاء حين أمر على مداخل عمارات ملفوفة فى شبكة من السقالات كأنها قنفذ ضخم قد نصب أشواكه ، تُسمّر قدمى أغنية منبعثة على ضوء نار وشرر وسط الظلام ، تسيل رقة وحناناً . أصبحت «الحزقة» بحة محروقة من شدة الوجد .

كل هذا يتمثل لى فى قطار الصعيد «ترسو» : فى زحمته ورائحة الحلبة وبخار التراب المحترق فوق الأجساد والمقاطف والزكايب يقذف بها فوق الرءوس ، والركاب يصعدون وينزلون من النافذة ، ولكن لا ضير ، فلا يخلو سفر من ضارب طبلة يسلينا متطوعا طول الطريق بأغانى الحنان إلى الوطن والحبيب .

قـدام بيت الـلى بحبـه   شجرة وضلة ومعنى وهوا

هيهات لخمر أن تسكرنى كما تسكرنى كلمة «معنى» فى هذا البيت . لقد ذكرت أحب الأغانى الصعيدية إلى فى مقدمة مجموعـة قصص «دماء وطين» فلا أستطيع تكرارها هنا .

لقد دمغ الصعايدة باسمهم القطار الـذى يغادر الإسكنـدرية (بلد سيدى المرسى أبى العباس ، الولى الذى يرد ذكره فى أغانى الصعيد) فى منتصف الليل . . هو قطارهم المفضل إذ يسلمهم فى الصباح بالقاهرة إلى أول قطار للصعيد ، بل انتقل هذا الاسم إلى القطار المماثل الذى يقوم من القاهرة إلى الإسكندرية فى الموعد ذاته . وهذا هو تفسير الأغنية الصعيدية الشهيرة :

ياباجور الساعـة اتناشـر   يـا مقبـل عـلى الصعيـد

إنـه القطار القـائم من الاسكندريـة لا من القاهـرة وكانت هجـرة الصعايدة إلى الثغور أكثر منها إلى القاهرة .

وقـد بدأت فى ذلـك العهد أعـرف لأول مرة قـطار الصعيـد وأرى

عجائبه ، كلما أوغل بنا فى جنوب الوادى أصبحت مواعيده غير مألـوفة للقاهرى ، مثلى ، لم يسبق لى من قبل أن أصل إلى بلد أو أسافر منها فى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً .

وعرفت أيضاً نظام الخط المفرد جنوب المنيا .. فى ذلك العهد لا يمر القطار الا إذا سلَّم السائق لناظر المحطة طوقا من الخشب وأخذ بدله طوقاً آخر ، يدا بيد إن وقف القطار بالمحطة ، أو يعمد السائق - والقطار ينهب الأرض - إلى إلقاء طوقه على الرصيف ، ثم يمد يده لتصل إلى مستوى طوق يتدلى من عمود مثبت فى نهاية الرصيف فيخطفه خطفاً . وأعجب كيف لا يخطئه مرة واحدة . فإذا تسلَّم الناظر الطوق وضعه فى آلة بمكتبه وحينئذ يستطيع أن يفتح إشارة المرور للقطار القادم من الناحية المقابلة . وكنت أتتبع كل هذا فى شغف كبير لأننى منـذ صغرى أهيم بـالقطارات ويسحـرنى منظر المحـطة - أكبر سـوق للوداع - وتقاطـع الأشـرطـة ، ولمعانها ، وامتدادها إلى نهاية البصر . . حتى فى المحطات الصغيرة أجد راحة كبيرة لنفسى حين أجلس تحت ظل شجرة وأطلق العنان لذهنى فى سرحان لذيذ . وقد وجدت فيما بعد أن من أحب التسلية إلى بعض الناس فى الصعيـد أن يخرجـوا للمحطة لا لشىء إلا للفـرجة عـلى القـطارات وركابها .

* * *

الأخذ بالثأر

على ذكر عادة الأخذ بالثأر وتأصلها فى الصعيد : خرجت ذات يوم فى

عهد قريب أصحب فرقة من المسرح الشعبى لنقيم حفلة فى مدينة أسيوط . ورضى المدير - لود بيننا - أن يحضرنا ، ورأيت إكراماً لمديرية أسيوط أن أؤاخى بين مسرح قاهرى يتسمى - لا أدرى لماذا - بالمسرح الشعبى ، وبين ألوان من الفنون الشعبية المحلية . فجاءت لنا ثلاث فرق من عازفى الأرغول وأنشدوا أناشيدهم .

ثم أعلنوا لنا وسط الحفل - مدفوعين بالمنافسة - أن هذه الأناشيد المحفوظة ليست كل بضاعتهم ، وأنهم قادرون على أن يرتجلوا من فورهم مواويل فى موضوع نقترحه عليهم . من قبل أن أفتح فمى أقول لهم «غنوا لنا عن عشقكم لبلادكم ونيلها وزرعها» مال على المدير يقول : هذه فرصة . إننا نحارب - بناء على تعليمات وزارة الداخلية - عادة الأخذ بالثار،وقد كثرت المواعظ والخطب فلماذا لا نطلب إليهم أن يحاربوا هذه العادة بالمواويل أيضاً .

فوقفت وقلت لهم : «قولوا لنا شيئاً عن عادة الأخذ بالثأر» . كأننى دعوت جياعاً إلى مأدبة ، فما كدت أجلس حتى اندفع منشد الفرقة الأولى فى موال يقول فيه إن الرجل الذى لا يأخذ ثأره بيده سيعيش طول عمره ذليلاً مهاناً .

فأوقفته وقلت له : لا . لا . ليس هذا الذى نريد .

جذبه منشد الفرقة الثانية باحتقار بعد أن ثبتت خيابته وحل محله منتفش الصدر ، قد انتفخ شدقه كالبالون وبدأ ينشد موالاً يقول فيه إن الرجل الذى لا يأخذ ثأره بيده يستحق البصق فى وجهه .

يادى الداهية السودا . . حسبوا جميعاً لمجرد ذكرنا لعادة الأخذ بالثأر - أننا لا نتصور مثلهم أن يخرج مجال القول عن مدحها ، وحسب الثانى أننا لم نرض عن الأول لفتور حماسته فى التنديد بمن لا يأخذ ثأره بيده .

مال على المدير مرة أخرى يهمس فى أذنى :

- قَفِّل على كده ! .

فأشرت بانزال الستار المهلهل وباخت الحفلة .

* * *

الذهاب للصعيد

يناير سنة ١٩٢٧

بقيت واقفاً أمام مدير أسيوط ، قال لى بلهجة رجال الضبط والربط : (ما أعجب هذه الرفقة المفروضة على هاتين الكلمتين ! قد فهمنا «الضبط» فما معنى« الربط» ؟ ستقابلنى هذه الكلمة فيما بعد لا فى ميدان العمل ، بل فى مجال الشعوذة والسحر عند الفلاحين) .

- شوف ، لا ليسانس ولا دياولو ! . . كل المعاونين عندنا زى بعض حتى ولو كانوا من تحت السلاح .

لم أنطق بكلمة ، ولم أشكره - وكان ينبغى ان افعل - حين اختار لى مركز منفلوط لأعمل به . فإنى ، وإن كنت أستفتح عملى كالقطة العمياء لا أعرف ترتيب مراكز أسيوط فى المتاعب والمزايا ، ولم يُبَصِّرنى بها من قبل

إنسان ، وجدتنى - رغم إنكارى لغلظة الحديث - أستبشر بهذا البلد ، هو فى مقدمة مدن قلائل يجلجل اسمها فى دروب القاهرة إشادة بالأصالة والتفوق عند ذكر طِيب المنبت وجودة الثمر ، هل تذكر وصفى للبائع الشيخ الذى كان يدخل حارتنا وينادى «منفلوطى يارمان» ؟

سأذهب إلى موطن هذا الرمان ، جعلْته أغانى الصعيد توأما لنهود العذارى ، وسأجعل أول متعتى أن آكل رمان منفلوط ، وأن أجلس له كما كنت أفعل وأنا صبى ، أتأمل نظم عقيقه بعد أن أنزع عنه ستراً لا يدانيه ورق السيلوفان فى رقته وحسن حياطته ، ثم أنحته بأسنانى ولو سال بعض شرابه على ذقنى ، لن يزجرنى أحد ، سأحرص على ألا تقفز منى حبة واحدة ، فقد كان يقال أن فى كل رمانة حبة واحدة معينة من أكلها دخل الجنة !

كم كانت خيبة أملى حين لم أجد فى منفلوط رماناً . لقد اجتثت يد الإهمال أشجاره كلها ، وزُرعت منه حدائق جديدة فى أبنوب وساحل سليم والبدارى ، لا أعرف هل هى من سلالة رمان منفلوط أم لا . أعلم أن شجرة الأم فى سلالة البرتقال أبو سرة . . فى أمريكا تعد من ذخائر الأمة وكنوزها فهى باقية معززة مكرمة ، ضرب عليها سياج ، كأنها مصونة فى معبد أقيم لها ، يُحج إليها ويطاف حولها ، كم تمنيت أن لو بقيت فى منفلوط شجرة رمان نخصُّها بمثل هذا التكريم .

واستبشرت بمنفلوط مرة أخرى لأن واحدا من أبنائها كان من أعز الناس لدى الجيل الذى أنا منه ، مصطفى لطفى المنفلوطى . أسال من صخرة الفصحى عينا سلسبيلا كم نهلنا منها وارتوينا ، إن سحره لا يقاوم

وفضله علينا عظيم ، ولو أنه رحمه الله أكبر مسئول عن دموع مآقينا وزفرات صدورنا وخفقات قلوبنا ونحن نقرأ له «العبرات» و «مجدولين - أو تحت ظلال الزيزفون» . لم نبال أن نسأل «ما معنى الزيزفون» ؟ مهما يكن معناها يكفى أن لها رنيناً جميلاً له طعم حلو فى الفم ويغمرنا بلذة رقيقة توحى بالأحلام ، ألا ترى أنها تصلح اسما لآلة موسيقية ؟ خلصت للصبا أوهامه ولم يفسدها لحسن الحظ إدراكنا فيما بعد أن الزيزفون هو التليو ، كل ما نعرفه عنه أن أوراقه تباع فى الصيدليات - وهى أبعد شىء عن الأحلام - لعلاج الأرق والحمى ، ولا يوحى مذاقه العطن بنسائم الحب التى كانت تفوح لنا من اسمه .

وقد بحثت عن أسرته فى منفلوط فوجدت له أخا معمما مثله ، معروفا بالفضل والعلم والتعفف ، ولكنى وجدته صموتاً منقطعاً عن النـاس ، ورغم ما بذلت من التقرب والتودد له لم أظفر منه بشىء ينفعنى فى معرفة المنفلوطى ، بل كان إلحـاح هذا الغـريب بالسؤال مُسْتغـرَباً إن لم يكن مستهجنا . وكنت أحب أن تتجدد فى منفلوط ذكرى ابنها الكاتب الكبير فيُحتفل بيوم مولده أو وفاته ، أو تقام مكتبة عامة صغيرة تسمى باسمه ، وتخصص حجرة منها لجمع مخلفاته وأوراقه وصوره ومؤلفاته .

أمضيت أول ليلة فى منفلوط باستراحة المركز . حجرة ليس بها إلا سرير سِفَـرى وكرسى للجلوس أو تعليق الثيـاب ، أتبادل معـه العرى واللبس . حجرة جرداء باردة بلا روح ، لو شغلتها أسرة مُعْيلة لما أحست أنها مسكونة ، سقفها عال ، كأنك فى قعر بئر ، السفلى من جدرانها مطلى بدهان أزرق كئيب محبب كحمو النيل ، والعلوى من جص كالح سقط من

الجرب بعضه دون البعض ، يرسم أشكالاً لا تثبت للعين على هيئة واحدة : بقايا وجوه خبيثة تستدير لك فى حركات مفاجئة مرة يمنة ومرة يسرة ، ثم تضيع وسط أشلاء الخراب لتبرز تتجسس عليك من جديد .

يصل إلى أذنى طول الليل أصوات جر سلاسل ، وخبط بالأكف على البنادق ، ووقع حوافر خيل الداورية خارجة داخلة على عواء الكلاب ، وعناء مفاتيح لا شك غليظة تدور فى أقفال ، وصرير أبواب لا ريب ثقيلة تُفتح وتُقفل ، وضوء يسيل وهو مختنق . وسَطْل تهوى على جانبه يده فترن كالجرس ، ورش للماء كطرقعة سوط رفيع ، وحديث كله صراخ لا أتبين ألفاظه ، كأنه فض لا ينتهى لنزاع يتجدد . .

يخال إلىّ أن هذه الضجة تصلنى من عالم قصى مجهول ، لا أدرى هل أنا فى حلم أم فى يقظة ، ثم أخذ الليل يذوب ويضمحل شيئاً فشيئا ، وفجأة عمَّ ضوء وهاج عنيف ، انتشلتنى يده - كالغريق - من لجة الظلام : الساعة لم تبلغ الخامسة ، أمامى ثلاث ساعات على الأقل لا أعرف كيف أقضيها فكان عذابها علىَّ فى النور أشد وقعا من وساوس الليل البهيم كله .

وحين نزلت ومررت أمام «البُلُك أمين» قيَّد اسمى وساعة وصولى للمكتب فى دفتر الأحوال . . حينئذ أدركت أننى نمت تلك الليلة إنساناً واستيقظت معاوناً للإدارة .

معاون الإدارة

وجدت على مكتبي أوراقا مكومة شَذَر مَذَر فى تل مرتفع ، فمعاون الإدارة كان فى عهدى تُلْقِى عليه كافة الوزارات أعباءها ، فهو يؤدى أولا كل خدمات وزارة الداخلية ، من تحقيق للجرائم ، والخروج فى الدوريات ، وانتخابات العمد والمشايخ والتحقيق معهم وتحصيل الجزاءات منهم ، والتفتيش على السلاح غير المرخص به وضبطه ، والقيام بتحريات عن طلبات جديدة للموالد والإشراف عليها ، وحماية شركة الأسواق الإنجليزية بزجّ الفلاحين قسرا داخل أسوارها ، وإحصاء السكان ، والبحث عن الغائبين والهاربين ، وإصدار رخص فتح الدكاكين ، وإبطال المدافن القديمة ، وإنشاء مدافن جديدة ، والسماح لثرىٍّ أن يُدفن فى مسجده ، وحضور مزاد المعدِّية وتحصيل رسومها ، وجمع الحجاج وتسهيل سفرهم ، ومراقبتهم عند عودتهم . . وأخيرا توزيع بطاقات حفلات الجمعيات الخيرية قسرا على العمد والمشايخ ، وسَوْقهم للسفر إلى القاهرة أو الإسكندرية لحضور تشريفة كبرى فى عيد جلوس أو عيد ميلاد . . ولوزارة المالية تحصيل الضرائب كلها ، والحجز على المتخلفين وبيع متعلقاتهم – فهو المشرف على الصيارفة – ومسح الأراضى لتعديل الضريبة ، ومسح المواطى والجزر والعلو وأكل البحر – فهو المشرف على المساحين – وصيانة أملاك الحكومة وتحصيل إيجارها ، وتقدير قيمة المبانى وتحصيل رسومها . . ولوزارة الحربية إعداد قوائم المجندين وحضور الفرز – وهويوم عصيب – وضبط المتسحبين . . ولوزارة الزراعة مقاومة الدودة والجراد وآفات النبات والحيوان ، وتنفيذ قانون ثلث

الزمام ، والإشراف على إعداد الإحصائيات التى تُطلب من العمد والمشايخ عن المحاصيل والأشجار ، وهى إحصائيات «خليها على الله» ! . ولوزارة الأشغال حراسة جسور النيل ، والمرور عليها ، وإصلاح كسورها . . . هو يد الحكومة فى تنفيذ بقايا السُخْرة فى قَسْر الفلاحين على الخروج لحراسة الجسور وتقديم البوص والحطب . . ولوزارة العدل الحضور عن الحكومة فى القضايا المرفوعة منها ضد الأفراد ، وتنفيذ أحكام الطاعة ، والمشاركة فى أعمال المجالس الحسبية ، وتلقى طلبات القناصل الفخريين . . ولوزارة المواصلات تحصيل رسوم انتفاع الأهالى بجنبيات شريط السكك الحديدية ، ولها نصيب فى ازدياد عمله من ضبط المسافرين بلا تذاكر ، ومعاينة حريق المحاصيل من شرر القطارات ، وتحقيق حوادث إلقاء حجارة على الشريط - وهى حوادث كثيرة .

إننى إذا لم أتعلم من هذا العمل كل شىء عن بلادى وأهلها فإنى إذن حمار . . مع الاعتذار لأصدقائى الحمير ! *

* * *

منفلوط

وجدت منفلوط بلدا خفيف الدم معتدل المناخ غير محروم من الماء والنور ، لا يندفس فى حضن الجبل ، بل يتوسط رقعة تفصل بين النيل

---

* («الجمهورية» ، ١٩٥٩/٥/٢٩ ، ص ٣)

وجسر «الابراهيمية» ، يحاذيه شريط السكـة الحديـدية . إذا نـزلت من القطار قابلك الريف من فوره ، عن يمينك حوض متسع يمتد زرعه إلى نهاية البصر ، وعلى يسارك دور حديثة ، وقهوتها ، وبناء المحكمة ، والمركز ، وقصر الطرزى ، وبركة غير صغيرة ، هى أول لقاء لى بمشكلة البِرَك فى الريف ، ثم ينعرج الطريق إلى اليمين نحو الجنوب إلى أسيوط عند موقع نقطة الموسات .

إن منفلوط تمتد نحو المحطة لا نحو النيل . وكنت لا أبلغ الموردة إلا بعد مشقة وعبر حقول ليس فيها طريق للمرور . .

ووجدت أبناءها – هى وقراها – أهل طيبة وأمانة وحياء لعلهـا سر انقباضهم عن الغرباء أمثالى من الموظفين . . لم يشذ منهم إلا قرية واحدة عرفتها فيما بعد حينما تكفلت هى وحدها بأكبر نصيب فى جرائم القتل . إننى أعـز منفلوط لأنها أكرمتنى وعـاملتنى بإحسـان وأغمضت عينها عن حماقاتى وعيوبى .

ينبغى لى أن أبحث بسرعة عن مسكن لا لأجد فيه المأوى فحسب ، بل لأتخذ فيه مطبخـا يقيم أودى ، فلم أجد فى منفلوط مطعمـاً واحـدا أستطيع أن آكل به . وعثرت على مسكن صغـير مستقل – إيجـاره مائـة وثمانون قرشا – نصفه بالطوب الأحمر ونصفه الآخر لحسن الحظ بالطوب النيىء ، فقد ارتاحت نفسى لهذا الإطار الصادق للصورة الجديدة لحياتى . وكان أول شىء فعلته أن اشتريت لبدة وزعبوطا ، أزعم فى غرورى أننى أجد فيهما الإلهام إذا جلست أكتب فى الصعيد ، وهذا مثال من تقـاليع ناشئة الكتاب وأوهامهم . . لا يعلمون أن النفس ترفض كل تحايل .

نعمت بالاستقلال وشقيت بالوحدة لأول مرة فى حياتى . . أنا رب

الدار وأهلها ، لا يسألنى أحد متى وإلى أين أخرج ومن أين أعود ، ومع ذلك فمن الغريب أننى مكثت زمنا طويلا إذا رجعت متأخرا بالليل لمت نفسى وشعرت بانقباض المذنب يخشى القبض عليه متلبسا بفضيحة ، وفتحت الباب محاذرا أن أحدث ضجة ،وعلوت السلم متسحّبا كاللص على أطراف قدمى ، كأننى أتوقع أن ينفتح فى بيتى المهجور باب ويندلق فى الظلام نور ويضبطنى صوت شبح أمى تقول «هل عدت ؟» كانت هذه هى عادتها معنا ، لا تنام إلا إذا اطمأنت أننا عدنا جميعا لم يدهسنا ترام .

ليس لى فى زحمة العمل وقت أستطيع أن أتريث فيه وأسأال نفسى : «ما الذى حدث ؟ ما الذى جرى لك ؟» . . إننى لا أرقبها ، ومع ذلك أحس بأن مألوف طبعى يذوب شيئا فشيئا ، تحل محله عادات جديدة مفترسة تتناولنى بأنيابها ومخالبها . . وجدتنى لأول مرة فى حياتى يعلو صوتى - مع الأسف - بأقبح ألفاظ السب الوقح الفاحش المقذع الداعر ، لعلى كنت أجد فى مقدرتى على التفوّه بها لذة كبيرة تعوض حرمانى وأنا صبى من مجاراة رفقاء الحارة فى هذه المتعة العجيبة . .

فهذا السب انتقل إلىّ بالعدوى من زملائى ، فهو وسيلتهم الأخيرة فى استخلاص الحقيقة من أفواه المتهمين والشهود والمراوغين ، فالقضية البسيطة التى ينبغى أن نفرغ منها فى غمضة عين تنقلب بمجرد بدء التحقيق إلى «حسبة برما» . . الشهود لا يفهمون السؤال ، إجابتهم خارجة عن الموضوع ، لا يقولون لك الحق إلا بعد جهد شديد ومراوغة ، لا يأبه الواحد أن يعدل من فوره عن قول سجلته فى محضرك منذ هنيهة فيقلب التحقيق رأسا على عقب ، لا يلتمس لنفسه عذرا ، أفواههم بئر عميقة تجر

منها دلوا ثقيلا . ثم ينشب العراك بين المتهم والمجنى عليه وبين المتهم والشهود وبين الشهود بعضهم وبعض . .

يحدث كل هذا فى ركن حجرة صغيرة ، وفى بقية الأركان قضايا وضجة مماثلة ، ينهدم بعض زملائى فتنبعث من حلوقهم ألفاظ السب الداعر كأنها صرخة استغاثة واحتجاج ، أو كأنهم يرونها وسيلة للإرهاب ، أو أقل عقاب يستحقه هؤلاء الناس لقاء ما يذيقونه لهم من عذاب ، بل يذهب بعض زملائى فى قنوطه إلى حد القيام من مكتبه وصفع المناكف بالأقلام على صدغيه ، وفيهم من ينادى عسكرى المركز ليحمل عنه مشقة هذه الغلظة الفظة . والمصيبة أننى اقتديت بهم أيضا .

إننى أعترف بجرائمى لأنها سقطت بمضى المدة . .

***

دبوس

إننى لم أنس هذه القضية .

كانت القرية فى ذلك اليوم - ككل يوم - منصرفة إلى شأنها ، يباع فيها الزمن بالنهار لا بالساعة ، إذا لم يعل الولد ظهر جاموسته - قاعدا أو راقدا - أو يذهب للغيط بقى فى ساحة القرية يجرى ممتطيا عودا من حطب الأذرة . فإذا بهم يهل عليهم رجل لا أدرى من أين . . رجل فى عمامة خضراء وفى يده دف ، وفى يده الأخرى شىء اسمه الدبوس ، وهو مسمار غليظ طويل ، له رأس كبيرة من الخشب ، إنه جاء يعرض على أهل القرية

كراماته ، فيدق لهم على الدف مترنما بأناشيد فى حب الرسول حتى تدمع عيناه الكحيلتان ، فإذا تجمع الناس حوله - والأولاد أكثرهم - صرعه الوجد ، وزاغ بصره وهمهم ودمدم ، وتناول هذا الدبوس فغرزه فى أحد شدقيه فخرج طرفه من الشدق الآخر . . ماشاء الله !! قدرة قادر ! ثم ركّز سنه على عظمة ترقوته وأخذ يرقص والدبوس لا يقع . . سبحان الله له فى خلقه شئون !

ووقفت امرأة وراء صبيها ، هى أشد منه انبهارا . . فإذا بيد الرجل تهبط على رأس الصبى وتمسحه ويقول لها : مبروك إن فى ابنك شيئا لله . . رأيت عليه علامات الصلاح والوصول ، وسأثبت لك هذا ، وجذب الصبى وسط الحلقة وجعله يركز الدبوس فوق عظمة ترقوته ، لم يكد الصبى يدور دورتين حتى وقع على الأرض مغشيا عليه ، فانكفأت فوقه العمامة الخضراء تحمد الله وتشكره فقد تجلّت على الصبى كراماته ، وانطلقت الأم تزغرد بأعلى صوت ، وجرت إليها بقية النسوة يزغردن أيضا ، وإن لم يعلمن السبب بعد ، كان الدبوس بضغط رأسه الثقيل قد خرق سنه المدبب ـ فى غفلة ـ جلد الرقبة ، ونفذ من اللحم حتى طعن القلب ، وبدأ الدم يسيل إلى جوف الصبى ، ولا أحد يدرى . تتابعت شهقاته وحشرجته ، والشيخ يرقص والأم تزغرد حتى أسلم الصبى الروح وسط معالم الأفراح .

وبعث العمدة بالجميع إلى المركز ، وعُهد إلىّ بالتحقيق ، وأخذت أدير بصرى بين الأم قد خدشت خدها بأظافرها ، وانتكش شعرها ، وبُحّ صوتها ، وبين الدجال النصاب تحت عمامته الخضراء التى تغرّر

بالفلاحين . . فقدت حلمى ورباطة جأشى ، لا تؤلمنى وفاة الصبى بقدر ألمى للزغاريد تنبعث من فم أمه . . لم أعرف كيف أضبط غضبى وقمت فصفعت هذا الرجل المسكين قلمين ، لا تستطيع أن تقول- إن رأيت يدى - أنهما قلمان ساخنان . . ومع ذلك ندمت وعشت أياما أتصور أن يدى ستصاب بالشلل لمجرد أن الرجل كان يرتدى عمامة خضراء .

***

آه . . . ياعينى

هذه حادثة أخرى باقية فى ذهنى . .

كنا فى شهر أغسطس ، لم نفارق مكتبنا منذ الصباح المبكر ، تغذّينا فولا مدمسا ، وجاء المغرب وولى ، وجاءت العشاء وولت . . ونحن منهمكون فى العمل . نأمل أن يأتى لنا الليل بنسيم عليل يجفف عرقنا ويفك توتر أعصابنا ويرطب حلوقنا ، كأن الأرض قد بلعت فى شهيقها هواء النهار الساخن فازداد فى جوفها التهابا ، وعند الليل بدأت فى زفيرها تنفخ به فى وجوهنا ، هواء لافح يختلط فيه عطن الماء الآسن وزخمة الجحور وورقدة الطين وذوب القش والغبار والهاموش ، وخرجنا إلى الطريق نتعلم المشى من جديد . نعالج تخشب سلسلة الظهر والرقبة وهمدان اليد ولسعة الجفون ، معاون البوليس - وهو رجل مهذب من أسرة طيبة - قد فك - رغم أنف القانون - أزرار سترته العسكرية ، يمشى كفارس يترجل لفوره من على ظهر جواد بعد مشوار طويل . . لم يَخْطُ خطوتين حتى هجم علينا رجل يضع كفه فوق عينه :

– يـا سعـادة المعـاون ! الـواد شحـاتـه ضـربنى قلع لى عينى ، فى عرضك . . فى طولك . . الحقنى . .

ياللمصيبة ، هذه جناية ! سنعود للمركز وسنقضى فيه بقية الليل . . ولكن صبرا ، لا داعى لليأس ، هذا الفتى نعرفه ، أنه أكبر كذاب فى المدينة ، لا أعرف من أين يرتزق فإنى لا أراه إلا متسكعا بجانب المركز ، يدخل علينا كل يومين أو ثلاثة وبيده بلاغ يشكو فيه ضحية له جديدة من خلق الله . . بلاغات باطلة ، أو عن مسائل تافهة . . لا شك أنه يكذب هذه المرة أيضا . .

رأيت المعاون فى شدة غيظه يهوى بقبضة يده على رأس هذا الرجل المناكف ، ثم يركله بقدمه . .

ياحضرة المعاون ! عينى . . أنا فى عرضك .

ينهال الضرب من جديد ونحن نضحك ونتوقع أن يرفع الرجل بين لحظة وأخرى كفه عن عين سليمة انطفـأت فى نظرتهـا – فى قبضة الألم والخجل – لمعة التخابث وحب المعابثة . لن ينقذنا إلا طبيب المركز ليثبت لنا فى ورقة رسمية كذب مدعاه ، فنادى المعاون عسكريا وكلّفه أن يبحث عن الطبيب من تحت الأرض ويستكتبه ورقة بما نريد وجلسنا فى القهوة ، وتشاغلنا ونسينـا ما حـدث ، واذا بنانتبـه إلى العسكرى يـدخل علينـا ويضرب سلاما ويمد لنا يده بورقة :

«بـالكشف عـلى (. . .) تبـين أن عينـه اليمنى قـدانقلعت من محجرها . .»

هذه صورة كريهة - وسأذكر مثلها فيما بعد - هى من ماضٍ محزن كانت مصر تعيش فيه مذهولة عن نفسها وفضائلها لذل الاحتلال وافتقارها لحاكم يؤمن بها ويثبت أقدامها ويصغى لوجيعتها ، مضى هذا العهد ومظاهره إلى غير رجعة ، حينما ظفر الشعب بوحدته وتضامن طبقاته وآمن بعزته وكرامته وتولى أمره أبناؤه .

* * *

دجالون

ذكرنى لابس العمامة الخضراء بالدجالين المنتشرين فى الريف ، يستغلون سذاجة الفلاحين ، هم على أنواع ، منهم المقيم ، أكثر زبائنه من النساء ، يكتب لهن الأحجبة ويشفيهن من العقم إلخ إلخ . . مكرهم هيِّن ، وخطرهم قليل ، وسطوهم على المال معتدل ، لأنه متصل ، يزعمون الصلاح والولاية ، تتبرك بهم النسوة ولا يرهبنهم .

ونوع آخر من المقيمين يزعم أن بينه وبين الشيطان عهدا وميثاقا ، فهو مرهوب ، إذا مر وسط الناس تباعدوا عنه حذر أن يقع ظله عليهم ، ضحاياه من الرجال ، فهو القادر - إن شاء - على أن «يربط» الواحد منهم فيصبح وهو فى أتم صحة عاجزا عن التمتع بالحب ، ثم إذا شاء فكّ فى غمضة عين وثاقه ، وهذا أعجب مثال رأيته لتغلب الوهم على نفوس الفلاحين ، والغريب أن الضحايا لا يكتمون بلوتهم ، ولا يأبهون أن يشيع خبرها ، بل لا أبالغ إذا قلت إننى آنست فى وجوههم دلائل السرور والسعادة كأنهم تلاميذ ظفروا بأجازة غير منتظرة .

وكان أشهرهم رجل يقيم فى قرية بطرف الوادى ، يقع منزله على سفح الجبل ، وهو مأوى الجن . إذا طلع النهار ذابت الجن كالثلج تحت وقدة الشمس ، وتلاشت أشخاصها وتحولت إلى فتات يطاردها الريح كالكلب المسعور من الكهوف والجحور ، ويبعثرها ويضرب بها الصخور ، صفيره من ولولتها وعوائها . . ولكن صبرا سيأتى الليل ، سينزل المؤذن بعد أن دعا إلى صلاة العشاء ، وما هى إلا دقائق حتى يتم الركوع والسجود وتنقطع تلاوة القرآن ، ويأوى الناس إلى المضاجع ويغلقون عليهم أبوابا يظنون فى غفلتهم وبلاهتهم أنها تحميهم . . لا يعلمون أن الجن تنفذ من عقب الباب . . حينئذ تتجمع الجن من جديد . . ويتضح لكل منها شخصه وتبسط مرة أخرى سلطانها على الأرض ، تعقد الندوات ، وتستضيف أشياعها من بنى آدم . هذه هى اللحظة التى ينفلت فيها هذا الرجل من مسكنه ، فيغشى الجبل ويغيب رسمه ، لا تخطىء قدمه موقعها وإن كان الليل فى لون الحبر ، كأنما تقوده يد خفية ، تؤاخيه الذئاب ، وتسلِّم عليه العقارب . . هذا ما يزعم الناس ، والرجل راقد فى فراشه ، يحاذر أن يغادر داره لكثرة أعدائه . .

وقد سعيت إلى لقائه ، فوجدته قزما نحيلا يلبس فى عز الصيف زعبوطا خشنا يكشف عظام صدره ، مجعد الوجه ، عيناه دائرتان ، لم أر مثله جمعا بين الحذر والتوثب ، والدفاع والهجوم ، تنطق ملامحه بهمِّ من اطلع على سر مخيف غير مأذون له أن يفضى به إلى أحد ، كأنه فرغ لتوه من مسح العرق من على وجهه بعد مشادة عصبية طويلة استنفدت قدرته على التحدث . لا أدرى لماذا بقى طول جلستى معه وكف له مبسوطة ، وأخرى

مطبقة ، كأنما جعل فى الثانية تدبره ، وفى الأولى كلامه . أطبق فمه وراوغنى وأنكر شهرته ولم أفلح فى أن أستلين هذا الذئب المتحفز . .

هذه الرهبة التى يبعثها فى قلوب الفلاحين هى التى قادته ـ فيما أعتقد ـ إلى الاشتغال أيضا بالإقراض بالربا الفاحش . . حين يأتى موسم جنى القطن تكون يد الفلاح فارغة من المال فلا يجد مفرا من الالتجاء للمرابين . وكان ثمن القنطار فى ذلك العهد ستة جنيهات ولكن المرابى يشتريه قبل الجنى بثلاثة فقط ، أى أن رأس ماله يتضاعف فى أقل من عشرة أيام ، ولا يُقبل على إقراض الفلاحين بالربا الفاحش إلا من كانت له سلطة عليهم ليضمن رد ماله ، فهذا هو سر التحاق ساحر «الربط» بأسرة المرابين .

وجدنا جثته ملقاة ذات يوم على الجسر ، فى عب زعبوطه لفة ضخمة من عقود مبرقشة ببصمات الأصابع ، وفى جسده أكثر من عشرين طعنة سكين ، وطُوِىَ التحقيق سريعا وسط شماتة الناس كلهم ، لم نعرف الفاعل ، وأجمع الرأى على أنه واحد من مدينيه لا مربوطيه ، وكنت أقول لنفسى : لعل الدليل على ذلك أننى لم أسمع امرأة واحدة تزغرد حين شاع خبر مصرعه .

* * *

دخل علىَّ فى المركز ذات صباح رجل يكاد يسقط من الإعياء ، مُصْفَرُّ الوجه مُحْمَرُّ الجفون وشكا لى أنه لم يذق طعم الراحة منذ أسبوعين ، فما يكاد يأوى إلى فراشه وتنقطع الرجل من الطريق وتدخل عينه فى النوم حتى

يفزع لهبد مكتوم متكرر يهز الجدران ، ينبعث من منزل جاره ، لا ينقطع إلّا عند بزوغ الفجر . سأل جاره عن الخبر ، فأنكر إنكارا شديدا أن الصوت منبعث من منزله ، وأقسم أنه ينام وأهله مع العشاء ، ورجّح أن هذا الهبد هو معابثة جن فى منزل الرجل نفسه ، وأكّد له أنه لو صبر عليها أسبوعا ، أسبوعا واحدا فحسب ! . . فإنها ستستنفد رغبتها فى هذه المعابثة وتنصرف بإذن الله ، ويحسن صنعا لو أطلق فى منزله البخور الجاوى . (دهش الرجل لكلام جاره إذ لم يعهده من قبل خبيرا بالجن والبخور) .

بعد العشاء بقليل اصطحبت أحد العساكر وسرنا حتى بلغنا المنزل ، ووقفت على الباب قليلا ، فإذا بآذاننا تسمع - كما قال الشاكى - هبدا مخنوقا متواليا ، دققنا الباب دقا يماثل هذا الهبد فى قوته أو يزيد ، ولكن الباب لم يُفتح. وبدأت الناس تتجمع حولنا وتعلو أصواتهم وأدرك جميع أهل الحارة أنها « كبسة » . .

وبعد قليل انفتح الباب ووقف أمامنا رجل يلف رأسه عرضا بمنديل أحمر تورمت فى الجبهة عقدته ، خلع جلبابه وبقى فى قميص ممزق وسروال منتفخ مسود ، تتدلى دكته إلى الركبتين ، معفّر الوجه واليدين والقدمين بل كأنما أهيل على جسده كله تل من التراب . .

وقعت نظرته علينا ثم طارت إلى باب القاعة المفتوح على الفناء ، إلى اليسار منا ، فباب الفلاح لا يفتح على الفناء ، بل على مدخل وراءه جدار . . لئلا تنكشف الحريم لأول نظرة من القادم ، فقادتنا نظرته وحدها - شأن كل الخائفين - إلى مكمن السر ، لم نكد نصل باب القاعة المُوارب حتى وقفنا مبهوتين ، فقد أصبحت تلالا عالية من التراب

الرطب ، تدور مع الجدران ، ووسطها بئر عميقة يهبط قاعها خمسة أمتار على الأقل .

تبين من التحقيق أن الرجل وقع فى يد نصاب محتال أوهمه أن كنزا عظيما مدفون فى أرض منزله ، وسلبه كل ماله حتى باع مصوغ زوجته . واختفى المحتال ولم نستطع الاهتداء إليه لأنه غريب عن المركز ، وظل الرجل أسبوعين لا يذوق فيهما هو الآخر طعما للنوم ، يمضى ليله كله فى فحت الأرض ، دون أن يلحقه اليأس .

غضب المأمور علىَّ لأن الشكوى الإدارية الأولى عن الهبد المكتوم قد انقلبت فى يدى إلى جنحة نصب ستضاف إلى إحصائيات الجرائم فى المركز . .

***

أما المحتال الآخر فأشد جرأة ، لم يختف بعد فعلته ، بل رأيته يجلس فى القهوة مطمئنا ، يشرب الشيشة بلذة كبرى : هو أفندى من أهل القاهرة ، يكسب مالا وفيرا من كشف الطالع والمستقبل ، وليس بلازم أن تأتيه بنفسك ، بل ترسل له – من أى مكان فى الأرض – خطابا داخله حوالة بريد بأربعين قرشا . . ولكنه لا يقنع بهذا كله ، فله – كالأعيان والسيَّاح – رحلة فى الصيف إلى وجه بحرى ، ورحلة فى الشتاء إلى وجه قبلى . . لا أظن أن مرجع أسفاره هو قلق نفسه ، بل أُرجِّح أن سر بقائه هو معرفته متى يقب ومتى يغطس .

قرَّبت مقعدى منه فلم تمض دقائق كثيرة حتى وجدتنى أجلس منه

جلسة التلميذ . . أفاض عليّ بكلام ساحر عن التصوف ووحدة الوجود ، ومعنى الظاهر والباطن ، وعن انهزام كل القوانين أمام النفس الواصلة .

لجأت إليه أسرة فى المركز ليشفى بنتا لها مصابة بالصرع ، فطلب أن يتركوها فى الدار معه لأن العلاج من الجن يتطلب أن يختلى بها بعيدا عن الناس .

لم يكد ينصرف بعد الخلوة التى طالت ، مبشرا بالشفاء ، موصيا أن تُترك الفتاة لحالها أياما لا تُرهق بسؤال ، حتى رأت الأسرة من فتاتها تحولا بعد اعتداء له آثاره ، فطار إليه أب الفتاة لا يقوى على أن يستل غضبه من براثن الخوف والرهبة من عالم الجن المسيطر عليها ، ففاجأه الدجال بقوله :

- ماذا كنت أفعل ؟ لقد استطعت أن أسيطر على العفريت الذى تلبسها وأمرته بالخروج من جسدها ، فقال إن أمامه طريقين لا غير ، أحدهما من عينى الفتاة . فماذا كنت أفعل ؟ هل كنتم تريدون منى أن أفقأ عين فتاتكم ؟

كتم الأب جرحه ولم يتقدم إلينا بشكوى ضد هذا المحتال خشية الفضيحة .

ظللت طوال الجلسة أتطلع إلى وجهه محاولا أن أستشف سر هدوئه وثباته واطمئنانه ، وكدت أملس عليه طلبا للعدوى .

* * *

ولكن أغرب نصاب صادفته فى الصعيد لم يبعث فىّ العجب لجرأته

بقدر عجبى لسذاجة الفلاحين ، فإن حادثته عندى هى مضرب الأمثال فى انهزام العقل بل انهزام الغريزة أمام الدجل .

فى منفلوط سيدة تُعَدُّ بين الفلاحين موسرة ، وهى فى نظر الموظفين مثلى فقيرة ، كان لها ابن وحيد ، حين بلغ سن الشباب خرج ذات يوم من داره ثم لم يعد ، اختفى كأنما بلعته الأرض . هل هو حى ؟ هل هو ميت ؟ أين هو ؟ . . لا أحد يدرى ، لبست أمه السواد عليه ، أهون لديها أن يصلها خبر موته من ألا تعرف له مزاراً تقصده فى المواسم والأعياد فتؤنس عزيزها فى وحشة القبر ، وتوزع فوقه الخبز والتمر على الفقراء لينزل بِرُّها رحمة ونوراً عليه ، ومر أكثر من عشرين سنة لم يهدأ فيها حزنها .

جلجلت ذات يوم زغاريد من بحرى البلد ، هذا فرح يستوقف فيه المارة الغرباء وتوزع عليهم أكواب الماء المحلى بالسكر ، تقيمه هذه السيدة ابتهاجاً بعودة وحيدها بعد الغياب الطويل . طرقت بابها فى الصباح يَدٌ لا تألفها فلما فتحته وجدت أمامها رجلاً يلف رأسه بكوفية تغطى شراشيبها جبهته وأذنيه ، فلم يكد يراها حتى ارتمى على صدرها يقول : «أمه ، أمه ، أنا رجعت أهوه» . بهت وجهها وتخاذلت ، يكاد يغشى عليها ، لها نظرة تنبعث من عينين أذبلهما البكاء وغطاهما بطبقة صفيقة من السحابات ، تريد أن تتملى من وجه حبيبها وهو يدفس وجهه فى صدرها ويبكى . .

وظل الفتى أياماً ، جلسته أمام الباب يستقبل المهنئين ، يأكل الشقانق والمقانق ، ولا يخلو جيبه من نقود ، ويشعل سيجارة من أخرى ، ولكن ماذا تقول فى الطمع وخسة الطبع ، كانت للسيدة إسورتان من ذهب

وخلخالان من فضة ، لقد انقضى عهد التزين ولكنها تحتفظ بها فى قعر صندوق خشبى فى حجرتها لليوم الزنقة . كانت تصعد السلم ذات صباح بعد أن أعدت لحبيبها فطوره ، محنية الظهر ، تكحكح فرأت ابنها يخرج من الحجرة مهرولاً ، ولما رفض البقاء حين استوقفته ، شيعته قائلة : «روح اتفسح ربنا يكتب لك فى كل خطوة سلامة !»

ودخلت الحجرة فرابها أن الصندوق لا يحسن إطباق فمه ، كأنه أبكم يريد أن ينطق بكلمة من بين شدقيه لا من طرف لسانه ، فتحته فرأت الثياب مبعثرة والأساور والخلاخيل قد طارت . . فزعقت زعقة واحدة*.

لا يعلم أحد على أى مصيبتيها تنوح ، ولحقته الزعقة وهو مجد فى خطوه فى أواخر الحارة ، فجرى ، وما يكاد يجرى حتى جرى الناس وراءه ، وانكشف أمره وجاءوا جميعاً للمركز وأحيل التحقيق علىَّ .

واستفاقت السيدة أخيراً للنصاب الذى غرَّر بها ، لا لأنه سرق حُلِيّها ذخيرة العمر ، بل لأنه حين قُبض عليه لم يلجأ إليها مستعطفا يقبل يديها ، معلنا توبته ، بل رأته ذليلا كفأر وقع فى مصيدة لا يهمه إلا أن يجد لنفسه مخرجا ، أما هى فقد نسيها ، لا يوجه إليها نظرة واحدة . سألتُه عن اسمه فتلجلج قليلا وزعم لنفسه اسم ابنها الغائب ، فناديت العسكرى وقلت له :

– اعمل له فيش وتشبيه .

* («الجمهورية»، ١٩٥٩/٦/٥ ، ص ١٠)

سحبه العسكرى من تلابيبه لا من يده إمعانا فى إهانته ، ومضى به نحو الباب ، وفهمت الأم أنها مطالبة بالانصراف أيضا ، ولكنها تجمدت أم!ى تدير رأسها تلاحق ظهر من غشها وسرقها بنظرة غائمة ، لو عاد ابنها لكان فى مثل عمره ، وسمعتها تتمتم : «روح الله يسامحك .»

وبعد أيام وصلتنا صحيفة سوابق طويلة مهيبة .

***

سمات مهملة

يحمى الفلاح من هؤلاء الدجالين ويشفيه من أضغانه وأحقاده وإضماره الثأر رجال طوّافون يشتهرون عنده بالصلاح والتقوى والولاية . .

مرَّ علىَّ بالصعيد نفر غير قليل من هؤلاء الملوك غير المتوجين .

لا حدَّ لسلطانهم على رعاياهم ، لهم أيضا جولات موسمية ينتقلون فيها من عشيرة لأخرى . فما يقدم الواحد منهم وينزل عند أحد مريديه حتى تنقلب حياة البلد من النقيض إلى النقيض ، تحس فى الجوّ أن الهدنة قد أُعلنت وأن الناس قد فرغوا من أمر دنياهم إلى دين نسوه زمنا ، فحلقات الذكر لا تنقطع ، والصلوات تقام جماعة فى أوقاتها .

ويلتف الفلاحون طول النهار ومعظم الليل حول الشيخ ، لا ترتكب جريمة واحدة ، يصالح الخصم خصمه ، ويسترد الرجل مطلقته ، ويعذر الدائن مدينه ، الرجال فى خشوع واستعبار ، تكسو وجوههم سعادة

كبيرة ، والنساء أكثر منهم سعادة لأنهن منهمكات فى إعداد أفخر طعام لديهن . يشعرن أنهن أصبحن هن وأولادهن فى حرز مبيع .

رأيت بعيني رجالا يتخاطفون ماء وضوء الشيخ ليشربوا منه ، ولا يرفع فمه من القلة حتى تدور على بقية الجالسين للتبرك ، وما يكاد الشيخ يعلن عزمه على الرحيل حتى يحلف رجل بالطلاق ثلاثا إلا أقام أسبوعا آخر ، فإذا انقضى أقسم رجل آخر اليمين ذاتها ، وهكذا دواليك . . وكنت أسأل نفسى : لماذا لا تظل القرية هكذا فى سلام طوال السنة ، ولماذا يغلب الشر من جديد متى غادر الشيخ ؟

وقد حضرت مجالس كثيرة من هؤلاء الشيوخ واستمعت إلى كلامهم ، فلم يبهرنى منهم علم ولا أحسست بقوة روحية خارقة ، وظهر لى أن الولاية عندهم مهنة متوارثة لكسب الرزق . إننى لا أتهمهم بسوء ، وأبرئهم من بذل أى ضغط أو إرهاب للإثراء ، وإن كان أكثرهم يميل إلى البدانة لا الهزال ، الهدايا تقدم إليهم عن طواعية وطيب خاطر ، ولو رفض الشيخ هدية المريد لأصاب قلبه بطعنة لا يبرأ منها . .

إن نفع هؤلاءالسادة للفلاحين فى عهدى - ولا أعرف الحال اليوم - كانٓ عظيما ، لا يقتصر تأثيرهم على الفلاحين السذج فحسب . كان فى منفلوط كاتب مدرسة لا يرى بأسا من أن يلم بالخمّارة بين الحين والحين ، وأن يكتب العرائض الغُفل من الإمضاء للنكاية برؤسائه وكان من مريدى أحد هؤلاء الشيوخ ، فرأيت بعينى - حين حلَّ الشيخ - وقت نومه أقل من وقت ركوعه وسجوده حتى نبتت له زبيبة الصلاة ، وبُحَّ صوته من

حلقات الذكر وتلاوة الأوراد ، وانقطعت العرائض ونطق وجهه لنا جميعا بحب صادق ، فلما رحل الشيخ عادت ريمة لعادتها القديمة .

وقد شذَّ عنهم وبقى فى ذاكرتى إلى اليوم يحوطه إجلالى وإكبارى ، شخص نحيف ، يكاد يلتهب جسمه ، يشع الذكاء من عينيه ، مبرأ من الدنايا والصغائر ، قد صرع الخداع فى نفسه ، يعلم ما يفعل ولا يفعله إلا حسبةً لله وخدمة لبنى قومه وأخذًا بيد هؤلاء الفلاحين المساكين ، إذا تُركوا لأنفسهم بلا هداية ضلوا ضلالا بعيدا . هو الشيخ إبراهيم القاياتى رحمه الله ، لم أره يرضى أن يُتبرَّك به كالصنم ، وكانت له سطوة كبيرة فى الصعيد وكان له فضل كبير فى فض الحزازات وإبطال الثأر ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها ، لم يكن كل كلامه عن الدين ، بل نصائح أخ مُجرِّب . .

رأيته مولعا بالتدخين . فالتفت إلىَّ وقال :

– لعلك تسأل نفسك كيف ابتليت بهذه العادة وكان خليقا بى فى نظرك أن أبرأ منها ، هذه سفاسف الدنيا ، لا أجد فيها عيبا .

تتبعت فيما بعد بإعجاب كبير أخبارا كثيرة عن الشيخ إبراهيم أبو خليل ، رحمه الله – الذى كانت له مكانة سامية فى الزقازيق – تتبين منها حسن سياسته فى توثيق روابط الألفة والإخاء بين أسر عديدة . وددت كثيراً لو تَجمَّع لى قدر كاف من أخباره لأ ستطيع أن أترجم له وأصف سياسته ، فهذه سمات مهملة فى التأريخ لمجتمعنا الحاضر .

إحصائيات

ينبغى لى من أجـل أن أصل بـك إلى الغايـة أن أقـدم لـك بعض المشاهد .

المشهد الأول :

على الدكة أمام منزل العمدة ، فرشها إكراما لى ببساط منسل حائل اللون . فى يدى أكثرمن عشرين مسألة يحتاج الفراغ منها أن يجند لى العمدة نفسه وأهله وخفراءه وحميره .

التليفـون لا ينقطع عن تلقى إشـارات عاجلة من المـركز . وجـاء الصراف على ركوبته ووقف أمامنا وأنزل على الأرض زكيبتين منتفختين .

– خير إن شاء الله ؟

–آدى الـلى طلعنا بـه من المركـز بعـد مـا دوخـونـا . وجـع دمـاغ واصل . . استنى لما تشوف .

أخرج الصراف أمعاء الزكيبتين ، لفات ضخمة من ورق الميرى ، ولما فكّها وجدت أمامى أكبر استمارة رأيتها فى حياتى ، كأنها لحاف ، لا يقل عرضها عن نصف متر ، وطولها عن المترين .

– مطلوب منا فى مدة أسبوع واحد أن نملأ الاستمارات .

– هى إيه المخروبة دى ؟ .

هذه استمارات الإحصاء الزراعى العام . صدر به قانون ، لا أدرى

لماذا صدر ولا من الذى أصدره ، أغلب الأمر أننا دُعينا إلى مؤتمر دولى تعهدنا فيه بتبادل مثل هذه الإحصائيات طبقا لنموذج موحد .

إن مثل هذه المؤتمرات نكبة على الدول الصغيرة التى تنساق محافظة على كرامتها بالتعهد بأعمال تفوق قدرتها .

فالمطلوب أن يحرر كل مزارع هذه الاستمارة ليبين فيها مساحة أرضه وأنواع محاصيله - محصولاً محصولاً - ومقداره وأنواع ماشيته ودوابه ودواجنه ، وأشجاره بالاسم والتحديد .

فى الاستمارة أسماء لمحاصيل وأشجار لا أسمع بها ولا أعرفها . إنها مترجمة من النموذج الموحد . من الذى سيملأ هذه الاستمارات ؟ أين الفلاح الذى يقرأها ويفهمها ثم يكتب بخط واضح - لا كتخربيش الفراخ - أجوبته أمام الأسئلة ؟

أدرك العمدة والصراف أنها مصيبة وقعت على رأسهما . .

وقعد الصراف على الأرض وتناول أول استمارة ورفع قلمه عن أذنه . .

- خذ الأول أرض الباشا . بيقولوا إيه عندك . .
- كام شجرة لبخ . .
- قول عشرة عشرين .
- وكام شجرة بلوط .
- قول عشرين ثلاثين ، حدح يعد ورانا .
- وكام شوفان . .

- شوفان إيه . . جتهم العمى . . والله ما نضرناه . خط أمامه «لم كان» .

لم أقم من مجلسى حتى كان العمدة والصراف قد أنجزا عددا غير قليل من الاستمارات على هذا النحو . وظللت طول الطريق يخيل إلى أن حوافر الحمار تكرر فى أذنى نغمة العمدة :

- حدح يعد ورانا ؟

***

حقن الفروج

المشهد الثانى :

على باب العمدة ، فوق كرسى من القش المبروم ، صمم صانعه أن يلطخه بما بقى عنده من بوية شم النسيم للبيض بالأحمر والأخضر ، بحرى بيت العمدة مسجد القرية ، تفوح منه رائحة لم أر فى حياتى أخبث منها . أكاد أتقيأ ويغمى عليَّ والعمدة ومَنْ حوله ولا هم هنا . . سُمْك قش الكرسى لا يقل عن سنتيمترين ، ومع ذلك نجح البعوض فى أن يشقه من تحت بإبرته - كم طولها - فتنغرز فى لحم فخذى مخترقة مع القش البنطلون واللباس . . أمامنا عدد من دجاج نحيل يتخاطف بقايا روث البهائم .

أدركت أننى قطعت على الجالسين حديثاً يتفكهون به ، بدليل الابتسامة المنتشرة على وجوههم . . ورأيتهم يتوجهون ببصرهم إلى

الصراف وهو جالس على الأرض وبجانبه خُرْجه ودفاتره وفى يده ورقة طويلة عريضة يطبقها . . وكان أول من أعاد الحديث رجل شيخ يلبس زعبوطاً يكشف عن صدره . .

- وبعدين يامقدس خليل . كمل لنا قرايتك قول .

سألت الصراف : إيه الحكاية ؟

فناولنى الورقة فوجدتها إعلاناً كبيراً من وزارة الزراعة عن أوصاف طاعون الدجاج والاحتياطات الواجب اتخاذها لمقاومته : عزل الدجاجة المريضة ، ورش الأرض بالجير ، واستدعاء الطبيب البيطرى ، وأنها مستعدة بلا مقابل لتشريح كل دجاجة ترسل إليها . . فى مخازنها حقنة ضد هذا الطاعون ثمنها عشرون مليماً .

التفت إلىّ الرجل الشيخ قائلاً :

- يا حضرة البيه ، عشنا وشفنا الفروج ينضرب فيها إبرة ، هى الفروج بنى آدم ؟ السنة اللى فاتت شكونى إبرة قعدت أوحوح جمعة ، اشحال الفروج يابوى ؟

ضحك الجميع بسرور وفهمت من تطلعهم إليه واستقرار الأنظار على وجهه ومن استعدادهم للضحك لأقل ملاحظاته أنه فى الغالب عجوز القرية المعروف بدعاباته . . وقلما تخلو من مثله قرية ، رد عليه الصراف .

- بس لو كان عندك كتكوت واحد بلاش نقول فرخة كان يبقى لك حق تتكلم .

- يعنى الفرخة خفت ولاماخفتش مش ح تتاكل ح تتاكل ؟ تو ما تميل رقبتها الواحد يدبحها ويخلص . ومين فاضى يلم الفراخ الميتة ويبعتها للحكومة ؟ دى والله على ما توصل تكون اتعفنت .

صرخ فيه العمدة :

- يا شيخ درويش ، ما تفهم ، عقلك طخين ليه ؟ مانتش عارف ؟ شغل الحكومة كده .

رويت لى عن هذا الشيخ نادرة أراها - رغم ألفاظها المستهجنة - مثلاً فذا للذكاء والبراعة وصدق النظر فى استخراج الفكاهة ، ولا أنكص من أجل هذا عن إثباتها هنا ، تعريفاً للقراء بنوع من دعابات أهل الريف .

مر ذات يوم جمع من الفلاحين متحلق على الأرض حول طبق فيه طبخة عدس جعضيض لا منزوع القشر ولاهو بجبته ، بل هى حبات من العدس لم تنضج فى سنابلها فتباع بثمن بخس .. وغليت بالماء حتى أصبحت عجينه مثل اللبخة .. كريهة المنظر ، لا هى صفراء ولا هى حمراء ، فقال لهم ..

- والله لو فسا عليها واحد من بحرى لقلت انكم تأكلون خـ ..

***

ثلث الزمام

المشهد الثالث :

اجتماع على مستوى عال فى المديرية ، واجتماع على مستوى أوطأ فى

المركز ، ثم انتقالى ومعى قوة من الجند السوارى إلى القرية لأخلع أشجار القطن التى زُرعت فى أكثر من ثلث الزمام .

كانت الحكومة لم تر وسيلة للحد من هبوط أسعار القطن الا أن تحدد الكمية المعروضة منه للبيع ، فأصدرت فى ذلك العهد لأول مرة قانوناً يحرم زرعه فى أكثر من ثلث الزمام ، ولكن لا أدرى ما الذى حدث .

لعل الفلاحين لم يبلغهم خبر القانون الا بعد زرع القطن . أو لعلهم علموا به ولم يأبهوا له ، ظانين أنه حبر على ورق ، على كل حال كان المطلوب منى يومئذ أن أرد القدر المزروع إلى نصابه بالقسر والإكراه . .

وجدت القرية كلها واقفة على رجل . . رجالاً ونساء وأطفالاً ، تجمعوا حولى : « فى عرضك يا حضرة المعاون ، حرام عليك تخرب بيتنا ، بعد شقانا وتعبنا » . أرى بعض الوجوه تكاد تنطق : وماذا يهمك أنت من خراب بيتنا . أنت تقبض مرتبك أول كل شهر .

– هوا ده عدل . .

– طيب استنوا عليه وخدوه قطن شعر .

كيف تطاوعنى نفسى أن أقلع زرع هؤلاء الفلاحين . إنهم لو فعلوا ذلك فى زرع جيرانهم لساقتهم فعلتهم إلى السجن .

فى ذهنى يوم أن حرث الفلاح الأرض ثلاثاً أو رباعاً ، ثم سوَّاها – وهو محنى الظهر – من الصباح للمساء ، ورفع خطوطها وحفر مساقيها . . يوم أن خرج وفى حجره حفنة من بذور ميتة كالحصا ، يغرزها فى جانب الخط ، لا يدرى هل تنبت أم تتعفن وتموت ، يدعو الله يقيها شر ظلمات

الأرض ويريها النور . . يوم أن اتفق مع صاحب الماكنة على رى الفدان ست مرات لقاء ثلاثة جنيهات ، يوم جرى الماء أول مرة فغاص فى قنواته إلى الركبتين ، يوم أن خرج من البذرة بصيص ، ساق هش تتعلق به ورقتان رقيقتان ، عاد فعزق الأرض وخَفَّ القطن ، يرمق النبت مشفقاً ، لو نزل الصقيع لذوى فى طفولته ، أو عصفت به الريح ارتمى صريعاً . .

يوم هددته دودة الورق ودودة الشرانق ، يوم زنقة إطلاق مياه النيل فى الحياض قبل أن ينضج القطن ، بالنهار يحرسه وفى يده نبوت ، وبالليل يهجر بيته ويرقد عند رأس الحقل على بندقية ، يسعل بين الحين والآخر ليجاوبه جار مختف يطلق عياراً فى الهواء . .

وقفت وسط الفلاحين أذكر كل هذا وأحار ماذا أفعل . . فى ذلك اليوم قُدِّمت لى الرشوة لأول مرة ، لا أزال أحس فى يدى ضغط يد فلاح يدس لى ورقة بعشرة جنيهات . . فلم أغضب وسامحت من أراد شراء ذمتى . . ولم يدرك ما أحس به . .

وتحايلت . . أولاً : اخترت جوانب المصارف والمساقى - وأشجار القطن لا تنمو ولا تزهر عندها - وجعلتها قدراً مشاعاً تنتفع به القرية كلها . وثانياً اغمضت عينى ولم أفتح فمى وأنا أرى المسّاح يزوغ ويرمى القصبة مرة بمقام مرتين . .

وعدت مع الغروب إلى بيت العمدة وجلست أمامه ، أرى ألسنة من نيران حمراء تنبعث من أكوام الحطب المكوم . وليكن فى علمك أننا طالبنا أهل القرية أن يقدموا لنا أيضاً البترول الذى نحرق به زرعهم . .

ذكرنى ذلك بما قاله الجبرتى عن محمد على عند وصفه لتشغيل العمال بالسخرة ، إذ أنه كان يجبرهم أيضاً على أن يدفعوا من جيوبهم أجر الطبال والزمار والمنشد الذين سيسوقونهم بألحان تفعل فعل السياط لينشطوا فى إنجاز مهمتهم . .

وخرجت من القرية وقد لف الليل ما تراه عينى من أشخاص ، أحالهم إلى أشباح مطأطئى الرءوس يمصمصون شفاههم عجباً وحسرة . .

كانت هناك هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة ، انتهى أمرها والحمد لله . كانت عنده حينئذ - فى عهدى بالصعيد - ليست خادماً مُعيناً ، بل سيداً مستبداً جاهلاً ، نفعه قليل ولكن ضرره أكثر .

لم أسلم طول خدمتى بالصعيد من الشعور بالأسى لهذه الهوة . ووجدت معظم أشغال الحكومة - رغم حسن نيتها - يُساء تفسيرها وتُعرقل وتُهدم ، وحاولت بكل قواى - بل جعلت ذلك خطتى وديدنى - أن أستلين الفلاح حتى أجعله يثق بى ، فلم أُفلح .

فى ذهنه اعتقاد راسخ بأن الحكومة لا تفهمه ، وأن الموظفين أغراب أُجراء لا يهمهم الا قبض مرتبهم ، وقلوبهم ليست معه ، وأكثر عبارة يرددها - كما رأيت - شغل الحكومة كده !

* * *

ورق لصق

وذات يوم تملكنى الهياج وضربت كفا بكف وأنا لا أتمالك نفسى على هذا من الضحك .

هذه حادثة لا أزال أذكرها وأرددها فى أحاديثى .

استمع لها :

كان بريد المركز يجرى على سُنَّةٍ قديمة ، اذا وصلتنا عريضة من إنسان وأردنا أن نستفسر من المديرية عن رأيها كتبنا بذلك رسالة وشبكناها بدبوس فى العريضة وأرسلنا الاثنتين إلى المديرية ، فيجيئنا الرد ثلاث ورقات ودبوس واحد ، فنعيدها إليها وقد أصبحت أربعاً ، وهكذا دواليك فيزداد عدد الدبابيس أيضاً ، حتى تصبح الأوراق والدبابيس ، فيها من الأوراق الكبير فى حجم نصف الفرخ ، والصغير فى حجم تذكرة الترام ، وأوراق مُسَطَّرة وأوراق غير مُسَطَّرة ، فيها ردود مكتوبة على الهامش يميناً أو شمالاً أو من فوق أو من تحت ، وردود مكتوبة على ظهر ورقة أجنبية لا علاقة لها بالموضوع ، يتبادل خطها رجال متعلمون ورجال لا يكادون يعرفون فك الخط . . الإفادة الواحدة متحف متنقل لنماذج الخط فى مصر . . وكان لابد من إرسال هذا الكوم كله فى كل مرة نحتاج فيها إلى استفسار وإن كان لا يتطلب الرجوع إلى هذه الأوراق كلها .

وكان لا يزال بالمركز آلة تشبه آلة كى الطرابيش تطبع فى دفتر ورقه شفاف صورة من مراسلات كتبت بالحبر الزفر ، فيخرج الأصل والصورة

معاً مقرطمة الأحرف ، مفرشحة السطور .. تحتاج من قارئها علماً لَدُنياً ..

هذا هو نظام «الكوبيا» ومع ذلك كانت هذه الآلة لا تستعمل إلا نادراً*.

فى صباح يوم وأنا أفتح البريد انبعثت لى منه رائحة حريفة ساطعة ، تشممتها فإذا بى أجد لها قرباً برائحة الخردل ..

يارب ما هذا ؟ وجدتها تفوح من إفادة بدأت بأن قدَّم فلاح فى قرية طلباً لفتح دكان بقالة ، فدارت هذه الورقة البسيطة بين القرية والنقطة والمركز والمديرية وتفتيش الصحة زهاء سنة ، ذهاباً وإياباً حتى انقلبت الورقة الواحدة إلى كوم ضخم من أوراق متربة متسخة ممزقة الجوانب مقصوصة الرقبة .

وكنت أعرف عمدة القرية وأحبه وأحترمه ، فهو من خريجى الأزهر الشريف ، ولأنه نظيف فى مسكنه وملبسه ، ولأنه أيضاً كريم النفس ذو حياء رقيق .. والظاهر أن كاتب صحة المديرية انتبه بعد سنة إلى أن طلب فتح دكان بقال ينبغى أن توضع عليه ورقة دمغة كانت تسمى فى عهدى (لا أدرى قبل أم بعد إنشاء مجمع اللغة العربية) ورقة لصق ، ثمنها ثلاثون مليماً . فكتب للمديرية يقول « نرجو التنبيه على مقدم الطلب بفتح دكان بقالة أن يرفق بطلبه ورقة لصق بثلاثين مليماً » . أرسلت المديرية الأوراق

* («الجمهورية» ، ١٩٥٩/٦/١٢ ، ص ١٠)

إلينا فأرسلناها للنقطة فأرسلت للعمدة فعادت إلىّ تنبعث منها رائحة الخردل .

فتّشت فى الأوراق فوجدت العمدة قد كتب « الأوراق معادة للنقطة ومعها ورقة اللصق المطلوبة بثلاثين مليماً » أتدرى ما الذى بعث به ؟

بعث لنا بورقة «لزقة» ويلكوكس من التى توضع على الظهر أو الصدر لعلاج البرد فى الشتاء . . وكان ثمنها فى عهدى ثلاثين مليماً .

ضربت كفاً بكف وكدت أولول كالأرمل الحزين تسير فى جنازة زوجها «يا دى الداهية السودا ! يادى المصيبة !» وقمت من فورى إلى التليفون وطلبت العمدة وطلبت اليه ان يسرع بالمجىء إلىّ لأمر عاجل هام جداً جداً .

فجاءنى مضطرباً ولكنى تركته يجلس برهة يسترد فيها أنفاسه وطلبت له فنجان قهوة وظللت أتأمله ثم قلت له بصوت ضمنته كل ما يقدر قلبى من حنو وإعزاز :

- يا شيخ فلان . . أنت من خريجى الأزهر ، أنت رجل ذكى متعلم ، فبالله عليك خبّرنى ماهى العلاقة فى نظرك بين طلب فتح دكان بقالة وبين احتياج الحكومة لورقة لزقة ويلكوكس ؟ . . وحتى على فرض أن رئيس الوزراء أو وزير الداخلية أو مأمور أو معاون الإدارة أو ضابط النقطة مصاب بالروماتزم فهل تعتقد أنه يربط بين علاجه وبين طلب فتح دكان بقالة ؟

احمرّ وجهه خجلاً ولكنه تجلّد ، وقال وهو يطالع وجهى كأنه يريد أن يفضفض لأول مرة بكلام طال حبسه له فى صدره :

- والله ياسيدى لفندى سألنا عن ورقة اللصق فلم يهدنا أحد . لم نسمع بها من قبل . وقيل لنا إن أجزاخانة فى البندر تبيع بثلاثين مليماً لزقة مسعرّة كورق البوسطة . . فقلنا لا بد أن تكون هذه الورقة المطلوبة للحكومة فأرسلناها .

- وهل دخل هذا فى عقلك ؟

- أعمل إيه ؟ شغل الحكومة كله كده .

***

فراغة عين

وكان مما يزيد الهوّة بين الفلاحين والحكومة فى العهد الماضى الذى أتحدث عنه أن بعض الموظفين - لا كلهم - كانت عيونهم فارغة ، هم الذين حملوا الفلاح على أن يصف عملاء الحكومة عنده تارة بأنهم « أُجَرية » وتارة بأنهم من « الشبّاحين » ، يجهر بهذا القول ولا يخفيه . استقر فى ذهنه - وان كانت أسانيده حوادث غير كثيرة - أن هؤلاء الموظفين يعتقدون أنه راقد على كنز وأن خيرات أرضه موفورة مبذولة .

لذلك رأيت الفلاح يحاذر أن تظهر عليه دلائل النعمة ، فهذه هى خطة دفاعه التى ورثها عن جدوده حين كانت تمزق السياط ظهورهم لتحصيل الضرائب منهم ، لا حاجة لأن نرجع إلى أيام المماليك ، بل يكفى أن تقرأ سيرة محمد عبده وعلى مبارك - ما أعظمهما من رجلين من أبناء الفلاحين - لتعرف ماذا كان يلاقيه الفلاح لابتزاز المال منه . حدثت

هجرات جماعية كثيرة ، سكان قرى بأكملها يرحلون منها ، في الوجه البحري من فر من الديار كلها إما شرقاً إلى سوريا ، أو غرباً إلى ليبيا وما بعدها . لا أجد مع الأسف من يؤرخ لهذه الهجرات ويتتبع أخبارها .

قد لا يخلو حذر الفلاح من ظهور دلائل النعمة عليه من خوفه أيضاً من الحسد ، فإنه يعيش في رعب دائم من العين الزرقاء يخاف منها على نفسه وأولاده وحيوانه وزرعه . الحديث عن الحسد يشغل جانباً كبيراً من سمرهم . رُويت لي حكايات عن رجل كان يكفي اذا رأى قافلة من الجمال تهل من بعيد أن يصوب إليها نظره ، ويقول : ما أحسنها ! حتى تهوى الجمال على الأرض وتنفق . . تروى هذه الحكايات بلهجة التأكيد فلا سبيل لك أن تجادل فيها .

من أثر هذا الحذر على الفلاح أن قلّ اهتمامه بنظافة ملبسه ومسكنه . رأيت رجلاً من الموسرين من سكان القرى يتعمم بقماش يلفه حول رأسه كالخرطوم قد اسودّ لونه من القذارة ، تقززت له وأنِفت لوجه ينطق بالذكاء أن يُمتهن هكذا . لم أتمالك نفسي - وكثيراً ما أُقحمها بغباء ! - وسألته :

- ياعم فلان لماذا لا تغسل عمامتك ؟

أتدرى ماذا كان جوابه ، مكر عليَّ وأجابني :

- ياسيدنا لفندى بني آدم من التراب وإلى التراب يعود . .

كأن الزهد عنده صنو للقذارة . .

ينبغي لي هنا أن أفي بحق فلاح واحد بقيت صورته في ذهني إلى

اليوم ، أكاد أراه أمامى وأنا أكتب هذه الكلمات . هو وحده الذى استوقف نظرى - فى مدى سنتين كاملتين - بنظافته .

أمرُّ عليه فى أرضه - تقاس بالقراريط فحسب - فأجده يحرث ويعزق وجلبابه الأزرق يشف ويرف ، نطق لى هذا الجلباب لأول مرة بجماله ، وكنت أراه مرفوع الرأس معتداً بنفسه ، وكنت أسلم عليه فى كل مرة ، وأتحدث إليه حتى زالت الكلفة بيننا ، فأفضيت له بعجبى من نظافته وشذوذه عن بقية الفلاحين فأجابنى :

- أنا رجل أؤدى الصلاة ، أتوضأ خمس مرات . إن الإسلام دين النظافة يكره الخَبَث والنجاسة .

* * *

أعود إلى الحديث عن الموظفين وفراغة أعينهم ، قد يكون تفسيرها عند بعضهم هو وهمهم فى ربط قدر الوظيفة وأبهتها بمقدار ما يلقونه من الإكرام حين ينزلون على الفلاحين ، فالعمدة قد يُقدِّم لصغار الموظفين قطعة جبن وبصل ، وإن بالغ فى إكرامهم سلق لهم بيضتين ، وإن لم يكن فارغ العين - غضب وأحس أن كرامته قد أهينت - فيقدم له العمدة الطبقين الخالدين فى الريف ، بامية وملوخية قرديحى عليها أشبار من السمن والمرق الأحمر ، فإن قدَّم هذا للمأمور كانت وقعته سوداء ، إن مقامه دجاجة على الأقل ، أما المدير - إذا شرَّف - فله خروف ، هكذا كانت التسعيرة فى عهدى .

ووجدت الموظفين يتندرون بعبارة تدور على أفواههم لم أفهمها أول الأمر وهى «التعيين الناشف».وأدركت فيما بعد أنهم يقصدون أن الموظف

إذا لم يأكل عند مضيفه ، فليس معنى هذا أن حقه قد سقط . فالمفروض أن يلف العمدة حينئذ شيئاً من الطعام - حسب المقام - ليحمله الموظف عند عودته إلى داره . هذا هو التعيين الناشف . وكان مما يحسب من المهارة نجاح الموظف فى الحصول على التعيين الناشف ليشاركه أهله فيه بدلاً من أن يأكله وحده فى الدوار . ولم أسمعهم يصفون هذه الأكلة - كما هو المنطق - بالتعيين السائل .

لا أزال أذكر يوم أن ذهبت مع المأمور للتحقيق فى واقعة إلى قرية ونزلنا على عمدتها . رأيت التحقيق خليقاً أن يتم فى ساعة أو ساعتين على الأكثر . ولكن المأمور أخذ يمطه مطاً شديداً ويقول للمتهم :

- وكمان سين،إيه قولك فى أن . . .

سؤال فارغ لا يقدم أو يؤخر ، والعمدة يلزمنا تارة ويغادر القاعة تارة أخرى ، قلقاً كأنه فى ورطة ، حتى حل موعد الغداء وحل المأمور أزرار سترته ، وانكشف بطنه ، ومال برأسه على الدكة ، وتشبثت قدماه بالأرض .

وجاءنا الطعام تزينه دجاجة سمينة (راجع التسعيرة من فضلك) . .

لم نكد نخرج من الباب حتى أقبلت امرأة تصرخ وتولول وكادت تمسك بتلابيب العمدة :

- يا عمدة حرام عليك ! ما لقيتش إلا واحدة ولية غلبانه زى حالاتى تاخد فرختها وهى سارحة فى السكة . حرام عليك ، تنزل لك بالسم الهارى .

أدركت أن العمدة اغتصب الدجاجة من إنسان ضعيف ، وأحسست بخجل شديد ، بل خفت أن يستجاب دعاؤها ، فدعاء المظلوم مستجاب . وقفز المأمور إلى البوكس وقفزت وراءه . هذه مسألة لا شأن لنا بها تُسوَّى بين العمدة والفلاحة . ورأيت المأمور يعتبر الحادثة نادرة تُروى فتُضحك عن شُحّ بعض العمد واستغلالهم للفلاحين ، واستمر يضحك طول الطريق . . والغريب أنني أيضاً أشاركه فى ضحكه .

كنت لا أعرف شيئاً عن هذا كله فى أوائل عهدى بالعمل ، ولكن المشكلة تبينت لى سريعاً فما أكثر ما يمضى معاون الإدارة نهاره كله بعيداً عن داره ، خرجت ذات يوم مع لجنة المساحة لنقيس أرضاً تُسمى بطرح البحر ، معنا شيخ القرية ، والمسّاح وصبيّه ، واثنان من الخفراء ، وجنزير طويل يصلصل هو عدة الشغل . شققنا الغيطان حتى وصلنا إلى النيل ، البرسيم علوه شبران ، أخضر ندى ، مربوط عليه هنا وهناك بقرة أو جاموسة مستغرقة فى سعادة كبرى وهى تلوكه بين فكيها وتهز أذنيها ، ما كان أخشن أكلها فى الشهور الماضية ! لا أعرف شيئاً يفوق وداعة عينيها . فوقنا سماء رقيقة السحب ، والهواء صاف شفاف كأن يدا من السلام والطمأنينة تمسح على جبهتى ، أحسّ أنا القاهرى أن نوافذ مغلقة فى نفسى تتفتح لأول مرة . انقطعنا عن العالم كله وخلونا إلى الأرض والزرع والحيوان والنيل ، غمرت قلبى راحة جميلة تمنيت ألا تفارقة أبداً . هذا الجو ساعدنى على أن أرفع الكلفة بينى وبين أصحابى كأننا فى نزهة تزول فيها الفوارق . هذا طبعى وكثيراً ماجرَّ على المتاعب فى حياتى .

واقترب الظُهْر وولى ، وأحسست بالجوع ، ورأيت بين القوم مسارة

تجمّعت فيها رءوسهم ثم جرى أحد الخفراء للقرية ، فرحت بهذه المسارة وبمنظر ساقى الخفير فى جريه ، ولكنى أرجو ألا يضحك القارىء إذا قلت إننى توقعت فى سذاجتى وأوهامى أكلة شاعرية تنسجم مع هذا الصفاء وتنسجم مع مشاعرى . . لو سألتنى أن أصفها لك بالتحديد لما استطعت ، كأننى أتوحم على أكلة تهبط علينا من السماء لم تصنعها أيدى البشر . .

وبعد غياب طويل زاد فيه جوعى عاد الخفير وفى يده صرة منبعجة ، فترك القوم عملهم من فورهم . فرشوا لى حراماً أجلسونى عليه ، ثم تحلّقوا حولى على الأرض عن يمين ويسار ، فى وجوههم سعادة كبيرة أن تألفت قلوبنا ، هم فى فرح لأننى سآكل معهم مثلهم . لم أصبح عندهم من الأجرية أو الشباحين . وفُتحت الصرة فإذا بها لا تحتوى الا على خبز بائت وبصل مستدير .

أقول لك الحق إننى رغم إدراكى لمعنى فرحهم وسعادتى به أحسست بخيبة أمل كبيرة ، وصعبت علىَّ نفسى . لم يحدث لى قط من قبل أن اقتصرت وجبة لى على خبز وبصل ، حتى يوم كنا - من أجل تحريش المعدة - نطبخ بصارة يستحب معها أكل البصل . أعاف البصل المستدير لأنى أرى لقضمه بالأسنان وهو يحشو الفم منظراً قبيحاً ، وأفضل عليه البصل المنسرح المبروم ؛ أهذه هى الأكلة الشاعرية التى تهبط علىَّ من السماء ؟ خجلت من الاعتذار وأكلت معهم على مضض ، كم تمنيت أن لو كانت نفسى أقوى وأنبل وعلت عن سفاسف الأنفة والحرج ، وتأملت الأرض والزرع والحيوان والنيل من حولها مرة أخرى ، وصحبة أناس بذلت

بساطتهم مع الود ما تملك أيديهم ، إنها لو كانت كذلك لأدركت حقاً أن السماء قد استجابت لدعائها ، وأن كل أكلة سواهـا ماكـانت تكون إلا شذوذاً وغلطاً وتلفيقاً وقبحاً .

عرفت يومئذ كيف يؤكل فحل البصل ، يوضع على الأرض ويدش بقبضة يد لها وقع الحجر أو يد الهاون ، فلما هممت أن أقلدهم أحسست بوجع فى كلية يدى ، فأكرمونى أيضاً بدش فحل البصل لى ، يقدمونه إلى كأنه دجاجة فصصوها لى بأيديهم . ليس معنا سكين ، ولا حتى مبراة ، معنا أسناننا فحسب .

كدت بعد الأكل أرقد سطيحة ، وأنام حتى لو وضعت رأسى على ركبة المسَّاح ، وظلت رائحة البصل تليس فمى ولسانى وحلقى إلى صباح اليوم الثانى ، أحس له بغليان فى جوفى . . عشت بعد هذه الأكلة يوماً كاملاً وأنا سيىء الخلق ، مناكف ، شرس ، جحود ، كافر ، إذا كان هذا حالى بعد أكلة واحدة فما بالك برجُال - كل منهم كالشحط - لا يأكلون إلا هذا الطعام فى أغلب الأيام .

وكما صعبت على نفسى يوم مأدبة البصل المستدير رثيت لها - واختلط الرثاء بالحزن والغضب - حين دق بابى بعد العشاء ذات ليلة رجل له عمل عندى . لم أكد أوارب الباب حتى مرق منه كأنه هارب يلتمس النجاة ، يده وراء ظهره ، ولما اطمأنّ أن لا ثالث معنا أعادها إلى الأمام ورفعها إلى علو وجهى - وهى مسافة قصيرة - يطلب إلى عينىَّ - وهو يبتسم - أن تتمليا من بهاء سمكة كبيرة تتدلى من حبل من خوص ، تلمع فى العتمة ، وهو يقرّبها أيضاً إلى أنفى . . هذه هى رشوته لى ، لم يكن غضبى لإقدامه

على شراء ذمتى ، بل لحكمه على بأننى رجل بِطَنى شبّاح فارغ العين ، ما أظن أنه اشتراها بل صادها ليصيدنى بها .

ليس من الحلول العملية أن أحمل معى طعاماً وأنا خارج من الدار ، فإنى أخجل إذا حلَّ موعد الغداء وكنت بين الفلاحين أن آكل وحدى - ودونهم - ما حملته يداى ، وليس مما أستسيغه أن أفرض نفسى على مضيفى ، وهل أنا أعمى ؟ يكفى أن ألقى نظرة إلى الدار ، ليس فيها شىء يمت إلى كلمة «الأثاث» بصلة ، سوى عدد من كراسى القش ، مهشمة بالية . من بيوت الفلاحين التى دخلتها كثرة ليس فيها إلا الأرض والجدران وفرن سماوى تنضج على بلاطته أرغفة من دقيق الشعير زرق مكببة ، هى كل طعامهم .. مع المش أو البصل . لا شىء غير هذا ، اللهم إلا إذا عددت بوص الأذرة الذى يغطى أرض القاعة نوعاً من السجاد .. واعتدت أن أقسم لمضيفى بأغلظ الأيمان - كذباً - أننى مريض أو شبعان ، حتى ألفت أن أقضى نهارى صائماً ولا آكل الا إذا عدت للدار . ووجدت مع الزمن أن صحتى تحسنت وزال ترهلى وصلب عودى وزادت مناعتى ، فحمدت الله ..

***

نهم للمال

تعلو فراغة العين إلى درجة تهدد المروءة ، وتقلب الإنسان المتعلم ابن الناس إلى وحش ضار لا يشبع نهمه . لا أتورع هنا - كما عاهدت القارىء

- عن الإدلاء - غير ملفّق ولا مبالغ - بقبح شديد يبلغ مبلغ الإجرام ، رأته عيناى ، ومن الخير أن أصف بعض ما كان يعانيه أهلنا ، للدرس والعظة ، ولكنى أحب أن أنبه إلى أننى أصف عهداً مضى عليه أكثر من ثلاثين سنة ، وأرجو ألا يحمل كلامى على محمل التعميم ، فمن الطائفة التى سأتحدث عنها كثرة أُقِرُّ لها بالفضل والإحسان ، ولكن كان يزاملها مع الأسف ، قلة دنيئة مجنونة ، كرهت من عشرتها الحياة ، وأنفت لنفسى أن تسوى بينى وبينهم كلمة إنسان .

عرفت طبيب مركز كان همه هو الإثراء ، الإثراء العاجل بأى ثمن ، إن نهمه للمال لا يقف عند حد . دع عنك استيلاءه - ظلماً وعلى خلاف القانون - على جنيه كامل من كل فلاح يكشف عليه ليشهد بصلاحيته لوظيفة «خفير» فإذا دفع المبلغ أجازه ولو كان أعمش ، وإلا فلا ولو كان له عين النسر ، بل الداهية حين ينتقل معنا إلى القرية حيث ضرب فلاح فلاحاً برصاصة أو سكين أو شومة . يعلن من فوره أن المصاب ينبغى أن ينقل للمستشفى ، إلى «القشلة» - هل هى مشتقة من كلمة الأشلاء ؟ لست أدرى - والمستشفى فى بندر المديرية بيننا وبينه مائة كيلو متر على الأقل . كلمة المستشفى هى السيف الذى يُشهره طبيب المركز فى وجه الفلاحين وهم فى عز النكبة ، فإنها تقع على المصاب وأسرته وقع الصاعقة ، هم يؤمنون إيماناً لا يتزعزع أنه لو دخلها لما خرج حياً ، ثم كيف يُنقل ، وكيف يزار ؟ إنها مشقة لاقبل لهم عليها . حينئذ يأتى دور «حلاق الصحة» أراه يجوس خلال أهل المصاب ، يقول لهم : لو شئتم لتولى الدكتور علاجه هنا تحت مسئوليته ، فلا يذهب للمستشفى ، وإن أقل أجر يرضى الدكتور مبلغ كذا من الجنيهات . . يدور بين أهل المصاب

تشاور ، رءوسهم دائخة ، وعيونهم زائغة . يصطدم فى اللخمة واللهفة بعضهم ببعض ، ويكثر القيام والقعود ، وتختلط أصوات الرجال بأصوات النساء ، أنستهم داهية الدكتور داهيتهم الكبرى . . ثم يدور بينهم وبين الحلاق فصال ومساومة ، وتَشفُّع ، وتوسل ، حتى يستقر الرأى على الأجر الذى يرضى الطبيب ، فيتفرق بعض الأهل جرياً للبحث عن المال ، لا يبرح الطبيب القرية حتى يضعه فى جيبه ، أما العلاج فسيتولاه بطبيعة الحال حلاق الصحة .

لا تبرح ذهنى ذكرى جلسة لى مع هذا الطبيب فوق مقعدين على الجسر عند قرية ، ننتظر إصلاح عجلة السيارة . . تلفنا ليلة غطيسة غابت نجومها . . لا ينقطع زن الجنادب ونقيق الضفادع كأنما طار من هلع لبها ، فهى ترى دوننا روحاً شريرة تخرخش فى غيطان الأذرة ، توشك أن تدهم الأرض . وجرى بيننا - دفعاً للانقباض - سمر لذيذ ، تتخلله الضحكات العالية ، ثم إذا بأذنى تسمع من تحت الجسر صوتاً خفيضاً يهمس بتوسل ذليل :

- يا دكتور ، سايق عليك النبى ، أنا فى عرضك . اعمل معروف . .

يقطع الدكتور كلامه لى ويلتفت إلى مصدر الصوت - وأنا لا أرى صاحبه - ويصرخ :

- هات الريال وتعال . .

- ما عنديش الليلة دى ، ما احكمش على قرش واحد ، من فضلك وإحسانك . . أنا تعبان بالحيل . . حاتفرّتك .

- ذنبك على جنبك .

سألت الدكتور عن الذى يطلبه منه الرجل . والعجيب أنه أجابنى بلا خجل وهو يضحك : إنه فلاح يعرفه عنده حصوة فى المثانة ، تتحرك أحياناً فتمنعه من التبول ، فإذا حدث له هذا جرى إليه فى المركز فسلّك له مجرى البول بالقسطرة لقاء ريال كل مرة .

- والقسطرة مش معاك دلوقتى ؟ .

- أيوه . .

- وفيها إيه لو تريّحه ، حرام عليك .

- سيبه ده ابن كلب ، الريال أحسن من عينه .

وقمنا إلى السيارة ولا يزال الشبح من تحت الجسر ينادى :

- يادكتور سايق عليك النبى ، أنا ح اتفرتك .

وهذه حادثة ثانية تعود هى الأخرى إلى ذهنى .

ويـل لى ! كنت أحسب أن هذه الـذكريـات قد هضمتهـا وفرزت خبثها ، إذا استثرتها عادت،بعد مرور الزمن الطويل ومع ماينشأ معه من تسامح حتى مع ألد الأعداء،وهى محطمة الأنياب مقلمة الأظافـر ، وأنا هادىء النفس رابط الجأش ، كأنما أنقل عن شاهد غيرى . فإذا بها وأنا أفك عنها الأكفان البالية تهب ضارية تنهش قلبى ، فأتوجع لها بمقدار يفوق توجعى حين افتراسها لى أول مرة .

جناية قتل بشعة فى إحدى القرى ، رجل يملك فدانين لا غير ، وله

خمسة أولاد كبار ، كلهم من الفلاحين الجائعين لـلأرض . ماتت أمهم وتزوج الأرمل - فى أول يوم بعد الأربعين - بفتاة صغيرة*.

ستأتى لهم بمن يشاركهم فى الميراث ، لا ولداً واحـداً بل ربمـا زربة عيال ، صبيان وبنات ، تزعَّم الابن الأكبر الثورة ضد الأب وبيّن لإخوته أن لا نجاة لهم الا بقتل أبيهم ، فيهم من انصاع له وقبل الاشتراك فى الجريمة ، وفيهم من نصحه مكراً وسحب يده وإن علم بالذى سيحدث وباركه فى قلبه (كأنها أسرة كارامازوف) . وانفرد الابن الأكبـر بأبيـه فى الحقل وغافله وهوى على رأسه من الوراء بالشومة .

وصلنا - ومعنا الطبيب - بعد الحادثة بساعات غير قليلة . . وجدنا المصاب راقداً على الأرض ، فاقـد الوعى لا ينـطق رغم انكباب بعض الناس على أذنيه ينادونه باسمه . . عظام رأسه سليمة ، ولكن الضـربة أحدثت شرخاً فى قاع الجمجمة . أخذ الدم يتسرب منه إلى جوفه ، فرأينا تنفسه البطىء نوعاً من البلع ، وكدنا نلحظ بطنه وهو يعلو شيئاً فشيئاً . . ملت فوقه أحدق فى وجهه ، حتى لحيته ازرق لونها ، لا أدرى لماذا وهمت أنه رغم انعزاله عن عالمنا وعجزه عن الإتيان بأقل حركة حتى من أهداب عينيه ، أن ذهنه لا يـزال - وسط ضجة كـأنها قرع أجـراس ضخمة - حاضراً معنا يعى ما يدور حوله ، لم يكن الموت بل هذا الجمع الغريب بين الحضور والغياب هو الذى هزَّ قلبى . . ثم بدأت حشرجة الموت .

---

* (« الجمهورية »، ١٩٥٩/٦/١٩ ، ص ١٠)

أتدرى ماذا كان يفعل الطبيب فى هذا الوقت ؟ أرسل صبى الحلاق ليقول للزوجة الجديدة إن الدكتور مستعد لإجراء جراحة للمصاب إذا دفعت له مبلغ كذا ، قبلت المرأة من فورها دفع مايطلبه ولكنها استمهلته قليلاً حتى تجمع هذا المال من هنا وهناك وأخرج الطبيب من حقيبته أدوات الجراحة ووقف ينتظر . . نعم ينتظر ورود المبلغ ، فإذا برجل من الملتفين حول المصاب يرفع رأسه ويقول :

- خلاص طلع السر الربانى . .

أعاد الطبيب أدواته إلى الحقيبة . . لم أتمالك نفسى أن أسأله :

- كيف ترضى إجراء الجراحة له وهو فى النزع الأخير . ثم أنت تعلم أنها ليست جراحة تربنة ، فليس الكسر فى عظام الرأس بل فى قاع الجمجمة ، ولا حيلة لك فيه (كنت فى ذلك الوقت أقرأ كثيراً فى الطب والأمراض) .

فأجابنى :

- واجب الأطباء التدخل مادام فى المصاب عرق ينبض ! حتى ولو كان الأمل فى نجاح الجراحة واحداً فى الألف . .

كان يريد إجراء جراحة لميت ، من شدة جشعه للمال .

أطبقت الكلبشات على معصمى الابن الأكبر .

الجنود الذين معنا من السوارى ربطوه بسلاسل وجرُّوه جرياً وراءهم من القرية إلى المركز ، وهى مسافة طويلة . كنت أركب البوكس فورد مع وكيل النيابة والمأمور والطبيب وضابط المباحث . صليل السلاسل لا يفارق

أذنى . لم أجد فى نفسى الشجاعة أن أقول لهم «أركبوه معنا» لا أحتمل - رغم بشاعة الجريمة - رؤ ية إهدار الكرامة والتعذيب ، لم يصبح إنساناً بل أدنى من الحيوان . أمد رأسى - حتى تكاد تنقصف رقبتى - لأتطلع إلى وجهـه ، والعجيب أننى رأيته متهللا لا تفـارق الابتسامـة شفتيه طـول الطريق . كأنما وجد بهجة كبيرة فى أن يكون بطل هذا الركب كله ، لولاه لما كان . . .

فى أغلب الجرائم التى حضرت تحقيقها تملكنى شىء من الحيرة . هل أنا صادق أم واهم ، أحس فى المتهمين نشوة عجيبة ، فكأنهم يترددون فى الجريمة بلذة ، شأن المسحورين . . قد يكون تفسير هذا أنهم يخرجون من الضياع إلى مسرح تسلط فيه عليهم الأنوار ، ويقوم لهم المركز ويقعد ، وتجىء لهم النيابة بجلالة قدرها .

* * *

كلبشات

على ذكر الكلبشات : لابد لى هنا أن أروى حادثة أراها من أغرب النوادر فى تاريخ الإجرام .

عربة السبنسة فى قطار الصعيد تكاد - والنهار والحر فى عزهما والنوافذ مفتوحة لأنها مخلوعة ـ تجللها عتامة هى خليط من بخار مشبع برائحة الحلبة والعرق تفوح من أجساد ومقاطف مكدسة ، ومن كلام - كهلوسة محمومة - متشابك له دوى كهدير البحر ، ومن زعابيب مجنونة من التراب تقفز

إليها وتحوم فى جوها كأعمدة الدخان ، كأنها سوق قائم لم ينقصها رجل «أفندى» منتصب وسطها - كالمؤذن فى مالطة ! - فوق الرءوس ، يهتز جسمه لأنه واقف على زكيبة - فهو جوال لا مقعد له - ومع ذلك فإن صوته لا يرتعش وهو يعدد مزايا القطرة العجيبة التى تشفى اللحمية والشعرة واحمرار الجفون وتمنع الدمعة والعماص . . . ثمنها بالأجزاخانات عشرة قروش ولكنه - إكراماً لهم - يبيعها بخمسة فقط ، والأجر والثواب على الله . .

بجانب إحدى النوافذ يجلس جندى عائد إلى نقطته بعد أن سلّم متهماً للمركز ، وجاءت جلسته أمام فلاح يضع تحت مقعده قفة كبيرة غطاها بلحاف . وكان الجندى يمسك بيده زوجاً من الكلبشات بقى مفتوحاً بعد أن خلعه المركز عن يدى المتهم ، وأخذ من قبيل التسلية يديره حول أصبعه ، كأنه طفل يلهو بلعبة . . بريق حديده يسقط على عينى الفلاح فلا يحيد عنه بصره ، بعد قليل بدأ يتكلم ويقول إنه لم ير من قبل الكلبشات عن قرب ، وما كان يحسب أنها تفتح هكذا . وأبدى عجبه لصنعها بحيث تقفل وتفتح .

قال له الجندى وهو يمازحه : «أتريد أن تجرب ؟» فمد له الفلاح معصميه فأدخلهما الجندى فى الكلبشتين ومال بطرفهما المفتوح شيئاً فشيئاً وهو يحاذر أن ينتهى عبثه بإغلاقهما . ثم إذا - وهما يضحكان - بتكة خفيفة تعلن لهما أن الكلبشات قد انطبقت . . . يادى الداهية السودا !

ماالعمل ؟ ليس مع الجندى مفتاحهما ، إنه بالنقطة . . وهل يترك الجندى الكلبشات فى يد الفلاح ويعود للنقطة ليواجه تحقيقاً ينتهى بتقديمه

لمجلس التأديب ؟ كان جزعه أشد من جزع الفلاح لا تفارقه ابتسامة بلهاء . كل أسفه أنه لا يستطيع فى ورطته أن يضرب كفاً بكف . . لا مفر إذن من أن يعدل الفلاح عن متابعة سفره وينزل مع الجندى للذهاب إلى النقطة ، فلربما سامحه الضابط حينما يشرح له سوء حظه ويطمئنه على أن عهدة النقطة رُدَّت إليها سليمة وإن كانت مغلقة !

وجاءت المحطة ونزل الجندي وسار الفلاح وراءه . . فاستوقفه قائلاً «القفة القفة ! أوع تنساها . . هات أشيِّلك فوق رأسك . . »

لا أدرى ما الذى حدث بالنقطة هل سقط اللحاف عفواً؟ أم دس الجندى فيها يده يحسب بها شيئاً يؤكل . كشفت القفة فى النقطة عن سرها فاذا بهاتحتوى على جثة رجل مقطعة أربع تربع .

واعترف الفلاح بأنه هو القاتل وأنه كان يريد الهرب وترك القفة فى القطار . .

***

تشريح الجثة

ونعود لصديقنا فارغ العين طبيب المركز . لقد ذكرت لك أمثلة من تكالبه على ابتزاز النقود من تحت الأرض ، قد أغفر له جشعه - فللمال سحر لا يقاوم ، تذل له النفوس - ولكن لن أغفر له أبداً فعلة لم يكسب منها مليماً إنما تدل على غلظة فى الطبع ، وبلادة فى الحس ، ومجافاة لأبسط مطالب الذوق ، واستهتار بشع بكرامة الإنسان وشعوره .

ذهبت معه فى جناية لا تزال ذكراها تحزّ فى نفسى . فتاة بكر حملت من قبل أن تنتقل الخطبة إلى زواج أخرّته شكليات ومناقشات تافهة بين الأسرتين . . ولربما صادف التأخير هوى فى نفس الخطيب الجبان بعد أن نال غرضه ، ولعله أصبح يعيب عليها فى سره أنها رضخت لـه . . فلما انفضح أمرها حبسها أبوها فى حجرتها انتظاراً لعودة ابنه من سفر له . . عاشت أياماً وليالى وهى تعلم أنها محكوم عليها بـالاعدام . إن انهارت لهلعها من الموت فإنها أشد انهياراً لتحطيم بنيان فى قلبها أقيم على أن بين الأب وابنته محبة . فكيف تلقى مصرعها على يدى أبيها ؟ هل تكرهه ؟ كيف تغفر له ؟ . . وعاد الأخ . . وسمعت بأذنيها أباها يقول لأمها أن تذهب لقضاء الليلة عند أختها . وخرجت الأم وهى تقول لابنتها من وراء الباب : «لك رب يابنتى !» .

ومضى الأب فى الصباح إلى العمدة وأبلغه أنه قتل وحده ابنته دفاعاً عن العرض . قدم نفسه ليفدى ابنه حتى يبقى عائلاً للأسرة بعد ذهابه هو إلى السجن .

دخلنا منزلاً فقيراً من منازل الفلاحين لـه حوش سماوى ، وسلم بالطوب الأحمر يصعد إلى الدور الأعلى .

أمر الطبيب أمامى بإنزال جثة الفتاة ثم صرخ . .

– هاتوا لى دكة . . فجىء له بدكة . . لعلها هى الوحيدة عندهم لا جلوس لهم إلا عليها . ووضع الجثة فوق الدكة تحت حنية السلم . من فوقنا نسوة – من بينهن أمها – تطل علينا ، تصرخ وتولول ، ومن حوالينا صبيان ندافعهم كالذباب ، من وراء باب البيت مئات من المتطلعين

المتطفلين تمد أعناقها وأبصارها فوق الأكتاف ومن بين الرءوس . . عُرِّيت الجثة أمام الجميع . . وأخرج حلاق الصحة المشرط وبقر بطنها وتناول من بين القدمين جنيناً كامل النمو ، رفعه فى الهواء كأنما يريد أن يريه للجميع .

كان يستطيع هذا الطبيب أن يُشرِّح الجثة داخل النقطة،أو فى جوارها إن أراد مجاملة الضابط،أو ينقلها للمركز . . . ولكنه لم يبال أن يمزقها أشلاء أمام أعين أهلها وجيرانها . . فى منزلها ، على دكتهم الوحيدة ! .

حدث اتفاق جنتلمان بين المتهم والعمدة،وبين العمدة وبيننا على ألا نجر الابن فى الجريمة ، ولم يرد له ذكر فى التحقيق ونحن نعلم علم اليقين أنه مشارك فى القتل .

وجىء بالخطيب . .

شاب ممتقع من شدة الخوف ، ولكن ما كان أسهل عليه أن ينكر ويتنصل . . ليس فى القانون مع الأسف نص تقضى به العدالة يمكن به محاكمته مع أن القتل وقع بسبب حماقته هو أيضاً . .

شعرت بشىء من الضيق ، ولكنى كرهت الحياة أشد الكره حين جاءت الأم وأدلت بشهادتها ، وقبل أن تنصرف تريثت قليلاً وهى تستند محنية الظهر على المقاعد ، وأدارت علينا نظرة كلها توسل واستجداء . حنَّ قلبى لهذه المرأة المحطمة وتعلق كل انتباهى بشفتيها .

حسبتها ستقول : «خدوا بالكم من جوزى ده راجل عجوز !» أو «إن ابنتى مظلومة ، إنضحك عليها ، الله يجازى اللى كان السبب» أو «ربنا وحده هو اللى حاسس بمصيبتى مش عارفه أبكى على بنتى والّا أبك على

جوزى ، قلبى مش مطاوعنى ، لكن أنا مسامحاه» لم تقل شيئاً من هذا وإنما تمتمت بصوتها المبحوح :

- كان عند بنتى حلق وأُستيك اديناهم للجدع ده علشان يكمل بيهم المهر . . أنا عاوزاكم تجيبوها لى منه ، ده حقنا . .

لم يكن لهذا الأب مفر من قتل ابنته . إن الذى وضع السكين فى يده هو ضغط الرأى العام ، يجعل الشرف قاصراً على سلامة العرض . . ولو لم يقتلها لما استطاع أن يعيش فى قريته ، فلأهلها انتباه شديد بسيرة نسائها . أغلب الحديث يدور عن ذلك ، بل إن بعض الشبان يجدون لـذة ولهوا واستعراضاً لرجولتهم فى التطوع للتجسس على البيوت . . فإذا تكشفت فضيحة تتبعوا ولى الدم . يأتى دوره قبـل الزوج بـالتحقير والازدراء فى مواجهته ، يُعيِّرونه بسكوته حتى تسقط كرامته ، كأنها حركة عضوية لا شعورية للمجتمع يريد بها أن يلفظ من يخرج عن تقاليده .

وكان لى تأمل غير قليل لهذا الربط بين الشرف والعرض حينما كنت أحضر كثيراً من مجالس الوعظ فإنى أجد المتكلم - بعد مقدمات قصيرة - لا يتحدث عن استقامة الخلق وفضائل الصدق والشجاعة وخسـة الكذب والغش والخداع ، بل يقفز من فوره إلى التحدث عن النساء وبهرجتهن ويجعلهن السبب الأول لكل شر ، وإن من سلم عرضه سلم شرفه ، كأنه يكاد يقول لهم : «وافعلوا بعد ذلك ماتريدون»

ثم أتأمل أيضاً حوادث القتل للدفاع عن العرض مما يحدث منها فى القاهرة والمدن الكبرى فإنى أشتم فى بعض هذه القضـايا أن المـال - لا الشرف - هو الدافع عليها ، وأن القاتل - وهو فى أغلب الأمر أخ بلطجى

- يبدأ وهو صامت بقبول ما تقدمه له الأخت من مال كأنه إحسان يشكرها عليه . . ثم يأخذه كأنه حق له ، بل إتاوة مفروضة ، ثم يغلو فى مطالبه . . وتكون الفتاة قد انتقلت هى أيضاً من البدء بالعطف على أخ عاطل ومساعدته إلى الانتهاء باحتقاره وأنها تشقى من أجله هو وحده ، وأنه قد أهدر رجولته ولن يُحمِّر لها عينه ، فترفض دفع الإتاوة وإن لم تسلم من الخوف بأنه مع ذلك قد يغدر بها . . كثيرات من بائعات الهوى تنقضى حياتهن فى هذا الاضطراب بين التحدى والخوف من الغدر .

وكان طبيب المركز فى عهدى يستحق أجراً مستقلاً - أظنه جنيهين - عن كل مرة يشرِّح فيها جثة بتكليف من النيابة العامة .

وقد رويت لك أن التشريح يتم فى دار القتيل ذاته ، أو فى أرض فضاء بجانب النقطة ، أو على الجسر إن كان غريقاً ، يحدث هذا على مشهد من الناس ، وكان حلاق الصحة هو الذى يتولى - وقد جلس القرفصاء - فتح البطن وإخراج الأحشاء والطبيب واقف ينظر لا يمد يده . هذا رجل مات رصاصة دخلت بطنه ، كنت أنتظر أن يقتصر التشريح على فتح جوفه وتتبع هذه الرصاصة . ولكنى رأيت طبيب المركز فى كل مرة يأمر الحلاق بأن ينشر الجمجمة بمنشار : فيتهتك المخ ويتساقط على الأرض ، فيجمعه الحلاق بيده ويعيد تعبئته فى الطاسة ويضعها مكانها من جديد «كُلِّشن كان» . مبالغة تصل إلى حد الاستهتار بكرامة الميت ؛ لا تفيد التحقيق شيئاً ، ولكنها لازمة من أجل أن تتم الصفة التشريحية ويستحق الطبيب أجره الإضافى .

ألفت منظر تشريح الجثث ، لا أنسى أول مرة شق فيها المبضع أمامى

جلد الميت من تحت منتصف ذقنه مشيا مع وسط حلقه ورقبته ثم إلى البطن حتى العـانة ، كـان أكثر مـا أدهشنى منظر اصفرار الشحم تحت الجلد الأسمر .

تشريح الجثة «الطازة» أهون على نفسى من تشـريح جثـة دب فيها التعفن . . لا أنسى هذا الغريق الذى عثرت به أو الذى عثر علىَّ لست أدرى ، كنت مع لجنة المساحة فى أرض قريبة من النيل ، فى صفار شمس من أوائل أيام الخريف . أنا جالس على الأرض فوق حرام ؛ سحب أبكار رقيقة الحواشى تتبختر عبر سماء زرقاء شفافة ، عصفور - لا أعرف اسمه - له ذيل طويل مرتعش يتواثب من حولى ساعياً وراء رزقه بهمَّة تغالب وجله الدائم ، يريد أن يعود لعشه قبل الغروب . من بين عيدان البرسيم تصل إلى أنفى من بطن الطين الندى تحت قشرة جافة رائحة زخمة توحى بأن مخاضه لم ينقطع كأنها منبعثة من معمل كيمائى . . نداءات الفلاحين بعضهم لبعض عبر الحقول لها ولولة شجية يهتز لها قلبى ، كنت أحسب أن أمامنا ساعة كاملة من قبل أن يتم العمل ولكن أعضاء اللجنة يسرعون على غـير عادتهم . . وجمعـوا أدواتهم وهموا بـالانصراف ، فلما وقفت رأيتهم يصطفون أمـامى جاعلين ظهـورهم للنيل ، أحسست أنهم يخفـون عنى شيئاً ، فشققت سياجهم وعلوت الجسر وتأملت المياه فإذا بجسـد مكور يقب ويغطس .

-ما هذا . . ؟

-مفيش حاجة ياحضرة المعاون ، باينها جثة بهيمة . . يمكن حمار ولا مؤاخذة .

–حمار ازاى . . ؟ ده بنى آدم أهو قدامكم . .

–اعمل معروف ياحضرة المعاون ماتجبلناش مصيبة وخوتة دماغ . سيبها تبحر مع المية تطلع فى حتة تانية .

سيأتى رجال المركز والنيابة والطبيب وعدد من الجند ، يلزمهم قهوة وشاى إن لم يكن غداء أو عشاء ، وستحسب جناية فى إحصائيات القرية ، ويزيد عدد عفاريتها واحداً .

لم أنتقل حتى أخرجت الجثه ووُضعت على الجسر . وجدناها عارية الا من حبل من الليف مربوط حول العنق هو لا يدل إلا على أن فلاحى القرى القبلية ربطوها به وسحبوها بعيداً عن زمامهم . . ابتلت الأرض حول الجثة ، لاتزال تنزلق من فوقها قطرات ضئيلة من الماء كأنها عَرَق لوح من الثلج . . الأظافر مزرقة ، وجلد الكفين انفصل على هيئة قفاز شفاف ، البطن منتفخ ، فيه جفنات مشرذمة الجوانب ؛ من هنا دخلت السكين . . وبدت الساقان والذراعان المقوستان قصيرة لا تناسب حجم الجثة ، ورغم أن سواد العينين اختلط بالبياض خِلْت أن الغريق يُصوِّب إلينا نظرة شاخصة .

حضرت تشريح الجثة ولكنى بقيت مشيحاً بوجهى عنها ، لا يكربنى منظرها بل نطقها ببرودة الموت .

لم نعرف من هو ، ودارت إشارة تليفونية على جميع عمد المركز بأوصاف القتيل الغريق الذى عثر عليه المعاون فلان الفلانى . . فتجمَّع على لوم القرى كلها لا قرية واحدة .

لم أسمع بعد ذلك شيئاً عن هذا القتيل ، وحُفظت القضية لعدم معرفة الفاعل .

* * *

يوم الكشف

. . سأروى لك آخر المتمة مثلاً جديداً عن استهتار طبيب المركز فى أمر قد يكون هيناً ، ومع ذلك كنت لا أستسيغه رغم عجزى عن الرد على حججه .

يوم الكشف الأسبوعى على المومسات يتحرك موكبهن جماعة سيراً على الأقدام من النقطة إلى مكتب الطبيب . لهن مشية مضطربة ، لا هى متسكعة ولا مجهدة ، كأنما يئودهن تعلم المشى من جديد فى مشوار هو سخرة لا نزهة . . صامتات لولا طرف فستان لبنى أو بمبة منْ تحت ثيابهن السود لما فطن لهن أحد ، رأيت الناس يتركوهن لحالهن ، لا تعليقات لهم ، لا بسخرية ولا برثاء ، هذا الموكب الذى ألفوا مشاهدته هو عندهم«طقم شغالة» يجاهد فى الحياة مثلهم . تتجمع النسوة فى الردهة ويتسلم الفراش رخصهن ويدخل بها على الطبيب فيُوَقِّع عليها بأنه أجرى الكشف وثبت لديه خلوهن من الأمراض التناسلية ، ويعود الموكب من حيث أتى ؛ صامتات لا يفهمن لم كان الذهاب والإياب . . شغل الحكومة عاوز كده .

لم أتورع عن أن أسأل الطبيب :

– لماذا تفعل ذلك وأنت مطالب بأن تكشف عليهن ؟

أجابني :

– لـو كشفت عليهن لضاع مني وقت طـويل ؛ ولثبت أنهن جميعـاً مصابات بأمراض ؛ ثم إن كل من يخالطهن يعلم علم اليقين أنه يُعرِّض نفسه للمرض ؛ ذنبه على جنبه .

* * *

داخل قلعة

أودع هذا الطبيب الذى قسوت عليه رغم أنفى وعلى خلاف طبعى ، وألوم نفسى من أجل ذلك لوماً شديداً ، بأن أعترف بجميل له علىَّ . كان لا يخالط الموظفين ؛ وقلَّما دخل أحد داره ؛ ولكنه دعانى ذات يوم للعشاء . لعله رآنى من كثرة ماوجهت إليـه من أسئلة ساذجـة . . وبسبب نظراتى الحائرة المتطلعة أننى لم أنخرط بعد فى قافلة رجال الإدارة ، أو ربما شفع لى عنده أننى أَشِذُّ عنهم فيرانى الناس أحياناً أخرج إلى عملى وفى يدى أو فى جيبى كتاب . دخلت مسكناً أنيقاً نظيفاً ينم لأول وهلة عن ثقافة أوربية . ستائر ملونة على النوافذ ، لم أشهد مثلها فى منفلوط . . أنوار خافتة ، أثاث مريح من الطراز الإنجليزى ، ومكتبـة غربيـة عامـرة ، وبيانـو فى ركن الصالون . ودخلت علينا صاحبة الدار . سيدة متحشمة وقـور فى ثوب جميل . وكنت لم أرها من قبل . أغلب الظن أنها تعيش طول الوقت حبيسة دارها . أحسست أننى أنتقل فجأة إلى صالون – لا فى القاهرة – بل فى لندن

أو باريس . لم أعجب حين علمت أنها من خريجات «الساكركور» . عزفت لنا على البيانو ألحاناً تلقاها هواء منفلوط بدهشة يمازجها استغراب . من أى عالم قصى مجهول يأتينا هذا الطارق الغريب ؟ علمت أن لهم أولاداً - رأيت صورهم فوق البيانو - بقوا فى القاهرة لطلب العلم . .

يسود الدار جو من السلام والدَّعة والنظافة والرقة والاطمئنان ومع ذلك لم أنعم بعشائى الفاخر - بين أطقم من فضة وكريستال - وأنا أحاول أن أطابق ماأشهد على سيرة هذا الطبيب خارج داره . زلزل هذا التناقض نفسى زلزالاً شديداً وعجزت عن الفهم والتفسير . وأحسست أننى فى صحبة أناس أقاموا وسط الغابة مخبأ جعلوه لا يتسع إلا لهم ؛ وصورة مصغرة لقصر جميل ؛ وأقاموا من حولهم المتاريس . . يخرجون للأدغال للصيد كالوحوش ؛ ثم يعودون فيغسلون أيديهم وينفضون ثيابهم ويتذوقون نعم المدنية والحضارة للجسد والروح . . أما أنا فقد بقيت نفسى طول المساء مطروحة خارج المتاريس ، ممزقة أشلاء ، يتناهبها سكان الأدغال . . ووقانى الله سبحانه وتعالى طول حياتى من شر هذا السياج .

* * *

قبلات وأحضان

أكاد أحس أن أهل البلد كانوا أيضاً يقولون فى سرهم : «كيف يخلص لنا هؤلاء الموظفون وهم لا يخلص بعضهم لبعض ؟ . .» لا شك أن

أخبارنا تصلهم . فيضعونها تحت أضراسهم ويخفون ابتسامتهم الصفراء تحت شواربهم .

فى المركز معاون بوليس ومعاون خفر ، كلاهما رب لأسرة كبيرة تعتز به ، هما مضرب المثل فى الصداقة ، لا يقابل أحدهما الآخر ، فى المكتب أو فى الطريق ، بالليل أو بالنهار ، الا اندلق كل منهما فى حضن حبيبه وطوّقه بذراعيه ، وانشغل الفم وهو مفلوت العيار بتقبيل الوجنات ، وظلت اليد اليمنى تطبطب من وراء على الظهر كأنها تمتحن بطيخة . . كنت أحسدهما وأتمنى أن يكون لى صديق مثلهما . وظل هذا حالهما زمناً غير قصير ، ثم لا أدرى ماالذى حدث بينهما فإذا بالصداقة الحارة تنقلب فى غمضة عين إلى عداء شديد . . لغاية كده كويس . . هذه الأشياء تحدث فى الحياة حتى قيل فيها شعر كثير وأمثال وحكم ومواعظ . . ولكنى أصبت بذهول حين دخلت على معاون الخفر فوجدته منشغلا بهمة فى تحرير عريضة اتهام ضد معاون البوليس . فى يده «نوتة» صغيرة مما يوضع فى جيب الصديرى ، يتأمل صفحاتها ويكتب :

«فى يوم ١٠ يناير (أى منذ خمسة أشهر تقريباً) أشر معاون البوليس فى دفتر الأحوال أنه خرج لداورية ليلية الساعة كذا وأنه عاد منها الساعة كذا مع أن الذى حدث هو أنه أرسل الجندى السوارى فرح سعفان ، فجمع له دفاتر الخفراء من مناطقهم ، وأشّر عليها وهو فى منزله لم يبرحه .»

ثم يقلب صفحات النوتة حتى يعثر على تسجيل آخر فيعاود الكتابة :

«وفى يوم أول فبراير أخذ بدون وجه حق من عليقة المركز مَلْو كيسين تبن لحصانه الخاص . وفى يوم ٣مارس . . .»

سألته : إيه الحكاية . . ؟ ليه تعمل كده . . ؟ أنتم كنتو أصحاب . . عز الحبايب . .

فانفجر فىّ :

– ابن الكلب الشرموط مقدم فى عريضة مهببة ، أتارى السافل كان مقيد على كل حركاتى وسكناتى زى اللى كان مراقبنى ، تصور عادِدْ كام مرة رحت فيها قال خمارة البلد ، كداب فى أصل وشه ، لكن ما تخافش علىَّ أنا كنت واخد احتياطى . البَرَكة فى النوتة دى . وقبل مايوديني فى داهية – ده بعيد عن شنبه – ح أوديـة أنا فى ستـين داهية . . بكـره تشوف واقعته سوداء .

انصرفت أجر أقدامى ، لم أسأله :

– ومقيد علىَّ أنا إيه فى النوتة بتاعتك ؟

لعـل الذى كـان يطمئنى قليـلاً أن ليس بينى وبينـه لا قبـلات ولا أحضان . . وإنما أعدك بأننى سأحدثك عن خمارة البلد فقد كان معاون الخفر هو الذى قادنى إليها أول مرة وسحب رجلى إليها .

***

سينما بدون رخصة

لذلك لم يندهش أهل البلد حينما علموا ذات صباح بما فعله معاون البوليس بواحد منهم بالليل . .

بجوار المركز بيت جميل لأحد الأعيان الأثرياء ، له حديقة واسعة . هو معمم وله ابن مطربش يهيم بالسينما ، فأقام فى الحديقة آلة عرض جيدة وشاشة لا يقل حجمها عن شاشة دور السينما . وكان يتكرم علينا ويدعونا لمشاهدة الأفلام كل مساء مع عدد قليل من أصدقاء صاحب البيت . وتدور علينا بسخاء فناجين القهوة والشاى وأكواب الشربات ، سهرة جميلة هى نعمة كبيرة أحمد الله عليها . وكان هذا الثرى عضواً مرموقاً فى حزب سياسى كبير يتولى الحكم .

معاون البوليس أولنا فى الدخول وآخرنا فى الانصراف . . إذا حدث أن أخرَّه عمل فى مكتبه أرسل خفيراً يرجو صاحب الدار أن يؤخر عرض الفيلم حتى يحضر . هو أكثرنا مبالغة فى تحيته ومدحه والثناء على كرمه وأخلاقه التى لا تفترق عن أخلاق الملائكة . . وكان يطلب من الابن أحياناً أفلاماً معينة فيحضرها له إكراماً لخاطره . .

فى مساء اليوم الذى بلغنا فيه نبأ إقالة الوزارة وجدته مهموماً فى البحث عن شمعة وشريط من القماش وشمع أحمر .

لم أر من قبل مثل هذه التشكيلة فوق مكتبه فسألته باستغراب :

– خير إن شاء الله ؟ .

– لا ، حاجة بسيطة ، أنا رايح أحرر لجارنا فلان محضر مخالفة لأنه فاتح سينما عمومية بدون رخصة .

– وح تعمل إيه . . ؟ ح تشمع باب البيت . . ؟ وأهله يدخلوا ويخرجوا إزاى . . ؟

- أنا ما أعـرفوش إلا إنـه باب السينـما ، ده مش ذنبى ، قدامهم المحكمة .

- وعندك تعليمات بكده . . ؟

- هي دى عاوزة تعليمات يا أستاذ ؟ . . الـدور علىَّ فى التـرقية ، وعاوز لى زَقَّة بسيطة ، فلعل وعسى*.

* * *

ماحدش زيك . .

وخُيِّل إلى كذلك أن أهل البلد يجدون نوعاً من التسلية فى استعراضهم للموظفين يتبدَّلون عليهم تباعاً أشكالاً و ألواناً ، فما يكاد القادم يستقـر بينهم ويـألفهم ويألفـونه حتى يُنقـل ويحل محله وجـه جديـد له طبـائعـه ومزاجه . . ساقية لا تكف عن الدوران . هذا الدوران كما يصون لحسن الحظ أهل البلد من تحمل الهم المقيم إذا كان القادم فاسداً أو مناكفاً ، فهو ليس بالمخلد بينهم ، يحكم كذلك - لسوء الحظ - على هذه الألفـة مع القادم الذى يرضون عنه بأن تظل سطحية لأنها مؤقتة . فالفلاح رجـل عملى يجد من العبث والإسراف فى غير طائل أن تتحول الألفة إلى صداقة مع عابر سبيل .

* («الجمهورية» ، ١٩٥٩/٦/٢٦ ، ص ١٠)

وقد رأيت بعض الموظفين الطيبين العواطفجية ، حين ينقلون من بلد أقاموا فيه زمناً إلى بلد آخر عساه أن يكون قريباً ، يلحقهم شيء من المرارة ويتهمون أهله بالجحود وقلة الوفاء والمقدرة على الضحك على الذقون ، حين يرون أن صلاتهم بأهله التى وهموا أثناء إقامتهم به أنها توثقت ، قد انبتّت مرة واحدة كأنما لم يعرفهم فى هذا البلد أحد أو - كما يقولون - كأنما لم يكن لهم أفضال كبيرة على كثير من أهل هذا البلد .

هذه النظرية العملية من جانب الفلاح ، وهذه المرارة الموروثة من الماضى عند الموظف العاطفى - والمؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين - تعرقلان توثيق الصلات بينهما مهما طالت إقامة الموظف بالبلد الجديد ، وتظل هذه الصلات رغم ظواهرها البرّاقة لا تسلم من جو من الزيف ، وإن كان منشؤه أسباباً سلبية غير متعمدة من الجانبين . . فالفلاحون يرون أن الموظف أتى لا حباً فى سواد عيونهم ، بل تأدية لواجب مفروض ربما يراه كريها ، ما يفرغ منه حتى يسرع فيولى لهم ظهره وينفض منهم اليدين ، والموظف يتوقع من أهل البلد منذ مبدأ الأمر قلة الوفاء وسرعة النسيان ، ولا يُصدِّق فى كثير من الأحوال مودة من يهم بالتقرُّب إليه .

وكنت أحس بهذه التيارات التحتانية ، وأرقبها بأسى غير قليل ، ولا أعرف لها علاجاً ، وأرى مجتمعنا فى الريف يضيع عليه بسببها كثير من الخير والجمال .

وجدت فى بندر منفلوط رجلاً قصير القامة يلف رقبته شتاء وصيفاً بكوفية من الحرير يماثلها فى اللون أحياناً ، ثم يَبيضُّ عنها - بعد الغسيل كل شهر مرة - شال عمامة واسعة تهبط حتى تكاد تقضم أذنيه فى وجه

مستدير دائم الابتسام (فكنت أعرف أسنانه) . لـه فرس «رهـوان» هى وحدها دليله على أنه يُمُتُّ لـلأعيان بصلة ، عـلى حين أن رقـة ملابسـه وخشونة جلده لا تعيننا على تصديقه . ولكن - كَثَّر الله خيره - هو رجل ليست له مصلحة يجرى وراءها فى المركز ، ولا له قضية يدخل من أجلها المحكمة ، ولكنه مع ذلك وقف نفسه - كأنما يجد فى ذلك لذة كبيرة - على تتبع أخبار تنقلات الموظفين ، واستقبال القادم وتوديع الراحل ، وإن لم يدخل أحدنا قط بيته ، بل لم أعرف فى أى شارع يقيم وما مهنته على وجه التحديد . نراه على رصيف المحطة - والقطار يبرحها فى منتصف الليل - يقول للموظف المسافر وابتسامته المعهودة لا تفارق شفتيه :

- والله العظيم ماحدش جانا زيك قبل كده ، ويقول له : ولا حَدُّش ح يجينا زيك بعد كده .

ثم يكون فى استقبال الموظف الجديد ويقول له بابتسامته إياها :

- البلد نـورت وربنا أكـرمنا بيـك ، والله العظيم من وشـك باين ماحدش جالنا زيك قبل كده ولا حدش ح يجيلنا زيك بعد كده .

هيهات أن يطاوعنى قلبى أن أتهم بالنفاق رجلا يتبرع لوجه الله - لا سعياً وراء مصلحة - بكل هذا الترحيب والمديح .

* * *

بيت الباشمهندس

من ذكرياتى عن تنقلات الموظفين .

مهندس البلدية مضى عليه فى منفلوط أكثر من ثلاث سنوات جاءها منقولاً من وجه بحرى فعَدَّ هذا النقل نكبة كبرى . ليس لديه أمل فى التخلص من قبضة الصعيد لأن ملف خدمته يزداد مع الأيام والسخط اسودادا ، فاستسلم وطلب السعادة والنسيان فى نشوة الخمر وأحلامها . يسميه أهل البلد «الباشمهندس» فنحن جميعاً نعلو رتبة عندهم . . الجاويش «باشجاويش» ، والمفتش «باشمفتش» ، وأنا كنت معروفاً باسم «الباشمعاون» . . هو رجل أعزب عزوف عن الناس ، لا يألف إلا شلته فى القهوة ، ولعله لو أتى هؤلاء الأصحاب القلائل فى مكان غير القهوة لهرب منهم . يسكن وحده - بلا خادم - فى منزل طويل عريض من طابقين يقع فى أطراف البندر ، لا يئوب إليه الا بعد منتصف الليل فيفتح الباب بعد لأى ، ويعلو الدرج وهو يدندن حتى يصل إلى فراشه ، فيرتمى عليه وينام ، ثم يغادره فى الصباح ويعود إليه بعد الظهر لينام ساعات القيلولة ثم يخرج وهكذا دواليك ، لا يختلف يوم عن آخر ، حياته مظروف به ثلاث صور تحقيق شخصية من أصل واحد ، هى الأمس واليوم والغد ، فأنت تراه لا ينتفع من هذا البيت الكبير كله الا بسرير سفرى صغير .

أصبح المنزل بعد قليل - فما بالك بعد ثلاث سنوات - من المسارح الحرة للفيران والعناكب والهوام والغبار ، زجاجات الخمر مبعثرة على طول المدق المؤدى من الباب إلى الفراش . أوراق الصحف تطير كما تشاء وتستقر حيث تشاء ، القمامة بين متناثرة ومكدسة طال عليها الأمد ، والباشمهندس المكلف بنظافة البلد كله سعيد بحياته أشد السعادة ،

يقـول : إن أوسخ معيشـة لأعزب أفضـل ألف مرة من أنـظف معيشـة لمتزوج . لما عرفته تنبهت أن أهل البلد حين ينطقون لفظ «الباشمهندس» لا يخفون إبتسامة تدل على الاستخفاف والرثاء معاً .

كنت ألحظه وهو يسير أمامى على حافة الطريق منزويا مقنفدا ، رأسه اندفست فى جسده فلمس شعر قفاه ياقة الجاكتة أو البلطو ، له مشية راقصة تديره قليلا إلى اليمين ثم قليلا إلى اليسار . ترى أثرها فى تآكل كعبى حذائه من جنب . وحين أرقبه يسير هكذا وأجد يديه مضمومتين يحركهما إلى الأمام والخلف لا أدرى لماذا يخيل إلى أنه يكلم نفسه ، أحس حينئذ أنه شيخ متعب أثقلته السنون والهموم ، فإذا لحقته - لا أبالى اقتحامى لخلوته ومفاجأتى له - ومشيت إلى جانبه تطلعت إلى عينيه تحت حاجبين غزيرين متهدلين ، مستندين إلى وسادة رثة من انتفاخ مستعرض على شكل اللوزة فوق كرسى الخد ، رقَّ جلدها حتى تتحسب أنك لو مسستها بسن أبرة لنزت دموعاً متعفنة ، وتقلصت على صدغيه تجاعيد رقيقة كخطوط الكف وعلى جبهته - لماذا لا يفردها ؟ - حبال من دوبارة غليظة كأنما لفتها يد العطار فى الحمزاوى . تنبعث من هاتين العينين نظرة صافية وديعة تترقرق بماء الحياة والقدرة على الضحك والبهجة ، لم أر مثلهما عيوناً تبتسم وتغضى بحياء لذيذ لا يلبث أن يعم الوجه كله ، فأحس أننى بإزاء شاب قد شاخ قبل الأوان . إننى لا أستطيع تخمين عمره ويورثنى هذا العجز شيئاً من الحزن والأسى ، كأننى أشهد غصنا رطيبا لا يزال أمامه فى الحياة فسحة كبيرة يورق فيها ويزهر تقصفه فى عز الشباب يد غادرة . وكلامى عن عجزى عن تقدير العمر له بقية ستأتى فيما بعد .

نترك سيرة الباشمهندس قليلا لنستقبل معاون البوليس الجديد الذى شرّفنا ذات صباح وقال له صاحب الابتسامة والفرس الرهوان : إنه لم يأت لمنفلوط من قبل ولن يأتى من بعد معاون مثله طيب ابن حلال . هو شاب أنيق أبيض اللون ، وسيم متعاجب ، على رأسه طربوش غامق قصير كطربوش اسماعيل باشا ، يتألق فرحاً بمنصبه الجديد لأنه جاءنا بترقية تقربه إلى مطمعه فى أن يصبح سريعاً مأموراً لمركز ، وينتقل من تلقى الأوامر السخيفة وينفذها وهو لاعِنٌ ساخط إلى إصدار هذه الأوامر فى نفخة وأُبّهة بالقلم الأحمر أو بالشخط والنطر .

فهمنا أنه متزوج ولكنه جاء وحده أول الأمر ليبحث عن مسكن ، فإذا وجده استدعى أسرته . وبدأ الموظفون يتهامسون أن مثل هذا الشاب الحليوة الذى تبدو عليه دلائل النعمة لابد له زوجة جميلة هاى لايف ، فمتى تحضر ؟ ومتى نراها ولو خلسة ؟

جعل المعاون أول همه البحث عن سكن وترك مكتبه وبدأ يجول فى البلد حتى وجد بيتا أعجبه موقعه وتفصيله وإن أكربته فيه قذارة الأرض والجدران وسارع باستئجاره ، وقيل له إن هذا البيت معروف فى البلد كله باسم «بيت الباشمهندس» نسبة إلى مالكه الأول وكان مهندسا من أبناء البلد .

وعاد المعاون من فوره على عجل إلى مكتبه ، وكنا بعد الظهر بقليل فدق الجرس فدخل عليه الجاويش .

- اسمع ياجاويش
- أفندم

- أنت عارف بيت الباشمهندس .

- أيوه

- ده بيت وسخ قوى .

- معاك حق ياسعادة البيه حاجة وحشة خالص .

-عندك كام عسكرى ماعلهمش الوردية ؟

- أربعة

- وكام خفير ؟

- ستة

- وكام مسجون أشغال ؟ (وهم المساجين الذين يعملون سدادا لغرامة) . .

- ييجى عشرة .

- عاوزك تخدهم كلهم وتروح معاهم تنضفوا لى البيت ده من فوق لتحت تخلوه زى المراية . فاهم ؟

- حاضر ياأفندم ، أمرك ياأفندم !

وخرج الباشجاويش وهو معجب أشد الإعجاب بالمعاون الجديد فهو رجل حمش لا يعجبه الحال المايل ولا يخاف أحداً .

جاءنا الباشمندس للقهوة متأخراً وهو يكاد يقع من طوله لفرط الضحك .

- خير إن شاء الله مش عادتك ؟

- تصوروا أننى كنت راقداً اليوم بعد الظهر فى أحلى نومة فإذا بى أستيقظ فزعاً على دق شديد على الباب كأن القيامة قد قامت . لم يحدث لى

هذا قط من قبل ، وزاد انزعاجى حينما تدليت من النافذة فرأيت رهطاً كبيراً من العساكر والخفر والمساجين على رأسهم الباشجاويش وفى أيديهم جرادل وفرش ومقشات ، وثقت أنهم أخطأوا العنوان ، وعرفتهم بنفسى وإن كانوا يعرفوننى . ولكن الباشجاويش طلب منى الا أضيع الوقت وأن أنزل إليه ، فلما واجهته قال لى إن لديه أوامر مشددة بتنظيف البيت من تحت لفوق ، ففتحت لهم الباب على مصراعيه وظلوا من بعد الظهر إلى العشاء يكنسون ويمسحون ، حاجة ألسطة خالص ، رزق الهبل على المجانين وتيجى للعمى طابات . . وإلى الآن لاأعرف السر ولا من تكرَّم على بهذه الخدمة الكبيرة .

لاأعرف ماذا حدث لمعاون البوليس حين عاد يعاين داره الجديدة بعد العشاء والسهرة مع المأمور ليطمئن على تنفيذ أوامره . . والعجيب أنه حنق على الباشمهندس - ولاذنب له - وظل طول صحبتهما يناكفه ويدبِّر له المقالب .

* * *

أعود لبقية الحديث الذى فتح بابه على وصفى للباشمهندس وقولى إننى أسِيت له حين عجزت عن تخمين عمره .

هذا التناقض بين العمر والوجه كان يلاحقنى مرات غير قليلة . فى منفلوط تلقيت لأول مرة فى حياتى عن قرب ووجهاً لوجه ضحايا البلهارسيا والملاريا ، فتية كثيرون فى زهرة العمر اكتسى وجههم بسبب هذين المرضين الخبيثين بصفرة الموت ، انتفخت بطونهم بثقل طحال متضخم ، أصبحوا مسخاً تحار كيف تصفهم ، أهم شباب أم شيوخ . فى عيونهم

نظرة مجهدة ومع ذلك تثب إليك كأنما تحاول التملص من يد تغتالها لتنطق بمعانى النفس وتنم بالراحة والمرح والمعابثة . وجدت أغلب الفلاحات ماتكاد الواحدة تتزوج وتُخلِّف ولداً أو اثنين حتى تتساوى فى المظهر مع أمها ، قدَّدْتهما لسعة الشمس ووقدة الفرن ، وامتهنهما وعطرهما بشذى واحد عجين الجلة وتقريصها ، ودمغهما بميسم واحد بذل جهد مماثل فى عمل شاق متصل رتيب ، هى أكثر أهلنا قفزاً من الصبا إلى الشيخوخة ، ولكن لهفى على صبية صغار لم يشبوا بعد عن طوق الطفولة من الكادحين فى الريف أو فى المدن ، أولاد الفلاحين فى الغيط ، الباعة السَرِّحية فى المدن ، ولمامو السبارس والمشردون على سلالم الترام من يمين ويسار ، والخدم الصغار من بنين وبنات : هم من معاناة الحياة أصبح لهم ذكاء الرجال المجربين وخبثهم وحيلهم وكلامهم ، حُرِموا جميعاً من مرحلة هى أجمل العمر مرحلة الطفولة بلهوها وأخيلتها وغرقها فى غفلة من الهموم فى عالم من اللعب والاختراع لاتمت لعالمنا بصلة ، إن هذا الغدر بالطفولة مأساة نعيشها ونغفل عنها ، لسنا فيها بدعا بين الأمم التى تجاهد للتغلب على الفقر . إن سعادة الأمم إذا قيست بالدخل القومى أو انتشار التعليم فإنها تُقاس أيضاً بنجاحها فى أن تتيح لكل مرحلة من مراحل العمر حقها وحظها فى الحياة .

حتى بين الموسرين ، كم أود أن يكف الآباء والأمهات عندنا عن إشراك أطفالهم فى أحاديثهم ومشاكلهم وعن الإلحاح عليهم بأن يثبتوا سريعاً مقدرتهم على الكلام والفهم والتصرف كالبالغين ، إنهم يحرقون طفولة أبنائهم وهم لايشعرون فى سبيل الافتخار الأنانى بأنهم أنجبوا عباقرة .

تسكع على الصبح

غلبنى فى ذلك الصباح ميل إلى التسكع بعد العمل المتواصل فى الأيام الأخيرة هو الذى صدَّ نفسى عن الذهاب إلى المركز ، كنت محتاجاً إلى يد تدلِّك عن رقبتى وركبتى تصلبهما من ركوب الحمار ، وتدلِّك أعصابى أيضاً لأنها كالزنبرك ، هو وحده الذى إذا انفك تعقَّد ، والتعب - كالجوع - يحطِّمُ النفس ويذلّها ويغيض عليه كل مباهجها ، فكُّى الأسفل يتـوسل إلىَّ : من فضلك خلينى أتثاءب ، وروحى تتوحم على وسادة من ريش النعام لتضع عليه رأسها وترقد تحت شجرة وتحلم الأحلام . والغريب أننى أحسست مع هذا الميل إلى التسكع بتوهج فى حـاسة الـذوق ، لاأدرى سببه ، فليس له علاقة بالجوع ، إذ كنت دبيت بطنى بالفطور من جبن ولبن وفول مدمس كعادتى كل صباح . وجدت لسانى كأنه استيقظ من نوم أو شُفى من علة وأخذ يتمسح فى قضبان فمى كما يفعل الثعلب الحبيس فى قفصه إذا دنت ساعة الأكل ، يقول لى لسانى : إذا أذقتنى الآن شيئاً ولو طعام دلع أو حرش لاكتشفت معى لأول مرة أجمل أسرار طعمه وأدركت طرفاً من نعم لله . .

ولكن أين أذهب ؟ ليس اليوم يوم السوق ، فلو كان لوجدت فيه ما أشتهى على أتمه . إننى لا أريد أن أجلس على القهوة لسببين ، الأول : أننى أستسمج أن أزوِّغ من المركز علناً ، والثانى : أن الذهاب للقهوة نوع من الوظيفة ألفتها رجلاى وسمعى وبصرى ، لو أصبت بداء المشى فى حالة النوم لما قادتنى قدماى إلا إليها ، على حين أن لذة التسكع هى فى الخروج

عن المألوف . المحطة ميتة ، لأن موعد قطار مصر لا يزال بعيداً ، حتى الناظر قفل الدكان ووضع مفتاحه فى جيبه وصعد إلى زوجه ، يخطف له تعسيلة ، لن تكتحل عينى إلا برذاذ الروائح المتطايرة مع فتات القشر من أكياس البصل المكدَّسة على الرصيف ، كل منها فى شهره التاسع . الجلوس على باب الصيدلية لم يأت أوانه بعد ، فقد قررت ألا أفعله الا إذا كانت فى يدى منشة من شعر الخيل بمقبض من العاج بعد الإحالة على المعاش حين يكون همى الأوحد السؤال عن آخر علاج لضغط الدم ، إن كان فى العمر بقية .

إذن لم يبق لى الا أن أتطفل على طبيب المركز ، صديقى الذى بفضله علمت عن مظالم أهلنا ما لا كنت أعلم أو أتخيل ، وأقرب الأمكنة شبها بمحطة السكة الحديدية التى أحبها ساعة يقظتها على صفير القطار ، هى عيادة الطبيب ، فليس إلا عندها نحس أننا فى هذه الدنيا على سفر أيضاً .

دخلت عليه فوجدته لحسن الحظ منشغلا باجراء جراحة ، إذا كان لايلبس معطفاً أبيض - حاشا ثم حاشا - فمن باب أولى ألاَّ يضع برقعاً على فمه ، لعل عذره أن أهل الصعيد يرون من أكبر الكبائر أن يتبرقع الرجل كالمرأة ، بل اكتفى بخلع الجاكتة ولملمة كم القميص فوق الكوع كالرحى ، وعلى الطاولة الضيقة الطويلة - دهانها الأبيض مقشور هنا وهناك - رقدت فلاحة شابة من قرية مجاورة ، لا ترتدى الا جلباباً أسود غليظاً ، يهبط إلى الكعبين ويتكفل ذيله إذا مشت بكنس الطريق وراءها ، طعنتها جاموسة بقرنها فمزَّقت جدار بطنها ، والعجيب أن الثوب ذاته لم يتمزق لأنه فضفاض ، فنفذ فى مكان الطعنة مع القرن إلى تجويف البطن

ثم رجع سلبياً ، كان الطبيب قد أزاح ثوبها وكومه فوق صدرها . فلأول مرة فى حياتى رأيت أمعاء إنسان حى تبرز من ثقب فى بطنه بروز أسلاك من موطور مخروب ، ودهشت حين رأيتها على غير ما كنت أظن ، رقيقة تكاد تكون شفافة ، منتفخة كبالون الأطفال ، تشبه البقاليل ، أى قدرة هذه التى تقيم حياة الإنسان المستأسد على مثل هذا الوهن ؟ الشابة الفلاحة شاحبة الوجه زائغة العينين ، مرتعبة لا من الجراحة بل من وقوعها وهى فى الغربة - مع أن المسافة بين قريتها والمركز فركة كعب - فى يد أناس ليسوا من أهلها ولا من طينتهم ، تعرف أكيدا بالبداهة وبالوراثة والسمع والعلم والتجربة أن الرحمة قد نُزعت من قلوبهم ، بائسة مغمومة لو استطاعت للطمت خديها ، لارثاء لحالها أو لحال وليد سيتيتّم ياضناى بعدها ، بل لعريها وانتهاك حرمتها وكشف عورتها ، أظن أن عارها هو الذى أفقدها الشعور بالألم ، فهى لا تصرخ أو تتأوه ، إنما تتلاحق أنفاسها كأنها تلهث من كرب عظيم ، كنت أظن من قبل أن جمال الوجه لاينطق الا فى حالة الصحة والنعيم والإشراق وأن الجمال والرضا أو البؤس أو الكمد ضدان لايجتمعان . فما بال هذا الوجه الذى تجمّعت عليه كل الأدواء ، وشحب على الخوف والبؤس ، وكادت شفتاه تضربان إلى الزرقة ، جلده مشدود وعظامه ناتئة ، كل خلية فيه لم ترع الا المش والبصل والبتاو ، مابالـه قد اكتسى فى نظرى بصفاء التحف المرمرية فى قبور الفراعنة ، كل لمس لها تيمم وتبرك وصلاة . وما بال الشفتين قد أنستنى رقة رعشتهما لونهما ، بل تمثّل لى فيه كل ضعف وضياع وعطش للحنان ، لوأطعت نفسى لمددت يدى أمسح بها على شعرها وجبهتها وملت بفمى على شفتيها الزرقاوين أقبلهما .

غسل الطبيب يديه فى طبق غويط به سائل مطهر ، لم يلبس قفازاً ، بل أخذ يعمل بسبابتيه واحدة وراء أخرى - كأنه يحشو باذنجان ضولمة - فى دفع الأمعاء البارزة داخل تجويف البطن وأنا أهمس له :

- مفيش بنج ؟

فرد علىّ بقهقهة أردفها بقوله :

- خليها على لله .

انتهى من إدخال الأمعاء ورأيت كيف خاط جدار البطن حتى إذا فرغ من وضع الضماد عليه سحب ثوبها من فوق صدرها وغطّاها وهو يتنهد . . كم كنت أتمنى أن يشيح بوجهه ولو فى هذه الحركة الأخيرة التى لاتستدعى منه النظر لتفهم الفلاحة أننا فهمنا ، ولكن تقول لمين ؟

سألته :

- أتظن أنها ستعيش ؟

فأجاب :

- وتبقى زى الجاموسة اللى نطحتها ، الصعايدة جنس نمرود ، مايجيبهوش الأرض إلا الشديد القوى ، ولايفل الحديد الا الحديد ياأستاذ .

والعجيب أنى تتبعت أخبار هذه الشابة من العمدة وعلمت أنها شُفيت فى أقل من أسبوع .

لاأدرى لماذا ذكّرتنى ملاحظة الطبيب عن الجنس النمرود بهذا الرجل الأعرج الذى عرفته فى إحدى قرى نقطة «نزالى» جنوب . انتظر أهلها علىَّ زمناً حتى ألفوا حديثى وطبعى . ثم باحوا لى بالسّر . .

كنا جالسين ذلك اليوم أمام دوار العمدة فأقبل علينا هذا الأعرج ، رجل بدين ، يدل مظهره على أنه أرفع من طبقة الفقراء المعدمين ، لما سلّم علىَّ كادت يده تسحق أصابعى ، ومع ذلك فكل حاله ينطق بأنه طفل كبير ، فى خفة حديثه وتلفت وجهه ولعبه بعود من القش يعقده حول أصابعه ، وفى استناده عند القيام على كفيه فوق الأرض حتى تعلو عجيزته .

لم يكد يستقر به المقام حتى رأيت القوم كلهم يبتسمون ويتطلعون إلىَّ ، شأن من يريد أن يروى لك نكتة تعجبه ، فلما رأى الرجل ابتسامتهم عرف الذى هم قادمون عليه وابتسم هو أيضاً ، يريد بهذه الابتسامة أن يستل منهم سلاح الهجوم ، سيكون هو الذى يضحك على نفسه قبلهم . ثم قالوا وهم يزومون :

- تحكى أنت ولا نحكى إحنا ؟

لاأذكر الآن أى الطرفين حكى الحكاية ، المهم أن هذا الأعرج أصبح منذ حادثته موضع تندر أهل القرية لخلطه بين العباطة والنمردة ، وبين الهبالة والشيطنة ، وأهل القرية يتصيدون أقل دواعى التندر لأنها قليلة ويتوارثون روايتها زمناً غير قليل . كان الرجل قد ذهب وهو سليم إلى المنيا - وتلك هى أطول رحلة له شمالاً أو جنوباً - لعيادة قريب له وللتبرك بزيارة سيدى الفولى . فلما عاد لم يركب القشاش بل ركب الإكسبريس

وقطع تذكرة لمنفلوط لأن هذا القطر لايقف على محطة نزالى جنوب ، ويتطلب نظام السكة الحديدية فى الخط المفرد(كما كان فى عهدى جنوب المنيا) أن يخطف السائق والقطار مسرع طوقاً معلقاً فى عمود على رصيف المحطة ليقذف به إلى ناظر المحطة التالية ، وهكذا دواليك محطة بعد محطة يقذف طوقاً ويخطف طوقاً ، ويقتضيه هذا أن يخفف من سرعة القطار قليلا .

وكان قطار الاكسبريس قد تأخر عن موعده وبان لصاحبنا أنه لن يدخل منفلوط الا بعد منتصف الليل حين تكون قد انقطعت كل المواصلات ، وعزم على أن يكوع فى المحطة حتى الفجر ، ولكنه حين رأى القطار يخفف من سرعته قليلا وهو يهل على محطة نزالى جنوب - وربما وصلت إلى خياشيم صاحبنا روايح قريته - حتى لعب الشيطان بعقله وأوهمه أن النزول من القطار وهو مسرع ينبغى ألا يخيف رجلاً شجاعاً مثله ، حتى لو وقع فإنه يستطيع أن يسند نفسه على يديه ورجليه ، فلم يكذِّب الخبر ولم يجد فى العربة كلها من فطن لحماقته حتى يمنعه ، ووقف على باب العربة حتى إذا رأى رصيف المحطة نزل من الاكسبريس كأنه ينزل من سوارس . . لم تدق عنقه كما يعلمنا المنطق وعلم الطبيعة ، بل نجا وكسرت رجله ، ومنذ ذلك اليوم أصبح معروفاً فى القرية وما جاورها بأنه : فلان اللى نط من السكسبريس .

وتركنا الرجل ومضى وهو يدب على ساقه العرجاء ويضحك ، يحمل عاهته كأنها قشة على ظهر بعير ، يخيل إلىَّ أنه أصبح يؤمن أنه ولد بها كما ولد غيره بست أصابع أو أربع ، فليست هذه عاهات بل عوارض .

خرجت مع الطبيب من حجرة العمليات - عيني ياعيني - إلى حجرة المكتب فوجدت فلاحاً واقفاً بالباب وقفة الخاشع المتأدب ، وسلم علينا بوضع يده على صدره تارة وجبهته تارة أخرى وهو يقبلها كل مرة .

سأله الطبيب :

- عاوز ايه ؟ بتشكى من إيه ؟

- رطوبة يادكتور ، رطوبة فى جنبى . .

الرطوبة عند الفلاح هى أخبث الأمراض كلها ، لو فتح مدرسة للطب لسماها مدرسة الرطوبة .

أشار له الطبيب فرقد فوق سرير الكشف وهم يقرفص ركبتيه ويدنيهما إلى بطنه ليتخذ هيئة الهياكل العظمية لموتى الشعوب البدائية فى قبورهم ، ففردهما الطبيب بضغط يده وهو يقول له :

- أنهو جنب اللى بيوجعك ؟

فأجاب ببساطة :

- جنبى البحرى يادكتور .

لم أتمالك نفسى من الابتسام ، وكدت أتلفت فى الحجرة لأعثر على شىء يهدينى إلى البحرى من قبلى ، حتى لو رأيت الشمس أو كانت فى يدى بوصلة لتلخفنت وظللت أدور فى مكانى . .

هذا مثل فريد لحاسة عجيبة وجدتها على أشد قوتها لدى الفلاح ، حاسة معرفة الجهات الأربع . كنت إذا سألت فلاحاً عن طريق أجابنى :

- امش شوية وبعدين تشرّق وكمان مسافة تبقى تغرّب .

وقد يكون الشرق عن يسار السائر والغرب عن يمينه ، إن الفلاح لايعرف اليمين واليسار والأمام والخلف ، بل الشرقى والغربى والبحرى والقبلى ، وقد لاحظت أنه يتخذ البحرى أساساً لتحديد الجهات الأخرى ، وبعض الشعوب تتخذ الشرق ، لست أدرى تعليل هذا الخلاف ، ولكن الذى تبينته أن الفلاح يعرف الجهات الأربع بالغريزة لا بالتعليم ، حتى لو أنه سقط من باراشوت وهو معصوب العينين فى أرض مجهولة وسمعك تنادى عليه لهتف بك :

- قَبِّل حِداى . .

هدأت نفسى بعد تسكعها فى عيادة الطبيب وإن لم يتثاءب فكى الأسفل ولم ترقد روحى على وسادة من ريش النعام ، وخرجت وسرت إلى المركز وأنا مدلدل الأذنين ، أدير فى رأسى عذراً أخترعه لأبرر تأخرى . ولماذا أذهب بعيداً . سأقول للمأمور :

- أصل عندى رطوبة . .

وليفهم ما يفهم !*

* («كتب للجميع» ، ١٥٠ ، مارس ١٩٦٠ ، ص ص٧ - ١٣)

سوق الجرائم

حاولت فى الفقرات السابقة قدر جهدى وفى نطاق خبرتى - وأعترف مع الأسف أنها محدودة - أن أصف لك شعورى - وقد أكون مبالغاً ومُهَوِّلاً - وأنا أتأمل علاقة أهل البلد بالموظفين عمال الحكومة عندهم ، ووصفت لك ماخيل إلىَّ أننى رأيته من ثمارها وجذورها باحثاً عن تفسير لهذه الهوة التى كنت أحس فى عهدى أنها تفرِّق بينهم والتى جعلت من همى المؤ رق أن أبنى لنفسى فوقها جسراً فكان ينهدم قبل أن يقوم . لم أفلح فى حمل الفلاح على الوثوق بى مع أننى رفضت كل الرفض أن أؤمن بما يقول زملائى - عن تجربة - بأن الفلاح رجل لا يوثق به وأنه عنيد لايتحول عن طبعه وأن معاملته باللين والإنسانية عبث ضائع . . يلحون على أذنى بهذا الكلام يوماً بعد يوم .

هذه الريبة التى شرحت لك مظاهرها وأسبابها هى التى كانت تفسد على الحكومة كثيراً من نياتها الطيبة وكانت تجعل - كما يتبين من الأمثلة التى ذكرتها لك فيما سبق - بين الكلام الجميل على الورق وتنفيذ هذا الكلام بوناً شاسعاً .

بقيت لهذه الهوة أسباب أخرى لا بد لى من ذكرها ، بعضها لاحيلة لنا فيه ، يظلم الفلاح حكومته بسببها ظلماً شديداً ، سأضرب لك مثلاً بقضية عاصرت مولدها وخاتمتها المفجعة .

فى أحد بلاد المركز أسرة لها سطوة كبيرة ، لن أطيل عليك بذكر أسبابها ، الأب - عميد الأسرة - هو «الرأى» الذى يقدِّر الموقف ويدبر

الخطة ويعطى إشارة التنفيذ ، رجل داهية ، ماكر ، سهتان ، لولبى ، غويط ، ساحر فى كلامه ، وتصنعه التقوى والضعف والطيبة وإيثاره المسالمة على العدوان ، ماء من تحت تبن ، يساعد على هذا الزعم أنه رجل نحيل ، قلة ، مصاب بأمراض كثيرة أخفها الربو والفتاق . هو أمى لايقرأ ولا يكتب ولم يخرج من قريته الا قليلاً ومع ذلك كنت إذا جلست إليه أقول له فى سرى «لوكنت من رجال السياسة كان يروح جنبك فين «ماكيافللى» أو«متر نيخ» !» . . كنت أعجب به ، وأحبه ، رغم كهوفه وسراديبه . . وأستلطف مجلسه وحديثه . .

أما التنفيذ فموكول إلى الابن الأكبر وهو شاب ضخم الجثة ، مفتول العضلات كأن لحمه من حديد ، لومال على جبل لهدّه ، يعرفه أهل البلد أنه جرىء ، مستبد ، لايحب أن ينزل كلامه الأرض . مرهوب تخافه الناس .

وأصبحت البلد ذات يوم وهي تتحدث عن نزاع قام بين هذه الأسرة وجار لها فى الأرض ، كل ماأذكره عن سبب النزاع أنه يتعلق بالحدود بين الأرضين ، أو بمرور ماء الماكينة إلى أرض عبر الأخرى ، لاشأن له بالمال أو بالعرض . وعلم أهل البلد كلهم أن هذا الشاب قال لجاره أمام جمع من الناس :

– ياتيجى بالمعروف ، ياما يحصلكش طيب ، صدقنى . .

وأهل البلد كلهم يشهدون أن هذا الجار رجل طيب ، لا يؤذى ذبابة ، وأنه إنسان ، ولكن الظاهر ان أجله كان قد انتهى ، فلا يدرى

أحد لماذا ركب هذه المرة رأسه وأبى الانصياع للتهديد - ومع ذلك أخذ يحتاط لنفسه .

رأيته بعينى لايفارق داره قط بعد الغروب ، ولا يخرج بالنهار الا بين حارسين شحطين ملتصقين بجسده عن يمين ويسار ، وعينه مع ذلك تجوب الأفق ، قلقة ، مستريبة ، يشتد انتباهها عند المرور بجانب غيط أذرة ، أو إذا رأت من بعيد شبحاً لواحد من بلدة غريمه فيخال لها إنه يخفى تحت جلبابه بندقية ، أية معيشة هذه ؟ كيف كان فى هذا الخوف المقيم يـأكل ويشرب وينام ؟

لم يكتف بذلك بل قدَّم للنقطة بلاغاً يشرح فيه الأمر ، وينهيه بطلب واحد هو أن تأخذ النقطة تعهداً على المشكو فى حقه (بعدم التعرض له) - هذا هو التعبير المستعمل فى أمثال هذا البلاغ .

وقد وجدت المركز أثناء عملى به يتلقى عدداً كبيـراً من أمثال هـذا البلاغ ، يحرر المعاون بكلام الشاكى وكلام المشكو فى حقه محضراً تحفظه النيابة إدارياً ، أو يتولى الباشجاويش بخطه البديع قيد كلام الاثنين فى (دفتر الأحوال) ويصر الشاكى قبل الانصراف أن يسجـل رقم وتاريـخ المحضر أو القيد فى دفتر الأحوال فى ورقة يضعها فى عبه كأنها حجاب . .

وكنت أرقب هذا الذى يحدث وأتعجب له . فنحن نعلم أننا نشهد مولد أسباب جريمة متوقعة ، ومع ذلك نقف أمامهـا مكتوفى الأيـدى ، فالنزاع من اختصاص المحاكم المدنية ، ولو تتبعنا هذه الشكاوى لمحاولة فض أسبابها لما بقى لنا وقت لتحقيق الجرائم التى وقعت فعلاً ، ثم لاشك أنه سيتبين لنا آخر الأمر أن أغلب هذه الشكاوى أوهام وأن تهديد المشكو فى

حقه تهجيص فى بلاليص . من العسير أن نصبح (لجنة صلح) متنقلة ، ليس هذا فى تقاليد المركز ، ولو فتحنا هذا الباب على أنفسنا لما عرفنا كيف نغلقه ، هذه هى صورة متكررة للغز الذى يحير الناس منذ قيام الحكومات وإنشاء النيابة والبوليس وقوات الضبط والربط . . إنها لا تتحرك إلا بعد أن تقع الجريمة فعلاً . أما قبل ذلك فكل جهدها أن تقف موقف المتفرج .

وكنت أرقب الشاكى حين يضع الورقة فى عبه ، وأكاد أحس أنه لا يأخذها كضمان لحياته ، بل كضمان أن دمه بعد موته لن يضيع هدراً ، إنه يريد أن يفتح عين الحكومة قبل أن يطمس الموت عينه هو ، هو يريد منذ الآن أن يطمئن على أنه قادر على الانتقام وهو فى قبره . . أمنع نفسى بجهد أن أقول له . . لكن بعد خراب مالطة ! . .

ومضت أيام وأسابيع على هذا النحو حتى كادت الحكاية تضيع فى طى النسيان ، ولكن لعب القط والفار ، فإذا به ذات يوم وقد عاد إلى داره وكان الغروب قد خدعه وسبقه بوقت غير طويل يسهو - وكل شىء مقدر ومسطر على الجبين - ويجتاز وحده الشارع الضيق أمام بيته إلى دكان بقال فى مواجهته ليشترى منه أوقية من الشاى وأوقيتين من السكر . . وكان البقال قد علّق على مدخل الدكان مصباح اللوكس ، يزن ، ويصطدم به بصوت مسموع أنواع عجيبة من الحشرات ، وتبدو الوجوه تحت نوره الوهاج شاحبة غاضت دماؤها . . وهمَّ الرجل بتقديم يده لتناول الشاى والسكر ويُمسِّى على البقال ويُصبِّحه بخير ، فإذا به ينطخ بعيار نارى من تحت الجسر القريب فوقع من فوره قتيلا فلما عدلوه على ظهره وجدوا يده لا تزال قابضة على الشاى والسكر .

هذه هى القضية ، هى عند أهل البلد سهلة واضحة ، الأعمى يشوفها ، لا يختلف فيها اثنان ولاينتطح عنزان ، إن القاتل هو هذا الشاب ولاريب ، ينبغى إذن حسب منطقهم القبض عليه فوراً ومحاكمته وإعدامه فى أربع وعشرين ساعة ، يقولون هذا وقد علموا أن الشاب كان لحظة إطلاق العيار جالساً - على غير عادته - فى بيت العمدة مع عدد من الأعيان والسمار - من بينهم الأب ، وهؤلاء أناس لاتُكذَّب شهادتهم ، إن هذا الخداع عندهم تأكيد لا نفى لإدانته . إنهم يسقطون من الحساب صاحب اليد التى ضغطت على الزناد ، هذا مأجور ، آلة صماء لاتفترق عن البندقية التى أطلقها ، هو دخيل ، فالقضية هى بين القتيل وغريمه الشاب .

ولكنهم يرون أن لرجال البوليس والنيابة منطقاً مخالفاً ، جعلنا همنا الأول البحث عن القاتل ، تتبعنا أثره فى الحقول فضاع منا ، فتشنا بيوتاً كثيرة فلم نعثر على شىء . . يقولون : وهو القاتل مغفل حتى يترك البندقية فى بيته ؟ . . . لم يتقدم أحد بشهادة عن واقعة القتل تسعفنا . لم نلبث أن أدركنا أن القضية (فطيس) ومع ذلك فتحت ضغط الرأى العام قبضنا على الشاب وسقناه إلى سجن المركز ونحن نعلم أن إقامته فيه لن تطول فإذا كانت براءته موضع شك قليل أو كثير فإن الحكم عليه محال لعدم كفاية الأدلة على الأقل .

ويتفرَّج أهل البلد على الحكومة فى هذه اللخمة ويستخفُّون بها وبمنطقها وتظل الهوة قائمة بينهما .

لذلك كان للجرائم سوقان ، سوق حر - أهالى - وسوق رسمى - ميرى - ولا علاقة بين الاثنين .

فى السوق الحر القاتل معروف ولو لم يره أحد ، والأسباب بيِّنة واحتمال الأخذ بالثأر - فهذا هو الحل الوحيد - يدرس على ضوء عزوة أسرة القتيل ورجولة أفرادها ، وقد يُحسب حساب للابن الرضيع فى الأسرة العريقة فى أخذ الثأر . مابقى بعد ذلك من كلام عن الجريمة فنوع من السمر ، ما أحلاه عند الاجتماع فى الغيط بالليل تحت سماء تناثرت نجومها وحول نار وقودها قوالح الذرة ، ولكنه كلام لايسجل ولايقيد ولا يعرض بعضه على بعض لتعرف جانب الصدق والكذب فيه .

أما السوق الرسمى فهو - على النقيض من السوق الحر - منشغل بالثانوى ، بالتفاصيل ، بالمظهر السطحى . الحق الواضح لايزال يحتاج عنده إلى برهان كأنه يطلب من القتيل - لا من القاتل ! - ألا يقع القتل إلا بحضور شاهدين على الأقل ، وأن يطابق أحدهما كلام الآخر بالسنتى والمللى ، حتى فى وصف الثياب ، ومقدار غروب القمر ، وقياس المسافات أولاً فى تحقيق البوليس ، ثم بعده بوقت قليل فى تحقيق النيابة ، ثم بعد عمر طويل أمام المحكمة . ومنظر القضاة على منصتهم بالأوسمة والوشاح رهيب ، وصرخة الحاجب تزلزل القلوب ، وللمحامين صراخ وإمساك بالتلابيب فلا نجاة إلا أن يقال لهم ما يرضيهم ولو كذباً ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فالمسألة هى عندهم مسألة شكليات وإجراءات حكومية . .

لذلك لايجد الفلاح غضاضة فى أن يدلى فى هذا السوق الرسمى - الذى يراه سوقاً أعمى - بشهادة الزور . . أهه كله عند العرب صابون .

قد تختفى جرائم الأخذ بالثأر لو أخذت الحكومة هى نفسها بثأر الفلاح ، بحسب منطقه وهذا محال .

وقد تتبعت باهتمام أخباراً كثيرة عن بعض رجال البوليس والإدارة ، تُروى كالأساطير ، ولايزال لاسمهم دوى فى الصعيد ، اذ وجدت شهرتهم قد قامت على أنهم لم يأبهوا بالقانون والسوق الرسمى وماشوا منطق الفلاح ودبَّروا هم أنفسهم مقتل نفر من عتاة المجرمين . هكذا يقال عنهم ، والله أعلم بالحق ، ولكنى وجدت الفلاحين يذكرون هذه الأسماء ويحيطونها باحترام وإعجاب شديدين ويقولون :

- كده تكون الرجالة ولاّ بلاش .

لاأترك هذا الموضوع دون أن أخبرك أننى كنت إذا فرغت من عملى لاأخرج من المركز الا إذا زرت هذا الشاب فى زنزانته ، وطلبت إليه ذات يوم أن يكتب لى شيئاً بخطه فى الدفتر الذى كنت أحتفظ به حينئذ - وضاع منى فيما بعد - لتسجيل عينات من خطوط المجرمين ، - لعلك تذكر أننى حدَّثتك عن هذا الدفتر فيما قبل - . وقد ارتاب فى هذا الطلب أول الأمر ، ثم استجاب لرجائى وهو يضحك على هذه التقليعة الجديدة التى لم يفهمها . يقف فى الزنزانة كالأسد ، الحبس للجدعان والدنيا بخير ، إذا اقترب منى وقبض بيديه على القوائم الحديدية ملأ صدره شُرَّاعة الباب وفاض على الجانبين ، يستقبل الزوار كالضيوف ، ويطلب لهم شاياً ، وجدت العساكر والخفر فى خدمته وبقية المساجين - بلا سعى منه - يعاملونه كأنهم أتباع له ، لم يكن مسجوناً ، بل معتكفاً يستظل هنيهة تحت سقيفة هرباً من حر الشمس . .

جمعية عمومية

ومن المنغصات للعمد أن المركز يستدعيهم . (حسب قولهم كل يومين والثانى ، وحسب الواقع : كل حين ومين) لعقد جمعية عمومية . مايزورنا المدير أو وكيله أو مفتش الداخلية ، وكذلك ما يحل موسم الفيضان أو الدودة أو الجراد أو تقفيل الميزانية ، حتى تنبعث إشارة تليفونية تُشدِّد على جميع العمد بضرورة الحضور ، والحذر ثم الحذر من التأخير . فيهم من يسكن على أطراف الوادى ، بينه وبين البندر سفر شاق طويل ، كلهم يقدم متحسراً على ضياع يوم كان ينفعه لو خلص له فى قريته .

هذا يوم مشهود ، حول بناء المركز عدد غير قليل من الخيل والحمير ، بين غنى وفقير ، الخفراء المصاحبون للعمد جاءوا مرتدين ملابسهم القروية وتحت إبطهم الزى الرسمى وهو بذلة زرقاء من قماش خفيف لها حزام عريض يشد وسطهم ، وتحيل لابسها إلى نحلة ضخمة ، وإذا بلغوا باب المركز جلسوا القرفصاء فى الطريق وخلعوا ولبسوا أمام أعين الناس ، ثم وضعوا على رءوسهم لبدة كالطربوش بلا زر فوقها نحاسة مستديرة عليها رقم . حينئذ تكون القيافةالرسمية قد تمّت ، فيدخلون المركز وهم مطمئنون ، فقد كان من أسباب الجزاءات التى يوقعها عليهم الحمقى من رؤسائهم أنهم يَمْثلون أمامهم أحياناً وقد غفلوا عن ارتداء هذا الزى الرسمى الذى يضيقون بقمطته ضيقاً شديداً .

يجلس العمد صفا وراء صف ، يستمعون إلى الخطب والأوامر والتنبيهات المشددة ، من ضرورة حفظ الإمن (بكسر الهمزة من فضلك)

وتحصيل الميرى وتنفيذ أوامر الحكومة . لم أجد فيهم من يتكلم أو يقف ليسأل ، بل هم منصتون صامتون ، فهذا كلام سمعوه من قبل مراراً ، وما حضورهم الا سداداً لخانة . وخيل إلىّ - ولست أدرى إن كنت على حق - أن الصداقات قليلة بين العمد ، فلم أشهد كثيراً من الأحضان والقبلات أو السلامات الحارة ، أكثرهم لائذ بنفسه منطو عليها . أيكون تحمل الهم الواحد منفراً لامقرباً بين القرناء ؟ .

أما نحن المعاونين فكنا نفرح لهذا اليوم كثيراً ، فوق مكاتبنا أكداس من أوراق يلزم لإنجازها أخذ أقوال العمدة ، فنظل نستدعيه ونرجوه التكرم بالمرور علينا فيماطل ويسوِّف ، الآن وقع فى الخيَّة .

من أثقل هذه الأوراق ، حكم تأديبى يقتضينى أن أحصل من العمدة غرامة قدرها خمسون قرشاً لسبب لاتستريح له نفسى . فالتهمة هى أنه أهمل فى ضبط سلاح أو التبليغ عنه . فما تقع فى القرية جريمة ويستعمل فيها سلاح - سواء أكان بندقية أم سكينا - حتى يحرر للعمدة - إدارياً - محضر مخالفة لأن حضرته لم يفتح عينه ولم يضبط هذا السلاح قبل وقوع الجريمة . وليس فى القرية فلاح واحد له أرض أو زرع لايملك سلاحاً . . لايدفع العمدة هذه الغرامة إلا بضجر بالغ وهو يضرب كفاً بكف ، قائلا «وانا ذنبى إيه ، كنت أشم على ضهر إيدى ؟» كنت أحس أحياناً أننى أُنتزعها من جيبه انتزاعاً ، وكان مما يهوِّن على نفسى علمى بأنه سيفرضها بدوره على قريته .

والورقة الثانية ثقيلة الدم أيضاً . هى تذكرة لجمعية خيرية ورد للمركز عدد كبير منها لتوزيعه بالذوق والإنسانية ، ونحن نعلم أنها لن تُوزَّع الا

بالإكراه ! ونقوم نحن بدل الجمعية بدور المستعطف المستجدى تارة ، والضغط والتلميح بما قد يخبؤه المستقبل تارة أخرى .

وقد رأيت العمد ينقسمون إلى ثلاث طوائف : الأولى عمدة من أسرة لها عِزْوة ومِلْك ، الوظيفة ليست الا تأكيداً وتثبيتاً للمقام ، عليه سمة الأعيان لاسمة الموظفين ، شيخ الخفر تابع ملتزم حده ، وكنا نرتاح مع هذا العمدة لأنه يفض كثيراً من المشاكل - وربما بلغ بعضها حد الجنايات - فلا تصل للمركز ، والثانية عمدة من عائلة طيبة ليس لها عزوة كبيرة أو ملك وفير ، عليه سمة الموظفين لا الأعيان ، هو أكثر من العمدة الأول اعتداداً بمنصبه وأشد حرصاً على إطاعة الأوامر وتجنب المسئولية ، شيخ الخفر رأسه برأس العمدة ، والثالثة عمدة فى قرية كل أهلها فقراء على باب الله ، يقترض العمدة من أقاربه وأقارب أقاربه إقرارات كاذبة بأنه يملك النِصاب القانونى من الأرض (عشرة فدادين فيما أذكر) ليس عليه لاسمة الموظفين ولاسمة الأعيان ، بل سمة الأجراء المسترزقين ، المركز يركبه ، وأهل البلد يركبونه ، ونفوذ شيخ الخفر يفوق نفوذه ، وبدلاً من أن نستنجد به ، فإنه هو الذى يستنجد بنا . جيتك ياعبد المعين تعينى لقيتك ياعبد المعين تنعان .

***

رحلة ملكية

الإشارة التليفونية التى خرجت هذه المرة من المركز للتتميم على جميع عموم كافة العمد هى إفادة حامية جداً ، المأمور أصبح يشبه هذا الجهاز

العجيب الذى كان يدور به علينا فى القهاوى رجل جعل صنعته أن يمتحن قوة أعصابنا ، لقاء أجر ندفعه نحن له (دبور زن على خراب عشه !) فيقدم لنا مقبضين من نحاس (لم يذهبا قط للمبيض !) يخرجان بأسلاك من صندوق أقذر من ملابس صاحبه ، فما نكاد نضم عليهما اليدين حتى تسرى فى أبداننا رجة عنيفة ، وتقاس رجولتنا بمقدار صبرنا عليها . أصبح المأمور رعشة مصبوبة فى قالب على هيئة إنسان : صوته ، يده ، كرشه ، شاربه ، رمشه ، شفتاه . . كلها ترتعش . وسرت هذه الرعشة إلى الجميع . . حتى العسكرى عامل التليفون ، كفه ترتجف وهو ممسك بنص الإشارة ، تكاد الورقة تلسع أنامله ، صوته مرتعش ، ولكنه حاد كوقع السياط ، نبراته متتابعة كطلق الرصاص ، تقفز وتقرقع من حلقه كحبات الأذرة وهى تُشوى على بلاط الفرن ، ليس هذا وقت الدلع والتريقة وتبادل النكت والشتائم الحيَّانى مع الخفراء عمال التليفون فى دور العمد .

ذلك أنه كان قد وصلنا من المديرية ذلك الصباح نبأ اعتزام الملك فؤاد - الجندى أبو شنبات مبرومة - القيام برحلة إلى الصعيد . سيغادر فى حراسة الله عاصمة مُلْكه بالقطار الملكى ثم يعود فى رعاية الله باليخت المللكى «قاصد خير» . وعلمنا من البرنامج موعد مروره ببندر منفلوط فى الذهاب والإياب باليوم والساعة والدقيقة .

ومع أن برنامج الرحلة يؤكد أن القطار الملكى لن يقف فى محطة منفلوط الا أن المأمور رأى من الضرورى أن تُقام الزينات وأن يصطف على رصيف المحطة أكبر عدد من أعيان المركز وأهله فلربما - من يدرى ؟ - راق للملك فى لحظة نحس أن يُطل من الشباك والقطار يمر أمام محطة منفلوط

فإذا رآها قاعا صفصفا سأل عن اسمها واسم مأمورها . أليس من المعقول بعد ذلك أن يأمر برفته ؟ .

ودخل مأمورو المراكز فى مزايدة عجيبة ، يحاول كل منهم أن يبذّ قرناءه فى مظاهر الترحيب بالملك ، لم تنقطع الاتصالات التليفونية بينهم ، وكل منهم يكذب ويخفى ورقه عن الآخر .

أما الزينات فأمرها سهل . كانت المحافظات والمديريات والمراكز فى ذلك العهد أصبحت تنافس أصحاب محال الفراشة فى حيازتها لعتاد ضخم من الرايات والأعلام والمصابيح الملونة وغير الملونة . كانت الدولة أكبر مالك ومورد لمعالم الأفراح . وكان بمحافظة القاهرة لجنة أعضاؤ ها من كبار الأعيان اسمها لجنة الاحتفالات باستقبال حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم . وكان فى مركزنا نصيبه من هذه الزينة يحرص عليه وينفض عنه ترابه فى المناسبات الملكية ، إذن ستزدان المحطة بالأعلام ، وتسطع عليها بالليل الأنوار ، ولو بعد مرور القطار ، بالنهار . . وسيُجنّد طلبة المدارس مع أساتذتهم من مطلع الفجر ، وإن كان مرور الطلعة البهية الملكية - بسرعة ٩٠ كيلو مترا - سيكون فى عز الظهر ، وسيتمّم على جميع عموم كافة العمد بالحضور ، والحذر ثم الحذر من التأخير ، وسيتقدم المأمور بأحر الرجاء لأعيان المركز بأن يتخذوا أماكنهم هم أيضاً على رصيف المحطة . أما الورقة التى أخفاها المأمور فهى نجاحه فى تجنيد عدد من عربان قرية «التتالية» - لقاء أجر من المصاريف السرية - للجرى على خيولهم على جانبى القطار . .

واستراح المأمور وتنفس الصعداء ، وهدأت الرعشة ، ولكن الفرحة

لم تتم . إذ همس له كاتب الخفر وهو يعرض أوراقه - وهو شاب معروف عندنا باصفرار وجهه وخبثه - . . وقال :

- الصحف تـذكر دائـماً فى وصف استقبال جـلالـة الملك انـطلاق الزغاريد . . وقد علمت أن القطار الملكى سيستقبل عند مروره بمحطة ملوى ويشيع بالزغاريد . .

ياخبر اسود ! . . امتقع وجه المأمور . . من أين له بهذه الزغاريد ؟ إنها موهبة اختُصَّت بها النساء دون الرجال . ولن تقبل امرأة واحدة من أحرار أهل البندر أن تخرج للمحطة وتزغرد ، ولو لجلالة الملك ؟

أعمل المأمور فكره طويلا ، واستشار معاون البوليس ، وأخيراً لمعت فكرة بديعة ، من حسنِ الحظ أن مركز منفلوط به نقطة مومسات ، فلماذا لانحسن التصرف ونُجنِّد بلباقة وبدون ضجة مومسات النقطة للوقوف على رصيف المحطة ، بمنأى عن الجميع ، لن يشعر بهن أحد ، وسيظل الأمر سراً مكتوماً . . وبذلك نضمن انطلاق الزغاريد . .

ولأول مرة فى تاريخ هؤلاء المومسات أصبح كلام المركز لهن رجاء لا زجرا . .

فى ذلك اليوم رأيت سرب المومسات يسير فى الطريق إلى المحطة ، على وجه كل منهن ابتسامة جمعت بين فرحة الخروج للنزهة فى يوم عطلة رسمية من وجع الشغل ، وبين الزهو بمكانة جاءهم الإقرار بها غير انتظار ، إلاّ أنى شعرت - ولا أدرى لماذا - أنها كانت تخفى شيئاً من الخجـل ، نعم من الخجل - وليس من العجيب أن تخجل المومس ، خجل لمشاركتهن فى لعبة

زائفة ، وللهوان الذى هبط إليه المركز بجلالة قدره وإن كان فى هذا الهوان رفعة لهن . فليس كالمومس علماً وإحاطة ورعاية لأقدار الناس وترتيبها طبقاً لاختلاف مراتبها . هى دائماً من علماء البروتوكول ، وترتيب الأسبقية فى المال والنفوذ .

واتخذت مكانى بجانب المأمور ، لأنى أحب أن أقف بجانب كل «صعبان علىّ» . وقبيل الموعد المحدد حين شارف التوتر أن يبلغ ذروته لا أدرى ما الذى حدث ، ساد الهرج والمرج ، واختلط الواقفون من أعيان ومومسات بعضهم ببعض . فهذا رجل طيب لمحت عمامته وسط شلة من المومسات ، ولما انكشف لى وجهه رأيته يضحك ببلاهة ، وهذه مومس تشق الصفوف وتنطبق عليها حلقة من كرام الأعيان ، وإذا هى تشرح لهم مسألة عويصة لم أتبينها ولكنى رأيتها تشير بيدها إليهم تارة وإلى صدرها تارة أخرى . وهاج المأمور فجأة ، لقد باظ الترتيب وأفلت الزمام وانكشف السر واختلط الأمر ولا نضمن انتظام الصفوف ولا انبعاث الزغاريد كقومة سرب حمام . فإذا به يشد قامته كأنه قائد فى ميدان يصرخ صرخة الحرب ، ويلوح بيده اليمنى مشيراً لليمين وباليسرى مشيراً لليسار ويزعق بأعلى صوته :

- الأعيان هنا . . والمومسات هنا . .

وبعد قليل مرق القطار الملكى أمامنا بسرعة كبيرة . . مغلق شيش النوافذ كلها . لم نر وجه مخلوق واحد ، وانطلقت الزغاريد وعلت الهتافات بحياة مولانا الملك وانصرف الجميع وقفاهم «يقمر عيش» . .

كانت الرحلة الملكية فى العودة أقل وجعاً للدماغ . ولم ترتجف لها

القلوب . فاليخت «قاصد خير» لكبر حجمه وجلالة قدره لا يسير إلا وسط مجرى النيل ، وبعد أن يتخذ مهندسو وزارة الأشغال كل الاحتياطات لرفع مستوى النهر - لفترة وجيزة - ولو على حساب الماء المخصص لري الأراضي العطشى . وبين وسط النيل و «موردة» منفلوط مسافة كبيرة . سيكون البعد حمى لنا من السلطان ، فمن الأمثلة التي كنا ورثناها عن عهود الاستبداد «السلطان من لم يجاور السلطان» . حتى لو شاءت له إرادته السنية أن يقف على سطح اليخت (والأمل ألا تكون عنده نظارة معظِّمة !) ودقق النظر فلن يرى أشخاصاً بل أشباحاً ، ولن يرى صفوفاً متراصة كالجند ، بل لحمة مختلطة ليس بينها مومسات هذه المرة لأن الزغاريد مهما لعلعت لن تصل إلى أذنيه الكريمتين .

ومع ذلك ذهبنا من النجمة ومعنا العساكر والخفر وضحايا السخرة الراقية من طلبة المدارس وأساتذتهم وجمع من هلافيت الناس . هذا لا يهمنا فالعبرة هنا - والسلطان بعيد - هي في العدد لا في المقام .

و «موردة» منفلوط تبتعد عن البندر مسافة كبيرة (وكأنما كان بين مدننا والنيل عداوة مستحكمة ، فكل منها تبتعد عنه وتدير له ظهرها ، انظر بنها وكفر الزيات . . ولماذا نذهب بعيداً ، انظر إلى القاهرة المعزية والأيوبية). ليس لها طريق ممهد ، بل نسير إليها في مدق صغير وسط الغيطان ، شط من الطين الزلق أمامه حجران ، يطلق عليه اسم «الموردة» تجوزا ، فهذا مكان لا يصلح لرسو قارب صغير ، غاية ما يُنتفع به أن تتجمع عنده الفتيات لملء البلاليص ، (مشروع إنشاء موانى نيلية يداعب عيني منذ وعيت قراءة الصحف ولم ير النور بعد) . لما بلغناها ألفينا أنفسنا مضطرين لأن ندوس

بالأقدام أرض فلاح فقير - لا تزيد عن قيراطين - زرعها بصلا . . وفى غمضة عين أصبح الغيط سداحاً مداحاً . رأيت الفلاح يحاول أن يصد بيديه صدر كل واحد منا ، فلم يفلح . وهل يمكن له أن يصدَّ الحكومة ؟ فقعد القرفصاء ، وأسند رأسه على كفيه فوق ركبتيه . .

ومر اليخت من بعيد بعد أن مرت الساعة الثالثة . . لم نكتف بتلويح الأيدى والأذرع بل هتفنا أيضا - دون أن نجهد أصواتنا - ليحيا جلالة الملك .

وكان آخر شىء علق بأذنى ونحن ننصرف صوت الفلاح وهو ينوح :

- عوضى على الله . .

لا أدرى لماذا بعث منظر هذا الفلاح فى روحى شعوراً ممضا بإعياء وتعب شديدين . وشكوت حالى للمأمور - وكنت لا أزال كثير التشكِّى بلا حياء - فقال لى ، مستغلاً فراسته وذكاءه :

- من تعب المشوار ووقوفنا من الفجر .

فنظرت إلى وجهه وابتسمت ، واستعادت روحى بعض سكينتها .

***

قصيدة من ٩٩ بيتاً

وقد أعادت هذه الرحلة الملكية إلى الأذهان فى منفلوط ذكرى رحلة سابقة لولى نعم آخر . . مر الخديو توفيق بالقطار على منفلوط ذات يوم

وخرج الأعيان لاستقباله بالمحطة وتقدم إليه شاعر منفلوط حينئذ الشيخ أبو النصر واستأذن أن يلقى بين يديه قصيدة للترحيب ، فتنازل الخديو وأذن له ، وربما فعل لعلمه بأن القطار لن يقف بالمحطة إلا دقائق معدودة ، ولعله كان يعرف الشاعر إذ كانت له شهرة مستفيضة فى خفة الدم والظرف والفكاهة .

وبدأ الشاعر تلاوة قصيدته ، بيتاً بعد بيت ، والخديوى يهز رأسه بالرضى والإعجاب ثم يصبر ، والشاعر ماض لا يفتر عن التلاوة ، تتلاحق الأبيات ، دون أن تلمع بارقة أمل فى قرب الختام ، فتململ الخديوى وانتقل غليان القاطرة وضجرها إليه بالعدوى فقاطع الشاعر قائلاً بضيق يقنعه بابتسام :

- هى القصيدة كام بيت ياشيخ أبو النصر ؟

فأجابه كلمح البرق :

- ٩٩ يا أفندينا ! .

هذا جواب لا يمكن السكوت عليه بل يثير بلا تردد سؤالا لا مفر منه ولا يختلف فيه اثنان .

فارتفع حاجب الخديو واختلجت عينه وقال بعجب :

-طب وماخلتهاش ١٠٠ ليه ؟ .

فكان الرد أسرع من سابقه :

-أصلى ناقصنى بيت يا أفندينا .

ففهم الخديو هذه التورية وابتسم لها وأقطعه بيتا فى منفلوط ،

مكافأة للشاعر على لباقته وظرفه ، ولينقذ نفسه - على الأقل - من قصيدة لا تنتهى . .

وقد لحقت بعض فلول أسرة هذا الشاعر ، ورأيتهم هم أيضاً أهل ظرف وسماحة وتحشم ، ولكنى لم أستطع أن أظفر عن شاعر منفلوط بخبر آخر ، ولا وقعت يدى على ديوان شعره حتى اليوم .

***

ذكرى الراحلين

كم كنت أود أن يعنى أبناء مدننا بجمع آثار رجالاتها السابقين وحياطتها وإبرازها ، فلا تعدم مدينة منها رجلاً من أبنائها كان له فضل سابق مشكور ينبغى ألا تنساه ، إما فى خدمة القضية الوطنية أو بالتفوق فى ميدان العلم والأدب سواء فى الأزهر أو المدارس ، أو بترك مؤلفات غلّفها النسيان أو آثار تدل على إحسانه وبرِّه بالفقراء (المنشاوى فى القرشية ، كشك فى زفتى ، الغمراوى فى بنى سويف، حفيظة الألفية إلخ إلخ) وحبذا لو جعلت لجان الاتحاد القومىُ هذا العمل فى مقدمة برامجها ، بأن تجمع كل ما تعثر عليه لهم من وثائق ومؤلفات وصور ورسائل تجعلها نواة لمكتبة بلدية . كما تشجع فى الوقت نفسه دراسة أنساب الأسر العريقة وتاريخها ، وكان عندنا فى الماضى القريب أكثر من متخصص فى علم الأنساب (وكانوا من أعز الناس عندى) مثل رمزى ، بسيونى ، فخرى عبد النور ، عبد اللطيف سعودى ، وأخشى مع الأسف أن يكون هذا العلم قد انقرض بموتهم جميعاً عليهم رحمة الله .

الست ظريفة

سأذكر هنا مثلا آخر على خلو مدننا من مراجع عن الفضلاء من أبنائها السابقين ، ولكنى لست أدرى - والتسامح يتباين - هل يصلح هذا المثل عند الناس كما يصلح عندى ، لعلهم يقولون إننى أُجرِّح حُجَّتى بإثارة نموذج لما قد يجره «التفتيق» أحياناً فى دفاتر بعض هؤلاء الراحلين ، والأفضل عندهم أن أكفى ماجورا على سيرة يؤذيهم فيها سوء المطلع وكان يجمل بهم ألا يروا منها إلا حسن الختام ، ولكن ما حيلتى والمثل مستمد من منفلوط ، التى جعلت من همى أن أستوفى لك صورتها بما قدرت عليه من ألوانها المتعددة المتضاربة .

أكبر المساجد فى منفلوط وأعمها بالناس يوم الجمعة هو مسجد الست ظريفة (وهذا مثل فذ على تسمية المساجد فى الريف بأسماء السيدات) وقد حاولت عبثاً أن أعرف من هى هذه الست ظريفة وأين منشؤها ومتى عاشت وكيف أقامت مسجدها . لم أظفر من أهل البلد على كثرة سؤالى بجواب نافع ، نسوها ونسوا كل شىء عنها ولم يذكروا لى (هل السيئات أبقى أثراً فى ذهن الناس من الحسنات ؟) إلا أنها - فيما يقال - امرأة أمضت أبرك عمرها فى تجارة الهوى ، ثم استتابت ربها فتاب عليها ، فأنفقت كل مالها فى طاعته ورضوانه . ومنعنى اليأس من أن أسأل أين كانت تجارتها ؟ فى العاصمة ؟ فى منفلوط ؟ . وماذا كان مبلغ جمالها ؟ وهل «ظريفة» هو اسمها حين ولدت أو اسم الشغل ؟ وللفضوليين أمثالى أسئلة سخيفة تقلقهم ولا ينسونها إلا إذا جدَّت لهم أسئلة أسخف منها .

فالست ظريفة إذن هى رابعة المنفلوطية .

بائعات الهوى

جاءت سيرة المومسات فى الفقرات السابقة فخير لى أن أفرغ هنا من التحدث عنهن .

لم تكن نقطة المومسات فى منفلوط ذات شهرة مستفيضة ، وليس لها اسم يمت إلى الطبيخ كما تسمى قرينتها فى أسيوط باسم «الخبيزة» ، ولا أظن لها أصلاً عريقاً وأقدمية تاريخية مثل نقطة المومسات فى «بهجورة» فى الصعيد الجوانى . لا تروى عنها مغامرات التبذير فى الهوى أو المال أو المخدرات ، لم تكن وكرا للمجرمين والفتوات ، ولا تحدث فيها مشاجرات . وقد بقيت فى المركز سنتين فلا أذكر أنها أزعجتنا طوال هذه الفترة إلا بقضية واحدة غامضة عجيبة سيأتى لك خبرها بعد قليل ، بل هى دكان شغل فى مستوى دكان بقال فى قرية ، كل بضاعته رخيصة وتُصَر فى منديل ، لا يباع فيه الغاز إلا ملء مصباح الفتيلة ليلة بليلة ، لأن الرزق يوم بيوم والرحمن لا ينسى عبيده .

وكان من التقاليد المرعية أن الموظفين يتحاشون هذه النقطة وإن سمح بعضهم لنفسه أن يستضيف فى منزله إحدى نزيلاتها فى تكتُّم شديد وفى ستر من الليل البهيم ، وكان لهم فى البغاء السرى فرج ومتسع ، فإن أهل الصعيد يغفرون أشياء كثيرة ولا يغفرون قط انتهاك حرمة الحى وأهله . إنها كبيرة الكبائر وقد يستباح فيها قتل المضيف قبل الضيف .

قد لا يجد أحدهم عيبا فى أن يتستر على قاتل سفاح محترف أو لص يغتال الولايا ، ثم يجد من العار الذى يفضل عليه الموت أن يتستر على خنا داخل قمقم . . هيهات أن تفوح إليه رائحته لبعده عنه .

ومع ذلك لا أزال أذكر بعض أهل هـذه النقطة : الأولى معلمتهن «جليلة» ، هى التى تسير على رأس الموكب يوم الكشف عند الذهاب إلى طبيب المركز ، إنها تمثل الجيل المنحدر - ذوق عتاق العمد - ضخمة البطن والثديين وجهها مكتئب قبيح ، الدق على ذقنها مبرطش باهت كأنه مرض جلدى ، الخزام المدندش فى أنفها لا يبـدو أنه للزينـة بل لشكم وحش ضار ، من أكبر النكبات أنه قدر على الإنسان - وهو الذى اختُص وحده دون بقية المخلوقات جميعاً بتذوق الجمال - أن ينفرد وجه هذا الإنسـان بعينه دون سائر المخلوقات أيضاً بقدرته الفائقة على التعبير عن أبشع معانى القبح وغلظ الطبع . كنت أسأل نفسى تارة : كيف يمكن أن يباع عندها الهوى ويشترى ؟ هل لها سر لا نعلمه ؟ وتارة أخرى : ماذا يكون مصيرها بعد قليل؟ لها ربٌ اسمه الكريم .ومع ذلك يروى عنها أنها كانت صاحبة مجد وحاشية . «وجليلة» هو أيضاً اسم عشيقة سيد درويش (ولم تكن أقل من صاحبتنا قبحاً !)

والثانية «بهية» : فتاة الجيـل الصاعـد كما يقـال اليوم - ذوق بنـدر وأفندية - فتاة فى شرخ الصبا ، لو أعطيت لها لعبة لفرحت بها كالأطفال ، صافية البشرة ، رخصة اليدين ، ساذجة ، تكاد تـوحى نظراتهـا أنها فى غيبوبة عن العالم وما يجرى لها ، وقد جالستها عند التحقيق فى القضية فما راعنى إلا أنها رغم قميصهـا اللبنى المسخسخ يبـدو تحت فستـان مـزين بالدنتلا والركاما والترتر والشرائط ، تفوح منها رائحة القرويات ، مع أنها لا تحلب ولا تقرص الجلة ولا تأكل خبزا من دقيق الذرة مخلوط بالحلباء ، وكنت أسأل نفسى : من أين جاءت وكيف وصلت للنقـطة ؟ لم أعرف خبرها لأننى لم أسع للانفراد بها .

وكن جميعاً إذا رأين فتاة من أهل البندر اسمها «سليمة» ، تهفو وتمر أمام النقطة تخبىء وجهها إلا عيناً لها فى ملس لا يغطى كعبها المحنى فوق شبشب زحافى ، قذفنها بالحجارة والطوب لأنها بطلة البغاء السرى ، شخصها كأنه منفصل عن رسم لراقصة فى قبر فرعونى ، سمراء ممشوقة القد هضيمة الكشح ، عالية الرأس ، طويلة العنق ، مستقيمة الكتفين ، لوزية العينين ، أنفها أقنى ، وشفتها السفلى ممتلئة بارزة ، نظيفة الجسم والملبس . سمعت من يقول عنها إنها طيبة الريق ، حتى رائحة البصل من فمها حلوة . كانت تدور على الموظفين العزاب جميعاً ، فلا تفشى رغم الإلحاح عليها سر أحد لأحد ، قطعت لسانها وألقته فى بئر ، لا تحدد أجرا ، بل تقبل على الرأس والعين ما يعطى لها ، لا تحرم الفقراء من مرتعها وتهب لهم كل ما عندها ، ثم لا تصد عن الغنى الخسيس بل تعامله بخسته ، فتنقص له من نفسها مقدار ما أنقصت دناوته من ماله ، يكاد يكون لها ميزان لا يخطىء فى درهم . تنفِّذ بشرف التعاليم المتوارثة - لم تدون بالكتابة - لقوانين الأخلاق الفاضلة التى سنَّتها مدينة الفساد لرعاياها عن حكمة وتجربة ، وتطيع بلا رقيب تعليمات المرور فى دروبها وإن لم يكن هناك أقل احتمال للتصادم . أكبر لذتها أن تجلس مع أفندية ، تسمع أحاديثهم وتنصت بنهم لنكتهم وحكاياتهم ، وتزج نفسها هكذا فى حياة تبدو لها براقة وأرقى من حياتها وأغنى بالتمدن والرفاهية . حياة تظل دائماً أبعد من منالها .

لا تشرب الخمر إلا فى مجلس يروق لها وتحس فيه بالصفاء والكرم

وكسر الموازين ، إلا ميزان أخوة البشر فى الضياع وطلب الرحمة فلا تشيل فيه كفة عن كفة . وإذا لم تجد هذا المجلس صدَّت عن الخمر وإن طاب ، إلا مجاراة المضطر ومن طرف اللسان ، وإن شربت تقهقر بها العمر وارتدت صبية غريرة ينحسر عنها الخبث ، وزادت رقبتها الطويلة انكشافاً من فرط إمالة الضحك لرأسها ، تفتح الكتب وتقلب المجلات وتتأمل صورها بلذة كبيرة ، فإن وجدت على صحيفتين متقابلتين وجهين يلتفت الأول منهما للثانى ظنتها قصة عن شخصين يحدِّث أحدهما الآخر وتسألك :

- ماذا يقول له ؟

وكانت تقول :

- هذه هى سعادتى ، والذى أخرج به من دنياى . .

لم تُسمع قط تشكو حالها ، ولم تُرَ إلا مبتسمة ، إلا أن الدمعة طفرت من عينها فجأة وهى تجلس ذات ليلة إلى فتى متلفت ، زائغ حائر ، حمله شيطان حب الاستطلاع على أن يوجه إليها - بدون مناسبة - سؤالا باردا سخيفاً كأنه بسبيل إعداد ريبورتاج صحفى خاطف رخيص ! وإن كان مبعثه إدراكه أنها تخاطر بحياتها وتعيش والسكين على رقبتها :

- ما أفظع مأزق صادفك فى حياتك ؟

قالت بعد تردد ، وما أفضت بسرها إلا لإحساسها أنه يحنو عليها : إن موظفاً جديداً - وهو شاب صغير - دعاها لمنزله ذات ليلة ، وكانت لم تعرفه بعد ، وإن سلف لها أن رأته فى الطريق يسير وجهه إلى الأرض . فتوسمت فيه الطيبة ، والمروءة ، وعلمت أنه جاء منتدباً رفق بعثة لمقاومة الجراد ، وكان قد اتَّخذ مسكنه فى نهاية درب ضيق ، يحتاج الوصول إليه فى عز الليل

إلى حذر شديد حتى لا ينتبه لها الجيران ، ثم إلى حذر أشد من أن ينبعث من هذا المنزل المدفوس أقل صوت يدل على سره ، وظلت تجول فى الشارع وتغوص فى الجدران ساعتين أو أكثر حتى سنحت لها فى ظنها أول فرصة مواتية فمرقت كالسهم إلى منزله ، وأغلق الباب عليها وإصبعه على فمه . وكانت تحس فى نفسها نشوة تلازمها كلما دخلت لأول مرة منزلا لا تعرفه ، عساه يتكشف لها عما قليل عن نوع جديد من العلم والتسلية . وكان المفروض هو العكس ، أى أن يخيفها المنزل المجهول أكثر من المنزل المألوف ولكن هكذا ، كان قلبها يدق من أثر الترصد الطويل ، ولكن وجهها كان متهللا ، فما رابها من صاحبها أول الأمر شىء . وصعد بها فى الظلام وهو يجرها من يدها إلى حجرة نومه وأشعل مصباحاً ، ولكن صوتاً ما - أشبه بخرخشة الفيران - بلغ أذنها فطرطقت واتقد انتباهها إليه ، ومالت عن كل شىء سواه نحوه وتعطل ما بقى من ملكات عقلها ، كانت هامدة متوثبة كالطائر المفزَّع تلبَّث مشلولا برهة قبل أن ينطلق كالرصاصة عن فرعه لينجو بنفسه من الخطر الصادق أو الموهوم ، وهى مع ذلك ماضية فى حديث مع صاحبها يسيل من فمها سريعاً كسيل الماء من صنبور مختل . ولكن صاحبها كان متعجلا ، فلم تجد مجلسا ولا صحبة ، ولا ندوة ولا دردشة ، بل أسرع يقضى لبانته منها ثم خرج ، وفُتح الباب ودخل شاب آخر ، قالت لعلهما صديقان ولا بأس باثنين ، وقد سبق لها تجربة ذلك مرارا ، ولكن لماذا أخفى خبره عنها ، وخرج الثانى وفُتح الباب ودخل ثالث ، فأدركت أنها وقعت فى مأزق بغيض وعذاب حتى هى لا تطيقه . ولكنها لم تتصور حينئذ قط أن يُقفل الباب ويُفتح عشر مرات متعاقبات . لم تكن تستطيع المقاومة ، ولم تكن تستطيع الاستغاثة . لم

تشعر قط من قبل كما شعرت تلك الليلة بمهانة نفسها وضياعها لحرمانها وحدها دون سائر الخلق من حق مجرد طلب النجدة ولا تقول حق نوالها وهى بها جديرة . دفعوا لها أجرة نفر واحد ، وألقوا بها فى الطريق قبل أن ينجلى الليل حتى لا يطلع عليهم النهار وتدب الأرجل فى الدرب .

فلما انتهى كلامها طفرت الدمعة من عينيها فمسحتها بأناملها ، ثم عادت لتوها إلى مرحها لم ينقص منه شىء إلا أن ابتسامة نظرتها زادت لمعانا .

ودمعت عيناها مرة أخرى - ولا يدرى لماذا فهى لا تفشى سرها - حين سمعت لأول مرة اسطوانة لأغنية شعبية تنشدها مغنية ريفية بصوت شُوِى على نار الوجد حتى احترق ، مقطعها المتكرر يقول :

- والملتقى يا حبيبى بين أيادى الله . .

أعرفت هى أيضاً لوعة العشق فى ماضى حياتها ؟

والغريب أن خير من وصف بائعات الهوى فى الصعيد هو كاتب يونانى ، صديقى الأديب «ساجارادس» مؤلف القصة الجميلة المترجمة للعربية باسم « عذراء أسيوط» بقلم عبد السميع المصرى .

* * *

توبة

كان لا يزال لتتويب الضالة عند الفلاح مكان فى سجل الفضائل وإن

جاء فى ذيلها ، يضمن له ثوابا ، ولم يكن تطوعه للإنقاذ نتيجة إحساس مرهف بمعنى الانتشال ، بل لتسليمه بأن الضالة لم تخطىء عن عمد وإرادة ، بل صاغرة لحكم المكتوب على جبينها ، فإن كان لكل ذنب قَدَر ، فلكل توبة أوان ، وما سقوطها إلا فترة طارئة ، إذا زالت اتصلت من جديد على راحة الهداية طرفا حياة مستكينة كأن لم يُصِبْها من قبل قطع .

هذا الفلاح الذى جاء من قريته البعيدة - ولا أحد يدرى دوافعه - ليعود إليها ومعه إحدى نزيلات نقطة المومسات بعد أن عقد قرانه عليها . لم أشهدهما لا هو ولا هى أحياء ، بل رأيتهما جثتين مهشمتين . أركبها من منفلوط بعد العشاء - كأنما لا يريد حياؤه أن يدخل بها قريته إلا فى الليل - سيارة أجرة ، « فورد » صغيرة ، من الطراز القديم ، محمَّلة بالركاب . هذه السيارة الكهنة المعطلة الفرامل والمصابيح ، إن اتسعت فلخمسة أشخاص خلو الأيدى ، من بينهم السائق ، ولكنها كانت تحمل داخلها وعلى كل رفرف وسلم،وعلى التصادم الخلفى والأمامى،وفوق السطح أكثر من خمسة وعشرين راكباً - بخلاف السائق - فى يد كل منهم زكيبة أو مقطف . . (إننى أتكلم عن خبرة ، فطالما ركبت مثل هذه السيارة) نَخًت مختبئة وسط كتلة من اللحم والخيش ، ومع ذلك سارت مسرعة على جسر الإبراهيمية . هذا الطريق يقطعه على مسافات متتابعة بوابات لتصريف المياه بين الأحواض والترعة ، يضيق عندها الجسر ويصبح جناحه من اليسار واليمين حافة هاوية سحيقة يصعب تمييزها فى الظلام ، فلا نجاة للسيارة المسرعة بالليل إلا إذا أحكمت التزام وسط الطريق قبل الوصول إلى هذه البوابات ، مر السائق من هذا الطريق أكثر من مرة بحمولة مماثلة ، ولكنه فى تلك الليلة دفع حياته - ومعها - الله يسامحه - حياة

أغلب الركاب - ثمنا حان سداده لبخت سالف ، طالما قامر بحماقة على دوام ابتسامه .

وذهبت لمكان الحادث وعلى ضوء المصابيح رأيتها ، هذه هى جثتها ، امرأة غلبانة ليست بذات شباب أو رواء ، عليها قميص لبنى ، تحت ثوب وردى ، تحت جلباب أسود ، ترقد فى حضن جثة منقذها ، فلاح فقير ، جلد على عظم ، جسد ما أظنه عرف تمام الشبع ، غاية ترف هذه الجثة المهشمة الرأس أن جلبابها الأزرق كان حديث عهد بالغسيل . . وقد تتبعت خبره فيما بعد فعلمت أنه متزوج من غيرها ، وأب أولاد ، يعيش كادحا من حقله إلى بيته ، ليست فى حياته مغامرة وما عرف عنه شرب الحشيش أو ارتكاب المحرمات ، وما زار منفلوط إلا لعمل مرة أو مرتين ، فليس هو الذى يتردد على نقطة المومسات ، لعل الزوجة لما بلغها خبر فعلته رفعت رأسها للسماء - وطاقة بها مفتوحة - ودعت على القادمة بالخنجل والمنجل والقضا المستعجل . . فإن لم يكن هذا هو القضاء المستعجل فأى شىء يكون ؟

عدت إلى دارى مكتئباً ، تلازمنى صورة هذه الفتاة التى جاءتها النجدة بعد لأى لحد عندها فكان الردى أسرع منها .

حاشاى أن أسأل : أكانت ستجتاز الامتحان فى المستوى الجديد بصحيفة بيضاء وتشارك صابرة فقر زوجها أم ستعود ريمة - بجحود وضيق صدر وحسرة - إلى عادتها القديمة ؟ . يكفى أنها لقيت ، وهى تائبة ، ربها الرحيم الغفور .

الخمارة

يقودنا الحديث عن نقطة المومسات إلى الخمارة ، وكان المفروض هو العكس . لم تخل منفلوط من خمارة تقع وسط البندر ، يملكها أجنبى ، كنا فى أواخر عهد لا يزال يعد فيه ارتياد الخمارة فضيحة علنية ، يتحاشاها كرام الناس من أهل البلد ، ويتحاشاها الموظفون إلا السكير المدمن منهم حينما يهيج به شيطان الخمر ، يذهب إليها متنكراً ، بالجلابية والمعطف ، وكان لهؤلاء الموظفين فرج فى قهوة المحطة ، فهى قهوة لا خمارة ، يشربون فيها الويسكى وهم يلعبون الورق ، حتى الغشاش المعروف له مكان بينهم . وكان معاون البوليس لا يجد بأساً أن يشرب كأساً أو كاسين بعد نهار مرهق ، إلى أن غاظه من صاحب القهوة شىء لم أعرفه ، فحرر له على التو محضر مخالفة لأنه يبيع الخمر بالقطاعى بدون رخصة . وظل صاحب القهوة يلطم خديه لا لنكبته فى الغرامة ، بل لنكبته فى وفاء الزبون القديم . .

وكانت خمارة البلد تثير فى نفسى تأملات عن تطور مجتمعنا ، لا أظن أن البشرية أنبتت فى سجلها الطويل جيلاً لا يعرف نوعاً من المسكرات ، ولكن على كثرة ما قرأت فى التاريخ قبل الإسلام لم أعثر على حملة عنيفة تحارب الخمر ، بل كانت تعد تارة متعة لا تتم إلا بها بقية المتع ، وتارة محكاً للرجولة ، حتى كان من المبارزات تشارب الخمر وينهزم فيها من الخصمين من تصرعه قبل الآخر . ثم جاء الإسلام فأنزل بها ضربة قاضية ، إذ جعلها إثماً مُجْلباً لسُخْط الله ، فى الدنيا بقلة البركة والإنذار بالفقر ، وفى الآخرة بنار جهنم . .

أجيالنا القريبة السابقة كانت تؤمن أن الخمر أم الكبائر ، إذا ذاع عن رجل أنه شربها سقطت كرامته ورُفضت شهادته وربما طُلِّقت منه امرأته ، فلا عجب أن لم يجرؤ واحد من أهل البلد على فتح خمارة . ثم استشرت الامتيازات الأجنبية وتبعها الاحتلال البريطانى ، فتمشت الخمامير من العواصم إلى مدننا الصغيرة وقرانا الكبيرة ، يملكها أجانب ، وتجذب الناس أيضاً بإعداد وجبات نظيفة وقهوة طيبة وأنس سفور زوجة أو ابنة ، وانقلب صاحبها أغلب الأمر إلى مراب يعرف أسرار العائلات ، يقرض بخراب البيوت الفلاح المعذور عند الدودة أو الجمع ، والأعيان غير المعذورين ليمد لهم حبل الفساد وتخرج أملاكهم من أيديهم له أو لنفر من شيعته ، وإن تستروا وراء بنك من البنوك ، وتمشت الخمر أيضاً تحت اللواءين السابقين من الخمامير إلى بيوت الأعيان ، وفى ذهنى مثل عجيب على ذلك :

هو بلد صغير فى الصعيد ، سوقه كأغلب بلاد الريف ، يسمى بالقيصرية (نسبة إلى قيصر الروم) مسقوف على صفين من الدكاكين الصغيرة المعتمة ، يخرج أصحابها جميعاً من بيوتهم قبل الفجر إلى المسجد ، فإذا فرغوا من صلاتهم فتحوا دكاكينهم ، وتربع كل منهم - بعد أن يخلع حذاءه - عند مدخل دكانه يتلو القرآن والأوراد والابتهالات بصوت غير خفيض ، يسمع من بعيد كطنين النحل . . إذا جاء أول مشتر لتاجر يسأله عن بضاعة عنده أجابه «طلبك عند جارى هذا فاذهب إليه» ليضمن بذلك أن يستفتح جاره قبله .

وكان الرجل الذى أتحدث عنه من أعيان هذا البلد . بلغ الأربعين من

عمره دون أن ينقطع فى يوم منذ صباه عن صلاة الفجر فى المسجد ، وقلما أدى صلاة قضاء ، محافظ على ميعاد تلاوة القرآن والأوراد فى منزله قبل محافظته على موعد أكله ، هو من أسرة يهمها استبقاء نفوذها ، فلاذ بالخديو عباس الثانى أول الأمر ، فوجده - فى رأيه - على قلة سلطانه أُلعْبانا مستبداً لا يُؤمن منه الغدر ، همه جمع الأموال بنهب الأوقاف وبيع الرتب والنياشين ، فعدل عنه إلى «كرومر» ، وأسلم إليه ولاءه ، وأصبح من المهنئين بعيد ميلاد الملكة فيكتوريا .

وأبلغه أصدقاؤه ذات يوم أن المستر فلان مفتش الداخلية سيزور البلد ولن ينصرف عنها دون أن يذهب إليه فى داره لتحيته ، تكريماً له وإعلاء لشأنه عند الحكام ، فأعد له مادبة تتحدث بذكرها الركبان ، ولكن قيل له إن الحفاوة بحضرة جناب المفتش لا تتم إلا بأن يقدم له الخمر أيضاً ، حتى لا يحرمه من مألوف متعته ، فأخذ يسأل يميناً ويساراً : ماهى هذه الخمر ؟ وما نوعها ؟ فالخمر عنده كلمة عامة لا تحدد بصنف معين ، حتى عثر على الخبير فقال له : اعلم أن الخمر أنواع ، فينبغى أن يقدم له أولاً ما يصلح منها لفتح الشهية وهو «الأبرتيف» من فرموت وسينزانو وارد إيطاليا ، ثم النبيذ الأحمر العتيق عند أطباق اللحم وارد فرنسا ، ثم النبيذ الأبيض عند الديوك الرومى والدجاج ، وارد بلاد الراين فى ألمانيا ، ثم شامبانيا ذات حَبَب فى نهاية الأكل من فرنسا أيضاً . فإذا قُدِّمت له القهوة كان معها الكونياك والليكور المعسول ، ولكل نوع كأسه ، فالأبرتيف فى كأس طويل بين الصغير والمتوسط ، والنبيذ فى كأس متوسط طويل ، والشامبانيا فى كأس مستديرة قصيرة ، وآخرها فى كئوس صغيرة كالكستبان الكبير . .

وسافر الرجل للقاهرة ليستدل على أكبر تاجر للخمر ، فقيد اسمه وعنوانه عنده ، واشترى منه صناديق عديدة ، واشترى أيضاً الكؤوس من خالص الكريستال . . وقدم كل هذا لضيفه ، ولكن المصيبة الكبرى أنه رأى من المبالغة فى اكرامه ألا يتركه يشرب وحده ، كأنما يقترف دونهم ذنباً ، فشرب معه كأساً بكأس ، وأحياناً كأسين بكأس . . وظل منذ ذلك اليوم مخلصا للخمر فى «عَفْوَنة» الغشيم ، وقطع صَلاَته وأوراده .

انظر إليه يوم حضرته الوفاة وهو فوق السبعين ، مسجي على الفراش وأهله حوله يكتمون دموعهم ، زاغت منه العينان وامتنع عليه الكلام ، فرفع بجهد يدا مرتعشة يهزها مشيراً إلى زوجه ، مثنيا إصبع السبّابة نحوه ، أسرعت إليه بكوبة ماء ، فأشاحها عنه ، وعادت سبابته تشير . . حتى فهمت أنه يطلب كأس الكونياك الذى اعتاد أن يكون آخر شىء يشربه قبل النوم . وكان حقاً آخر شىء شربه فى حياته قبل أن يقابل ربا ظل يتعبده من قبل أربعين عاما .

* * *

مزايدة

آن الأوان لأن نخرج من هذا الجو البغيض - بغاء وخمر - لنتنفس الهواء النقى ، لا عجب أن عاد إلى ذاكرتى يوم خرجت فيه من دارى قبل الفجر ملبيا إشارة عاجلة من المأمور . . لا أعرف كالفجر شيئاً يبعث فى نفسى الراحة ! الصفاء ضارب أطنابه ، والدنيا طيبة الأعراف ، تستقبل

صحيفة بكرا لم يُسوِّدها بعد سطر من الشرور . . ثم يبعث فيها مع ذلك نوعا من الرهبة ، لجلال لحظة انهزام ليل كان يمكن أن يكون سرمدياً أمام صبح جديد يزحف جيشه اللجب بأُبَّهة وخُيَلاء ، معقود على لوائه النصر ، تنتظر أذنك أن تسمع نداء بوق سحرى جبار يعلن مقدمه . .

كانت الحيضان قد امتلأت بفيضان النيل ، وعلا الماء فوق أرضها وضغط بالمناكب على جسورها الهشة ، فانكسرت قبل منتصف الليل صليبة بنى كلب ، وبدأ الماء يتدفق من الحوض إلى الحوض الذى يليه شمالا ، بقى احتمال ألا تكون الأرض قد نالت حقها من الماء وتبقى شراقى . وكان سد القطع يحتاج إلى عمل ٢٥ رجلاً تقريباً ، فوردت الإشارة التليفونية التالية للنقطة :

«من عمدة بنى كلب إلى النقطة :

انكسرت صليبة بنى كلب بالقضاء والقدر ولم كان بفعل فاعل ، الحالة خطيرة ، المطلوب ٥٠ رجلاً .»

وأرسلت النقطة للمركز الإشارة التالية :

«انكسرت صليبة بنى كلب رغم موالاة المرور من طرفنا ، الحالة خطيرة جداً ، المطلوب ١٠٠ رجل .»

وأرسل المركز إلى المديرية الإشارة التالية :

«انكسرت صليبة بنى كلب رغم كافة الاحتياطات من موالاة المرور ووضع البوص وأكياس التراب ، الحالة خطيرة جدا جدا ، المطلوب ٢٠٠ رجل .»

وجَنَّدت المديرية كل قواها لإرسال النجدة ، ولما ذهبت مع المأمور وجدت ٢٠ رجلاً يعملون فى سده . .

وطلع علينا الفجر بنوره وبهائه ونحن واقفون على الجسر ، هذا الماء الضحضاح أمامنا ينحدر سطحه فى سبيل هدّار يأكل الجسر من على الجانبين . . فى هذا الصباح شهدت لأول مرة قوة الماء وجبروتها .

وتبين أن الأرض بلغت غايتها من الماء ، فطار الخبر للفلاحين أن يسرعوا لبذر الفول . . فرأيت بعينى فلاحين يغوصون عرايا فى الطين الرايب إلى وسطهم ، وقد علّقوا فى ظهورهم بالحبال غلاية الشاى ووابور الغاز . .

***

الأم . .

لا أنسى هذا المنظر الذى شهدته وأنا منشغل فى تحقيق قضية تافهة ، معزة نزلت فى حقل برسيم . . فطارت أسرتان إلى السلاح ، هذه لصون الكرامة ، وتلك لصد الهجوم . كنا نعلم أن النصح والشفاعة والزجر والتهديد لن تغنى شيئاً ، وأن بين السلام وإطلاق الرصاص خيطا أوْهى من نسيج العنكبوت ، إن لم يكن فى حضورنا فبعد ذهابنا ، إن لم يكن اليوم فغدا أو بعده ، وإن غدا لناظره قريب . حين يطلع الشيطان برأسه فى الصعيد لا تدخل جحره من جديد إلا بعد أن يلغ فى الدم .

رأيت أول الأمر أفراد الأسرة صاحبة البرسيم ، خمسة إخوة ، كل

منهم تمثال بديع لرجولة الصعيدى وأنفته وصلابته ، لهم جميعاً شوارب طويلة منتفشة ، ورقاب لا أنى عن التغنى بجمالها وكبريائها ، هم فى غضب شديد كأنما قُتِل لهم قتيل ، ووجدت من الحكمة أن أذهب إلى بيتهم ، بحجة الاستماع إلى أقوالهم وتحرير المحضر وأنا أرمى إلى تهدئة نفوسهم ، دخلت واحدا من هذه البيوت الريفية العادية ، وجلسنا فى الحوش ، فى جانب منه سلم من الطوب الأحمر بلا درابزين يصعد إلى حجرة لها باب من لوح خشبى رقيق ، وعلت الأصوات وتشابكت واتقدت العيون ، ليس فى الأرض قوة تثنيهم عن الشر ، فإذا بهم جميعاً يصمتون فجأة حين سمعنا صوت صرير باب الحجرة العليا ، وهلّت علينا منه امرأة عجوز محطمة ، قد انقلب سواد عينيها إلى بياض ، رمادية الجلد ، هذه امرأة أفنت عمرها فى عمل مرهق متصل ، وحمل وولادة ، وعرفت كافة الأمراض ، جرى الابن الأكبر فصعد إليها فى لمح البصر وتضاءل أمامها ومد لها ذراعه لتستند إليه ، وجرى الابن الثانى ومد لها من جانب آخر ذراعه وهو يحنى رأسه ، وحوّط الباقون عليها يفتحون لها الطريق خطوة خطوة . . وقبل أن تبلغنى كانوا يقولون لها : «لماذا تتعبين نفسك ؟» ، فأجابت وهى تجلس بجهد قبالتى بعد أن سلّمت على :

- ييجى حضرة المعاون عندنا ولا أسلمش عليه ؟ دى تبقى عيبة كبيرة قوى .

سألتْ إن كنت شربت الشاى ، وألّحت على إلحاحاً شديداً أن أبقى للغداء عندهم . أدير نظرى فى الرجال فأراهم يجلسون فى أدب قد غَضوًا أبصارهم ، لا يبدو عليهم أنهم قادرون على إيذاء ذبابة .

سألتْ عن سبب الضجة ، فلما علمتْ الخبر هوّنتْ منه ، ولامت أولادها على سرعة غضبهم ، تزوم فيهم أحياناً ثم تضحك لى ، وقالت :

- اتركوا لى هذه المسألة أفضُّها مع جارنا ، فان لنا به سابق ود ، فإذا تحدثت إليه لان فى يدى . .

بقيت صورتها فى ذهنى بقية اليوم ، أحمد لها أنها فضت نزاعا كاد يؤدى إلى مجزرة ، وأحمد لها قبل كل شىء أنها أنقذتنى من تحرير محضر طويل عريض من أجل معزة . .

***

تنفيذ حكم طاعة

كنت حديث عهد بالعمل حين عهد إلىَّ المأمور لأول مرة تنفيذ حكم بالطاعة صادر من المحكمة الشرعية ، إننى أمقت الإكراه ولكن ينبغى لى أن أعترف بأن نفسى نشطت وتهللت شأن المقبل على متعة لذيذة . . فلن يكون من الظلم أن ألقى الجزاء . . . وقبل أن أغادر المكتب قرأت الحكم فإذا به يقول « وأعدَّ لزوجه المقيمة فى كفر الشيخ مبارك منـزلاً فى الكفر المذكور ، يحده من بحرى طريق ، ومن قبلى منزل فرغلى أبو مجاهد ، ومن شرقى طريق ، ومن غربى منزل محمد أحمد محمد » ، وكنت لم أذهب بعد إلى كفر الشيخ مبارك بل ولا أعرف أين هو . فلما سألت ، علمت أنه كفر صغير . . يقع على جسر « الإبراهيمية » ، بحرى منفلوط بمسافة سأقطعها على ظهر الحمار فى ثلاث ساعات ، فتوكلت على الله وخرجت بعد أن تم

التنبيه على العمدة المسئول عن الكفر أن ينتظرنى عنده مع شيخ الخفر . فتنفيذ حكم الطاعة يتطلب جيشاً من ثلاثة على الأقل ومعهم السلاح . .

وجسر « الإبراهيمية » أصل كيانه من الطين المتخلف من شق الترعة ، مكوم بجانبها ، فارتفع سطحه عن الغيطان بعلو مترين أو ثلاثة على الأكثر ، حتى أن الأشجار المنزرعة فى الحقول لا تبدو منها فوق الجسر الا فروعها مما يضفى عليه بالليل منظراً رهيباً . . وسار بى الحمار بين الترعة والغيطان ثلاث ساعات فإذا بى أصادف العمدة وشيخ الخفر جالسين تحت فرع شجرة ، فقلت لهما بعد السلام :

- هيا بنا ..

- إلى أين ؟

- عجايب ! إلى كفر الشيخ مبارك ! فقربنى العمدة إلى حافة الجسر ناحية الغيطان وقال لى « هذا هو كفر الشيخ مبارك ! » .

رأيت فى حضن الجسر ، بين الحقول وسطحه ، بارتفاع مترين ، كوماً صغيراً من كهوف متلاحقة ، هيهات أن تسمى فى أى قاموس فى العالم باسم منازل ، يكاد لا يصل سطحها إلى مستوى الجسر ، مغطاة بالبوص والقش ، كأن حصيرة واحدة تغطى الكفر كله ، كلها من الطين الجالوص ، لا أذكر أننى رأيت بينها ما هو مبنى بالطوب النيىء ، غير أن جدران بعضها من حجارة مكومة فوق أخرى ، وأقسم لك أن العمدة وشيخ الخفر سندانى وأنا أَدُبُّ على أسطح هذه الكهوف ، فلا خوف من الوقوع ، لأهبط منها إلى الأرض أمام منزل الزوجة ، فقلت فى نفسى وأنا فوق السطح : « أين الطريق القبلى ، وأين الطريق البحرى ؟ »

أحنيت رأسى ـ وأعلم أننى قصير القامة ـ ودخلت سرداباً ليس به جنس متاع ، أرضه مغطاة إلى الركبة ببوص الأذرة ، ورأيت فيه فتاة تجرى فى أنحائه وهى مذعورة ، تخرخش فى البوص ، فقبضنا عليها ورفعناها إلى سرداب مماثل فى بيت مجاور . .

لم أمكث فى كفر الشيخ مبارك كله أكثر من خمس دقائق ، وعدت أركب الحمار يهزنى هزاً وينفضنى نفضاً ثلاث ساعات ، والهواء يجاذبنى ثيابى ، ولكن لم أكد أبدأ لكز الحمار حتى لسعنى برغوث فى رقبتى ، وتسلل آخر من رجل البنطلون شاقاً طريقه ـ ولا أدرى كيف ـ حتى بلغ بطنى ، مع أن تكة لباسى مشدودة ، وبدأ ثالث يتلاعب ما بين صدرى والفانلة ، وأنا لا أملك حرية الهرش لانشغال يدى كلتيهما بالشمسية والمنشة ، وظللت أتلوى حتى بلغت دارى ، وخلعت ملابسى فانطلق منها فى فرح جيش لجب ، أراه لشدة كثافته رأى العين ، وظللت ليالى عديدة لا أنام من وخز الإبر .

* * *

يوم الفرز

يومان عصيبان مختلفان ، ومع ذلك يجمعهما وصف واحد ، فكلاهما فيضان قُوى جبارة تدهم الأرض ، لا أعرف مثلهما شيئاً ارتجت له نفسى وأنا فى الصعيد .

أولهما يوم الفرز ، وما أدراك ما يوم الفرز . . جاءتنا بالأمس لجنة

القرعة ، ضبـاط من مختلف الرتب ، بينهم طبيب ، فـأخلينا لهم بعض مكاتبنا ، ووقفنا أنفسنا على خدمتهم .

وباتت منفلوط ترقد فى أحضان ليل وديع خلى البال ، يلف القرى المتناثرة حولها كما يلف القماط الوليد .

فإذا لها قبل الصباح انتفاضة عـلى رهبة ، كـأنما نُفـخ فى الصور ، تدفقت عليها من النجمة سيول من جموع كثيفة من شباب القُرى ، من الشرق والغرب ، من الشمال والجنوب ، ومع كل جماعة شيوخ القريـة وخفراؤ ها ، فى أيديهم عصى طويلة كأنما يسوقون بها قطيع أغنام ، تُحوِّط عليهم نسوة يولولن ، هن أشد منهم جـزعاً واضـطراباً ، والتقت هـذه السيول فغُصَّت بها الساحة الكبيـرة بجانب المـركز ، وسُـدَّت الشوارع المجـاورة ، وامتنع فيهـا المرور ولـو للسائـر على قـدميه ، وصـدر الأمر للفلاحين أن يخلعوا ملابسهم فخلعوها وبقوا عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، وان استبقى بعضهم منديله الأحمر معقوداً فوق الرأس ، ثم أقعوا عـلى الأرض ، تتخطَّى رقابهم أرجل الخفراء وهم يجـوسون خـلالهم . . ولم العجلة والوقت بدرى ؟ ذلك أن طبيب القرعـة سيفحصهم وهم عرى وليس لديه وقت يضيعه فى الانتظار حتى يخلع الفلاح أمامه جلبابه الأزرق وما أسهل خلعه فليس فوقه غيره ، وليس من الممكن وضع نظام يتم فيه الخلع فوجاً بعد فوج ،فلا مفر من أن يصدرالأمرللجميع منذ ووصولهم ، والمساواة فى الظلم عدل . سيظل الفلاح هكذا عارياً مقرفصاً على الأرض ساعات طويلة تحت الشمس إلى أن يأتى عليه الدور ، لم أر أحداً يكسب فيهم ثواباً ويسقيهم ويدور بينهم بقربة أو قُلَّة أو كوز .

لم يكن سبق لى أن رأيت مثـل هذا المحشر الضخم من الأجساد البشرية العارية ، إن رائحتهم بخار منعقد ، سيظل عالقاً فى الجو أياماً بعد اختفائهم ، كأنما تتطاير من أجسادهم نخـالة ، لعلهـا فتات القشف ، أنفاسهـم تزيد من حرارة الشمس ، أكثرهـم يضع الكفين تحت الإبطين ، وبعد قليل بدأ العرق يلمع على القفا والجبين والظهر والصدر ، حتى عمَّهم بحر واحد من ماء آسن عكر ، تطفو عليه الطحالب ، وجزائر من المخاط الأزرق ، ولطخ لزجة من اليرقان والعلق والديدان ، وأعشاب عفنه .

لم يسبق لى مثل هذه التجربة ، رأيت لشـدة دهشتى وألمى - ولأول مرة ، وكأن الصورة تضخمت مليون ضعف بسبب هذا الحشد - أن رءوس معظم الفلاحين مصابة بالقراع ، انقلب الشعر الذى خلقه الله لهم زينة إلى دهان قبيح لطخ رءوسهم ، تتخلله بقع رمادية وزرقاء ، كأنها بـطحات مطرقة ملوثة بروث البهائم ، بقع يخال لك أنها تنز ، الشعر القليل الذى يكتنفها هيش نبات شيـطانى خبيث اقتلعته يـد فلم تبق منه الا جـذوره الذابلة . لا أدرى لماذا وقع فى نفسى أن رأسا هذه حالهـا هى كالبيضـة الممششة لا تجد داخلها الا أفكاراً فاسدة ، على عكس ما يقال عن القراع - ويلحق به أيضاً الصلع - من أنه دليل الذكاء . .

الحديث بين الجالسين ممـازحة ، مبعثهـا الخجل ، ومـع ذلك فـإن الهمهمـة المنطلقـة من هذا الحشـد كانت تصـل إلى أذنى كأنها ضجيـج مختنقين ، أو جياع تأخّر عنهم مرة بعد أخرى طعام موعود ، هى ضجـة أناس معذَّبين ، فيها حدة مكبوتة ، كأنها تهارش وحوش مفترسة بالأنياب والأظافر ، يخالطها احتجاج يحبو دون أن يمشى أو يثب ، يدور بين الرجل

ونفسه ، وبينه وبين جاره ، ثم تعلو فجأة وسط الهمهمة زمجرة عالية فتهوى العصى حتى يعود سطح الهمهمة إلى الإستواء من جديد ، فإذا جاء الدور قام الفلاح تدفعه الأيدى باللكمات فى قفاه ، وبالنخس فى ظهره ، حتى يدخل أمام اللجنة ، ساتراً سوأته بكفيه . .

واتخذت مكانى بجوار طبيب القُرعة ، وهو رجل من الشرق باع نفسه للغرب فى ذلة الرقيق وكبريائه حين يعتز بسيده ، (وكان أغلب جيشنا فى العهود البائدة من هذا الصنف العجيب الذى طالما سار فى ركاب الاستعمار كالعُقْبان فى مصر والسودان) . وكان مع ذلك أكرش محتقن الوجه . يضع منديلاً مُعطَّراً على أنفه ، هو متأفِّف ضَجِر ، وقح أفحش الوقاحة ، لو كان يفحص كلباً جربا لكانت يده أحن عليه منها على الفلاح ، هو قبل أن ينطق الفلاح باسمه واسم شياخته وقريته يسخر منه ومن غبائه وبلاهته وتخبطه وتعثره وهو يطلع على المقياس ، وتهبط خشبة فوق رأسه بعد أن يلكز فى بطنه ليشد قامته . أرى الفلاح يرفع بصره مع الخشبة حين ترتفع ـ وهو لا يراها ـ ويغلق عينيه حين تهبط ، لا شىء يدل على خوفه مثل حركة حاجبين يتتبعان نظرته . . حتى أمام الطبيب لم يسلم من النخس بغضب ، كأنه داهية ثقيلة . .

ثم يصرخ الطبيب وكأنها صرخة انتصار :

– سعفة بالرأس غيره ، اللى بعده .

ويأتى فلاح آخر فيصرخ الطبيب :

– فتاق . . غيره .

سعفة . . فتاق ، فتاق . . سعفة ، ما أكثر ما سمعت هاتين الكلمتين فى ذلك اليوم . لم أكن أعرف من قبل أن القراع والفتق منتشران بين الفلاحين بهذه الدرجة الفظيعة. إن تفشى القراع ليس بعجيب، وهو ينتقل بالعدوى، ولكن ما علة انتشار الفتق بين الفلاحين ؟ أهو لمجرد اضطرارهم لحمل الأثقال أم يضاف إلى ذلك سبب آخر له علاقة بالنهم الجنسى فيما يقال . وقد قرأت بعد ذلك سيرة الدكتور شفايتزر الذى يعيش فى أدغال إفريقيا (والحائز على جائزة نوبل) فعلمت أن الفتق منتشر أيضاً بين أقوامها البدائية ، وليس هذا بالمرض الهين . اذ قد ينتهى إلى اختناق الأمعاء فيسبب آلاما جهنمية،وإذا لم يُسعف المريض بجراحة كان مصيره الهلاك ، ليتك تقرأ كتاب الدكتور شفايتزر لتعرف ماذا يقوله لمرضاه عندما يجدون على يديه الشفاء .

واقترب العصر ونحن لم نفرغ ، وتضاءل البحر إلى جداول ثم إلى جرعات ثم ذاب من بين أيدينا ، واعجب حين أقول لك : إن هذاالعذاب كله الذى تحمله الفلاحون قد ضاع هباء فإذا كانت اللجنة قد قبلت عدداً منهم فإن الذين طلبوا إلى التجنيد من بيوتهم كانوا أقلية ضئيلة . . كأنك تقطع ثمار حديقة بأكملها ثم تأكل منها حبة واحدة .

وخرجت إلى الطريق فخيِّل إلى أن منفلوط قد مرَّ بها إعصار ، واكتسح معها أيضاً روحى .

أما اليوم العصيب الآخر فهو يوم البطل فيه هو النيل ، لا أقصد يوماً من أيام جبروته ، حين يجلس الفلاح على الجسر يرقب فى وجل ارتفاع الماء أنملة أنملة ، ولا يوم عبثه فى عزّ فيضانه بالشواطىء فيقتطع ويضيف كما يشاء ، بل هو يوم فى أوائل أغسطس أجوس فيه خلال الوادى على ظهر حمارى ، الحقول من شدة الجفاف والعطش قد تشقّقت ، ينفذ بصرك إلى أعماق غارقة فى الظلام ، كأنك تمشى فوق غطاء هش مخادع من تحته هوة ، أرض قشلانة جربانة ، انقلب سطحها من طين إلى تراب ناعم ، تسفيه أقل الرياح ، تحس أن الأرض قد فغرت فاها ، تكاد تلفظ أنفاسها ، لم يبق فيها الا انتفاضة ضئيلة واحدة ، يمسكها الإعياء لا الأمل فى البقاء ، هى على وشك أن تجود بها وتستسلم للعدم .

إذا ذهبت إلى أقصى الوادى شرقاً إلى أن تصدنى التلال عند قرية أم القصور ، أو إلى أقصى الغرب عند قرية «جحدم» أكاد أرى رأى العين حركة الرمال الصفر تزحف كحجم البركان ، قليلاً قليلاً ، بترصد خبيث ، ومكر شديد ، تمد إلى الطين الأسود يداً مغتاله فى لمستها الجدب والفناء ، الفلاح وجاموسته تشرب من بواقى ماء آسن متخلف فى حفر صغيرة من أيام فيضان سابق ، كوم الحبوب فى داره يهبط شيئاً فشيئاً . . هل ستتصل آخر حبة منه بأول حبة لن تنبتها له إلا هذه الأرض التى جثت على ركبتها وأحنت رأسها وتهيأت للموت !

يلف الكون كله ـ أهله وطينه وحيوانه ـ جو غريب من التوتر ينفذ إلى

النفوس على غفلة منها ، ولكنه توتر رهيب ، لا تفلح الضجة مهما علت أن تفسد غلالة من الصمت قد حطت على الوادى ، لو كان الكون شخصاً لرأيته واقفاً يقلّب وجهه فى السماء ويتصنت يمنة ويسرة . .

وكنت فى ذلك اليوم لا أنتظر شيئاً ، أسير بجوار أحد الحيضان كعادتى كل يوم . . وفجأة رأيت ثعباناً نحيلاً من ماء داكن يتلوى على الأرض ويهوى بين الشقوق ، له ذيل طويل يجره فيلاحقه ، لم أر طول إقامتى فى الصعيد شيئاً مثل هذا السرساب الضئيل من الماء يملأ روحى حتى كاد يسحقها بشعور مختلط من الرهبة والفوز ، واليأس والنجدة ، بل الموت والحياة تجمعهما لحظة واحدة . لا أدرى من أين جاءت هذه النسوة ، كأنما انشقت عنهن الأرض ، ورفعن رءوسهن وانطلقن فى زغرودة مجلجلة عالية اهتز لها قلبى ، كأنى أسمع لَعْلَعَة بوق جيش منتصر مقبل إلى أهله من بعيد . . جاء الفرج ماأجمله .

ذكرى هذين اليومين تتضاءل بجانبها صور فيلم يستغرق عرضه عاماً كاملاً ، ولا يتغير فيه شىء سنة بعد أخرى ، تمتلىء الحيضان وتنقلب كل قرية وسطها إلى نافورة من نخيل غارق فى الماء فلا نصل إليها الا بالقوارب ، ينحسر الماء ويزرع البرسيم ، ما أجمل منظره فى الحقل بنواره الأصفر الدقيق ، عنده تعرف الأرض والحيوان لذة الربيع ورقة السماء وحنانها . تلد النعاج ، ويهنأ الجاموس ببرسيم غض حشو فمه ، ثم بعد البرسيم فول ما أزكى رائحة أزهاره ، أو قطن يُراق فوقه العرق حتى يفتح لوزه . . لا أدرى لماذا لا أعرف للقطن ولا شجره ولا أزهاره ، مسحة من الجمال ؟ لعل السبب انه متعنطز مستبد ، حتى حين يخال لى أن يَدّفا من

الثلج قد هبطت على الوادى لا تنشرح لها نفسى ولا أراها إلا بقايا حجرة عمليات فى مستشفى أو ضماداً متناثراً عالقاً على جثة ضخمة .

ثم يكون فى الأرض بدل القطن وبعد القمح أذرة عويجة ، محصولها هو خلاصة حياة الفلاح ، إذا قال « مونة السنة » عنى بها ما يدخله من حبِّه فى داره ، إذا وفر لزوجته ما يكفيها منه فليس لها ان تسأله عن شىء غيره ، من عيدانه يقيم الأخصاص ويصنع الجدران والسقوف ، ووقيد الفرن ، ويقتل إن شاء من بين عيدانه الطويلة خصمه ، هذا هو موسم القتل . إذا تكوَّمت الكيزان المستديرة ودُقَّت على الغناء ـ بالعصى ، ونشأ تل من الحبوب وقف عليه الفلاح الميسور ـ وهو يذكر ربَّه وزكاته ـ يوزع العوايد ، هذا الكوم للمعدية ، وذاك للموالدى ، وآخر لبائعة الحلوى الفقيرة التى تجلس على رأس الدرب فى القرية ـ آه . . نسينا إنسانا آخر . . الحلاق . . إنه أقبل يهرول وفى يده كيس ، هو أكبر الأكياس فى ذلك اليوم .

وآخر صورة فى ذهنى عن غيط الأذرة هى هذه البقع الدموية التى تتناثر على الأرض مستديرة كالدنانير ، تنعقد فيها أشعة الشمس بعد أن تسربت بجهد بين عيدان صفر متمايلة ،ما أمتع منظرها ، لم أر للون الأحمر فى غيرها مثل جماله ، من أجلها أنسى لهذه العيدان ما تبعثه من أنفاس خانقة ، ورائحة زخمة عطنة ، وهاموش ، وما تخبئه من مكامن البنادق شغل اليد .

فراق

كنت راقداً بعد العشاء على السرير بعد نهار أنهك قواى وأنَّ له جسدى ، أُقلِّب ولا أقرأ صحيفة يومية فإذا بنظرى يقع على إعلان لوزارة الخارجية بأنها ستعقد مسابقة تعينِّ الفائزين فيها بوظائف أمناء المحفوظات ـ أى سكرتير ـ فى القنصليات والمفوضيات . إلقاء النظرة كان مجرد صدفة ، ولكنها قلبت حياتى رأساً على عقب ، فقد تقدَّمت ونجحت وإن جاء اسمى فى ذيل قائمة الفائزين ، فصدر الأمر بتعيينى أمينا لمحفوظات القنصلية فى جدة ، باعتباره أسوأ المناصب الشاغرة .

ما أبلغ هذا الانقلاب فى حياتى ، سأغادر الصعيد بل الوطن كله إلى بلاد مجهولة وراء البحار .

سأترك ظهر الحمار لأركب سيارات ترفرف عليها الأعلام ، حتى هى - لا شاغلها وحده - لها حصانة . . سأخلع بذلة لجنة المساحة (وهى أشد ملابسى قدماورثاثة) لألبس السموكن والبونجور والفراك والردنجوت ، ومن القبعات : الميلون والسلندر ، وقبعة الأوبرا وقبعة رمادية للصباح ، وسوداء للمساء ، وفوقها قبعة بيريه لركوب السفن .

سأترك مجتمعاً تعيش فيه المرأة وراء الحجاب لأعيش فى مجتمع تتربع المرأة فيه على عرشه ، هى التى تحرك الخيوط وتصنع الأقدار ، وبعد أن كنت أخاطب المرأة بلا مراسيم تعلمت كيف أنحنى أمامها فإذا مدَّت لى -دون أن تقف يدها ، وكانت سيدة لا آنسة ـ والحذر كل الحذر من الخطأ فإنها تكون غلطة لا تغتفر ـ وضعت على أناملها قبلة يجعلها الأدب والعرف

وسطا بين البرود والاندلاق ، ثم أمدُّها ذراعي لندخل معاً حجرة الطعام . فإذا جلست جانبي قاست هي والآخرون مقدار براعتي وثقافتي بمقدار نجاحي في إثارة انتباهها وتسليتها .

سأضع كل كلام اعتدته بما فيه من رقة وغلظ في حقيبة أختمها بالرصاص لأتعلم نوعاً آخر من الكلام ، وبلغة غير لغتي . إذا دخلت الصالون المزدحم بالمدعوين في حفلة شاي ينبغي أن أتحدث حديثاً فارغاً سهلاً خفيفاً ، مع التنقل كالنحلة من حلقة إلى أخرى ، ثم تنفض الحفلة فأقابل الوجوه ذاتها - لا تنقص أو تزيد الا قليلاً - في حفلة أخرى لشرب الكوكتيل ، وينبغي لي أن أدير الاسطوانة مرة أخرى ، ثم تنقضي الحفلة وأقابل الجميع لثالث مرة في يوم واحد في حفلة عشاء جلوساً أو وقوفاً ، فأُمثِّل الدور من جديد ، لم أجد شيئاً أشق من هذا العبث على نفسي .

سأنتقل من حياة يفيض فيها العمل المرهق عن الزمن المحدود إلى حياة يفيض فيها الزمن الفارغ عن عمل موهوم . . كدت أنحشر في زمن الباحثين عن قتل هذا الوقت الفارغ بالعبث والمجون . كنت في خطر شديد من أن تأسرني هذه المظاهر البراقة وأضيع وأصبح تفاهة لابسة سموكن ، ولكن شيئاً واحداً أنقذني ، ليس هو طبعي ولا تربيتي ، فالإنسان مهما صلبت إرادته غير معصوم من ضعف طارىء تنزلق عنده قدمه ثم لا يعرف كيف يقوم . إنما الذي أنقذني هو عملي سنتين بالصعيد ، هذا العمل الذي طالما أرهقني وأذاقني من عذاب الجسد والروح أشكالاً وألواناً ، والآن أحمده وأبوس يديه فقد عرفت بفضله - كما رأيت أنت - بلدي وأهله ومشاكله وشدة حاجته لمن يأخذ بيده من أبنائه .

أنقذنى هذا الشعور من الضياع وأقامنى إقامة وجدت فيها السلامة وراحة القلب بقدر ما فى الدنيا من سلامة وراحة قلب ، حتى كدت أومن - لا زهوا بل اقتناعاً - أن خير من يصلح للتمثيل الدبلوماسى هو من غرق فى الريف بين أحضان أهله زمناً غير قليل .

سأزور الحجاز وأدرس المذهب الوهابى ، وأعرف مشاكل الحج والكورنتينات ، وأرى جميع الشعوب الإسلامية ، وبعض كبار المستشرقين ، وكيف أن بعض الدول الإستعمارية تُعيِّن قناصلها هناك من بين رجال وزارة المستعمرات لا الخارجية ، ثم أزور تركيا فأشهد الحركة الكمالية فى عنفوانها ، ومظاهر تحوُّل حكومة شعب مسلم من دولة تعترف بدينه إلى دولة تتجاهله بل تعاديه ، ثم أعود إليها بعد غيبة طويلة ، فأرى انحسار هذه الموجه وأقارن بين العهدين .

عشت فى إيطاليا مع أطماع موسولينى وبهلوانيته خمس سنوات ، وزرت ألمانيا ورأيت وسمعت هتلر وأعوانه ، يؤجِجُّون الحركة النازية بمشية الأوزة ، وذهبت إلى فرنسا لأرقب مبادىء احتضار الجمهورية الرابعة على يد أحزابها المتفتتة ، ثم إلى ليبيا فأشهد مشاكل أمة عربية تحاول تدعيم استقلالها وسط مصاعب هائلة . .

وشهدت بعد هذا وذاك نمو سياسية مصر الخارجية مدى ثلاثين عاماً . إنى أحب أن أحدثك عن كل هذا إذا رأيت أننى لم أثقل عليك بهذا القدر من مذ كراتى ، ووجدت أنا فى العمر بقية،وفى الهمة إقبالاً،ومن الزمن مهادنة ومن النفس تواضعاً ، فادع لى بخير كما أدعو لك ،ولنفترق هنا على أمل باللقاء .

المحتوى

مقدمة ٥

الباب الأول ـ مدرسة الحقوق ومضاعفاتها

إلى أمى ٧
سلق بيض ٩
سحر الخطابه ١٢
الهلباوى ١٤
خطب لا خطيب ١٨
خطباء فى المساجد ٢٠
خطبة وفاء النيل ٢١
تجربتى فى الخطابة ٢٢
قتيلة فى حارة السكر والليمون ٢٣
أسماء الحارات ٢٧

مدرسة الحقوق فى عهدين ٢٩
فهمى النجار ٣٢
نزع ملكية ٣٥
ويلكوكس ٣٦
اساتذة وزملاء ٣٨

الباب الثانى-خبط عشواء ٤٧
احتضار ٤٩
شغف بالمجرمين ٥١
سلام للعريس ٥٣
إصلاحية الأحداث ٥٦
خبط عشواء ٦٠
سفه ٦٢
الأصفار خلصت ٦٤
فى النيابه والمحاماة ٦٥
الاسكندرية ٧٣
دمنهور ٧٥
سماسرة ٧٨
النصب ٧٩
فى ساحة المحكمة ٨٤
كسبت أول جناية وخسرت أول جنحه ٩٠

الباب الثالث ـ وجدت سعادتى مع الحمير ٩٩
حمار الأجرة ١٠٧
الحمير درجات ١١١
مدرسة الحمير ١١٣
حمير القاهرة ١١٧
لصوص الحمير ١١٩
نكت الحمارة ١٢٠
السرك وحماره ١٢١
الطبيب البيطرى ١٢٨

الباب الرابع ـ الصعيد ١٣١
الأخذ بالثأر ١٣٦
الذهاب للصعيد ١٣٨
معاون الإدارة ١٤٢
منفلوط ١٤٣
دبوس ١٤٦
آه . . . يا عينى ١٤٨
دجالون ١٥٠
سمات مهملة ١٥٨
إحصائيات ١٦١

حقن الفَرُّوج	١٦٣
ثلث الزمام	١٦٥
ورق لصق	١٦٩
فراغة عين	١٧٢
نهم المال	١٧٩
كلبشات	١٨٥
تشريح الجثة	١٨٧
يوم الكشف	١٩٤
داخل قلعة	١٩٥
قبلات وأحضان	١٩٦
سينما بدون رخصة	١٩٨
ماحدش زيك	٢٠٠
بيت الباشمهندس	٢٠٢
تسكع على الصبح	٢٠٩
سوق الجرائم	٢١٧
جمعية عمومية	٢٢٤
رحلة ملكية	٢٢٦
قصيدة من ٩٩ بيتاً	٢٣٢
ذكرى الراحلين	٢٣٤
الست ظريفة	٢٣٥
بائعات الهوى	٢٣٦
السوق السوداء	٢٣٨

تَوبة ٢٤١
الحمارة ٢٤٤
مزايدة ٢٤٧
الأم ٢٤٩
تنفيذ حكم الطاعة ٢٥١
يوم الفرز ٢٥٣
وفاء النيل ٢٥٨
فراق ٢٦١

مؤلفات يحيى حقى

صدر منها :

١ - قنديل أم هاشم ــ مع سيرة ذاتية للمؤلف (نفد) .
٢ - فجر القصة المصرية ــ مع ٦ دراسات من نفس المرحلة .
٣ - فكرة فابتسامة .
٤ - صح النوم .
٥ - خطوات فى النقد .
٦ - دمعة فابتسامة ــ مع الدعابة فى المجتمع المصرى .
٧ - دماء وطين ــ مع قصص أخرى من الصعيد .
٨ - تعال معى إلى الكونسير ــ مع الكاريكاتير فى موسيقى سيد درويش .
٩ - ناس فى الظل ــ مع شخصيات أخرى .
١٠ - أم العواجز .
١١ - حقيبة فى يد مسافر ــ ورحلات أخرى .
١٢ - عطر الأحباب ــ مع ٢٠ دراسة أخرى .
١٣ - عنتر وجولييت ــ مع ١٠ لوحات أخرى .
١٤ - يا ليل يا عين ــ سهراية مع الفنون الشعبية ــ مع مقالات السيرك والمولد .
١٥ - أنشودة للبساطة ــ مقالات فى فن القصة .
١٦ - خليها على الله .

كتب لم يسبق نشرها :

١٧ - صفحات من تاريخ مصر .
١٨ - من فيض الكريم .
١٩ - الفراش الشاغر وقصص أخرى .
٢٠ - مدرسة المسرح .
٢١ - هموم ثقافية .
٢٢ - تراب الميرى .
٢٣ - عشق الكلمة .
٢٤ - من باب العشم .
٢٥ - فى السينما .
٢٦ - هذا الشعر .
٢٧ - فى محراب الفن (موسيقى ـ تشكيل ـ عمارة) .
٢٨ - كناسة الدكان .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/٧٥٧١

ISBN ٩٧٧ـ ٠١ ـ ١٢١٤ ـ ٣